مشـــروع
كتابـــة تاريخ العرب

١ ـ هدف المشروع :

اعادة كتابة تاريخ العرب في موسوعة كاملة واحدة تؤكد الوحدة العريقة للامة العربية وغزارة ما قدمت للحضارة الانسانية ، وتكون وسيلة بين ايدي الاجيال العربية الجديدة لفهم الحاضر (الواقع) العربي في جوانبه المضيئة وجوانبه المظلمة وفي امكاناته الواعدة ، ولتزويد هذه الاجيال بالثقة بنفسها وبأمتها وبالقدرة على استيعاب منطق التقدم نفسه وبالوعي التاريخي الذي يحرر الماضي من اثقاله ويمنحه وزنه الحقيقي، والذي يعمل على تكوين بعد اساسي من ابعاد الشخصية العربية .

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبع من حاجة قومية قائمة وملحة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد ، ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب من كتابة التاريـخ العربي من جديـد أن يبرز خصائصه الكبرى ومنها :

١ ـ انه يحتفظ في جميع مراحله بنزوع عميق الى ترسيخ وحدة الامة العربية . فهو يرسم خطا متصلا على الرغـم من التعرجـات والالتواءات التي فرضتها عليـه التحديات الخارجية وعوامل الوهن الداخلي . فأمراض التخلف والتجزئة التي

لحقت احيانا بجسد الامة العربية لم تحرف روحها الدفينة عن أمانيها الثابتة . وذلك يؤكد ان الامة العربية لا تملك تاريخا واحدا فحسب ، ولكنها تنعكس في تاريخ وحدوي أصيل .

٦ ـ ان التوق الى العدل في صوره الفردية والاجتماعية ، سمة بارزة من سماته : تجسد ذلك في الفترات التي كان العرب فيها سادة أنفسهم ، كما بقي، فيالفترات الاخرى ، مخزونا في ضمائرهم ، يكشف عن نفسه في حركات القلق المتمرد وفي جملة نتاجهم الروحي .

ـ ان الحرية بكل معانيها ملازمة للوجود العربي في الزمان والمكان، فهي منمقدسات الافراد والجماعات لدى العرب ، يدافع عن بقائها ويعتز بها حين تكون ، ويجاهد في سبيل استردادها حين تزول .

والعبرة هنا ليست فيأشكال الحرية التي تحددها مقتضيات العصور وظروف النمو ، وانما في معناها الراسخ القائم على رفض السيطرة والطغيان ، وعلى الايمان بانها قانون الحياة الانسانية .

ـ ان العرب لم يتخلوا مطلقا عن حمل رسالة انسانية ، فهم متفتحون على كل ماهو خير عند الاغيار ، قادرونعلى الاخذ والعطاءوعلىالتفاعل الخصيب معالانجازات البشرية ، بل ان القيم الكبرى التي تحدوهم للنضال لم يعتبروها حكرا لهم أو مقصورة عليهم بمقدار ما اعتبروها حقوقا طبيعية للجماعات الانسانية كلها .

ـ ان رابطة حية تجمع بين مظاهر الحياة العربية ، فأحداث السياسة لا تنفصل عن نتاج الفكر والوجدان ، ولا عن نزعات الشعب الدائمة . لذلك يجدر بالتاريخ العربي ان يؤكد الصلة بين تجلياته المتعددة بحيث يبرز ما فيها من تأثير متبادل، ومن تعبير موحد في الوقت نفسه .

ـ ان التاريخ العربي الذي يكشف عن روح الامة العربية لا يمكن ان يفسر بهذا العمل وحده او ذاك ، وانما يفهم في ضوء مجموعالعوامل المتآزرة حيناوالمتناقضة حينا آخر ، بحيث يتضح دور كل من البيئة والتطور الاقتصادي والمؤثرات الاجنبية ، والتحديات والضعف الداخلي ، وغير ذلك ، الىجانب الارادة المصممة على تحقيق القيم المعنوية والرسالة الانسانية .

٢ ـ مبادىء العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي .

آ ـ ينطلق العمل من الايمان العميق بوحدة الامة العربية بمر العصور من جهة وفي مختلف اقاليم الوطن العربي من جهة أخرى . والمنطلق الوحدوي يقتضي :

- كشف وحدة التيارات التاريخية والحضارية في مختلف العصور .
- اظهار ترابط الاقطار العربية وخاصة عند تعرضها للاخطار الخارجية التي تستهدف الوطن العربي او جزءا منه .
- تأكيد استمرار العطاء الحضاري العربي للانسانية بمر العصور ، وفاعلية هذا العطاء وقيمته الانسانية الرفيعة .
- تجنب مزالق التعصب العنصري ، ومشاعر التفرقة والعصبيات الدينية او الطائفية .

ب ـ أما الفهم الحضاري للتاريخ فيهدف الى ابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب ، واعطاء هذه الامة قيمتها الحضارية بين الامم . لهذا يؤكد على :

- ضغط التفاصيل السياسية والاحداث الهامشية قدر الامكان . وبالمقابل يجري التركيز على ابراز الاحداث الحضارية من اجتماعية وفكرية واقتصادية وفنية .
- تخفيف ما اعتاد المؤرخون من قبل ابرازه من ادوار الافراد في التاريخ . ليبرز بالمقابل دور الشعوب والقواعد الجماهيرية الواسعة .
- النظر الى التطورات التاريخية على انها تطور مجتمعات ذات روح حضارية واحدة وحركة ذاتية متصلة واتجاه لا ينقطع نحو الاسمى .
- كشف ما قدمه العرب من اسس حضارية للانسانية وبيان استمرارية هذه الاسس وفاعليتها .

ج ـ واما التقيد باسلوب البحث العلمي فهو يقتضي :

- اتباع المنهج التاريخي في اغنى صوره ، من حيث اعتماده على مختلف العلوم المساعدة وعلى المصادر الاصلية ، وعلى التوثيق الدقيق .
- عرض الآراء المختلفة عند الضرورة عرضا موضوعيا .

- تحليل الاحداث والوقائع في تطورها الحي وليس سردها المتسلسل السكوني .
- بحث الاحداث في جذورها الاقتصادية والاجتماعية واظهار دور العوامل الروحية ، وذلك بحسب ما تقتضيه الفترة التاريخية وطبيعة الاحداث .
- عدم اهمال الصلات العالمية تأثيرا وتأثرا في مختلف العصور ، بمعنى ان يكون المنظور العالمي الشامل حاضرا في الذهن عند التحليل والتفسير .
- اعتماد القيم الاساسية في الثقافة العربية لتقويم الاحداث الهامة والاشارة الى النقائص والاخطاء .
- الاهتمام الدائم بشرائط العرض التاريخي من حيث التماسك الداخلي ووضوح العبارة وسلامة الاسلوب .

هذا وان الهدف الاول من مبادىء العمل كلها ان تكشف الموسوعة عن روح الامة العربية وعبقريتها الذاتية ، وان تتخذ الاحداث الكبرى دلالات قومية وانسانية بحيث تفصح عن معنى الوجود العربي ونمائه في التاريخ .

٣ ــ حجم مؤلف (تاريخ العرب) وحدوده الزمنية واقسامه :

ينقسم (تاريخ العرب) الى خمس حلقات أو مراحل كبرى :

اولا ــ الاصول (في مجلدين) :

١ ــ جغرافية الوطن العربي .
٢ ــ الوطن العربي مهد الحضارات الاولى .
آ ــ التاريخ القديم لبلاد الشام وما بين النهرين والجزيرة العربية .
ب ــ تاريخ مصر القديم .
جـ ــ تاريخ المغرب القديم .

يتم التركيز على **التفاعل** بين الحضارات القديمة في الوطن العربي **والسمات المشتركة** بين هذه الحضارات **وأثرها** في تكون الامةالعربية .

٣ ــ الجذور التاريخية للامة العربية (الحضارة العربية قبل الاسلام).

ثانيا ــ الدولة العربية (في خمسة مجلدات)

آ ــ عهد الرسول ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الاموية ، والعصر العباسي الاول .

ب ــ الجناح الغربي من الوطن العربي : المغرب والاندلس وصقلية حتى قيام الخلافة في الاندلس .

ثالثا ــ تفكك السلطة المركزية (في ثلاثة مجلدات):

آ ــ سيطرة الجند التركي والبويهيين والسلاجقة ، وقيام الدويلات في الخلافة العباسية .
ب ــ قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد الشام .
جـ ــ الخلافة في الاندلس .
د ــ ازدهار الحضارة العربية في المشرق والمغرب .

رابعا ــ التحديات والصمود (في اربعة مجلدات) :

آ ــ غزو الصليبيين والمغول للوطن العربي :
ب ــ ردود الفعل العربية في عهود الاتابكة والايوبيين والمماليك والمرابطين والموحدين .
ــ السلالات الاقليمية في المغرب والاندلس .
جـ ــ ابراز المظاهر الحضارية والتأثيرات المتبادلة بنتيجة الصراع بين الامة العربية والغزاة .
د ــ احتلال العثمانيين معظم اقطار الوطن العربي في القرن السادس عشر .
هـ ــ الثورات العربية على العثمانيين منذ القرن السادس عشر .
و ــ ظهور الحكم المحلي في المشرق والمغرب العربيين في القرن الثامن عشر .

خامسا ــ اليقظة القومية العربية (في مجلدين) :

آ ــ الوعي القومي في القرن التاسع عشر : عوامله ومظاهره .
ب ــ التدخل الاستعماري الاوربي .
١ ــ التدخل الاوربي في الوطن العربي .
٢ ــ الاحتلال الاوربي لاقطار الوطن العربي .
جـ ــ حركة النضال العربي:
١ ــ دور القوى التقليدية (الدينية والاقطاعية) .
٢ ــ دور الاحزاب ذات الاهداف الوحدوية والاجتماعية .

توجيهات عامـة

آ ـ عند كتابة **مرحلة الاصول** يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ ـ ابراز الوجه الحضاري للامة العربية قبل الاسلام والالحاح على اظهار المنجزات الحضارية والثقافية للامة العربية في هذه المرحلة من تاريخها، ودحض الاتجاه الذي يحاول تصوير هذه المرحلة بانها فترة مظلمة خلت من كل تقدم وعطاء وقيم .

٢ ابراز التشابه في بعض المظاهر الحضارية بين مختلف الحضارات التي قامت على ارض المشرق العربي في (الدين ، المنجزات العمرانية ، المظاهر الفكرية ، بعض التشريعات والقوانين والاعراف والتقاليد ، الاوضاع الاجتماعية) مع مراعاة ما ادى اليه التماس مع بعض الحضارات غير العربية من اختلاف في هذه المظاهر في منطقة دون اخرى .

٣ ـ التاكد على ان الاسلام لم يكن مقطوع الصلة بالقيم والجوانب الايجابية في المجتمع العربي قبل الاسلام ، وابراز بعض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والقيم الاخلاقية ، التي كانت سائدة في المجتمع العربي قبل الاسلام، لتكون المرتكز في تاكيد ذلك .

٤ ـ بيان الصلة القائمة بين العروبة والاسلام ، بالمقارنة بين علاقة الاسلام بالتاريخ العربي وعلاقته بتاريخ الشعوب الاسلامية الاخرى .

ب ـ وعند كتابة **مرحلة الدولة العربية** يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ ـ التاكيد على ان الاسلام عطاء عربي ورسالة انسانية تمثل القيم العربية ، حملها العرب الى العالم ، مع ابراز الملامح الجديدة للمجتمع العربي بعد قيام الاسلام والتغيرات التي دخلت عليه .

٢ ـ ابراز دور الاسلام القومي في توحيد العرب واقامة الدولة العربية .

٣ ـ التاكيد على الوجود العربي في المناطق المفتوحة قبل الفتح ، واظهار ان الفتح لم يكن عملية غزو عسكري ، وابراز أهمية العامل العقائدي في الفتح او دحض نظرية العامل الاقتصادي كسبب اساسي للفتح ، والتركيز على كل الاحداث التي تبرزالدافع القومي في الفتوح في مواجهة الفرس والروم .

٤ ـ ابراز اهمية ظهور فكرة الدولة المركزية ذات الهدف الواحد والعقيدة الواحدة في توضيح الصراعات التي قامت بين النظرية القبلية ونظرية الحكم من المركز زمن الراشدين ، وبين الدولة العربية والقوميات التي خضعت لها في العصرين الاموي والعباسي (موالي ، شعوبية ..الخ).

٥ ـ اظهار دور العاملين الاقتصادي والقومي في شرح احداث العصرين الاموي والعباسي .

٦ ـ ابراز أهمية تمازج الثقافات في العطاء الحضاري والثقافي في العصرين الاموي والعباسي .

٧ ـ ابراز الوجه العربي للعصر الاموي وشرح اسباب انحسار النفوذ العربي عن المسرح السياسي بدءا من القرن الثالث الهجري وما بعد ، وتحول الثقل الى بعض القوى التي تنتمي الى قوميات غير عربية ، (بويهيون ، سلاجقة ..الخ) ، والاعتماد في هذا الشرح على بعض العوامل مثل : (العامل الجغرافي، الجيش ، الاسباب الاقتصادية والاجتماعية وما دخل من تغيير على حياة العرب).

ج ـ وفي كتابة **تاريخ المغرب والاندلس في العصور الوسطى** يستحسن مراعاة ما يلي :

١ ـ في عرض النزاعات في ظل الامارة الاموية في الاندلس لا يتم ابراز الجانب الديني في هذه النزاعات على حساب الجوانب الاخرى ، كالجانب الحضاري والثقافي والاقتصادي والقومي.. الخ.

٢ ـ اعتبار الحلقات المتلاحقة لتاريخ المغرب خطوات متابعة على طريق تكوين الشخصية الحضارية الواحدة للمغرب والمشرق على السواء ، أي عكس ما تسير عليه المؤلفات الحديثة المتأثرة بالكتاب الفرنسيين ، والتي تجعل روحه المحركة الصدام بين المغرب كوحدة ، مع المشرق كوحدة ، اسفر اخر الامر عن انفصاله التام .

والاهتمام بدحض التفسيرات ذات النزعة الاستعمارية الواضحة لبعض المؤرخين الفرنسيين .

٣ ـ ابراز وحدة المصير بين المغرب والمشرق منذ الفترات التي سبقت فتحه (وحدة السلطات السياسية المسيطرة ـ الدور العالمي المتماثل للطرفين قبل الفتح ـ جزء من التجزئة العامة ـ الاخطار الخارجية الواحدة والحملات الصليبية خاصة وابراز الترابط العضوي بين المغرب والمشرق ، وتبيان اثر ضعف الجناح الغربي على الجناح الشرقي ـ دور جزر المتوسط ـ تدهور السيادة العربية على الشواطىء الاطلسية واثره في تهديد الشواطىء العربية في المشرق حتى الخليج) .

٤ ـ توجيه الانتباه في دراسة التيارات المذهبية التي سادت في المغرب الى اعتبارها مظهرا من مظاهر الوحدة والتركيز على جذورها الاقتصادية والاجتماعية لا على الفكر المذهبي واختلافاته مع المذاهب الاخرى التي بالغ فيها مؤرخونا القدماء (مسالة الخلافة والامامة ـ الخوارج والشيعة) .

٥ـ اعادة النظر في تقويم موضوع انسياح القبائل البدوية العربية في المغرب وعدم الانسياق مع الاتجاهات المغرضة لبعض المؤلفات الحديثة وخاصة الاوربية فيه (توضيح مفهوم ابن خلدون لكلمة العرب ـ دورهم في الاضطراب السياسي والاقتصادي).

٦ ـ معالجة تاريخ الاندلس في جميع الفترات على انه « تاريخ العرب في الاندلس» وليس « تاريخ اسبانيا الاسلامية » الذي درجت المؤلفات الاوربية على استخدامه .

٧ ـ ابراز اعتبار الاندلسيين لانفسهم جزءا من ديار الاسلام الواحدة والتماثل بين المشرق والمغرب في مختلف نواحي الحياة الادارية والاقتصادية والثقافية .

د ـ ومع اخذ الملاحظات السابقة المتعلقة بكتابة **تاريخ المغرب والاندلس** بعين الاعتبار ، يستحسن عند كتابة مرحلة **تفكك السلطة المركزية** مراعاة مايلي:

١ ـ شرح بعض الاحداث السياسية الداخلية والحركات الثورية والدينية في القرن الرابع وما بعد (قرامطة ـ زنج ـ عيارون وشطار ..) من منظور اقتصادي اجتماعي وبشري .

٢ ـ ابراز العطاء الحضاري والثقافي في الادوار العباسية المتاخرة ودحض المتعارف عليه من تسميتها بعصور الانحطاط .

٣ ــ التمهيد لشرح اسباب ومبررات الصدام بين الشرق والغرب من واقع الدولة العربية بدءا من القرن الرابع الهجري ، ومع واقع العلاقات الدولية في المرحلة والاوضاع الداخلية في دول الغرب .

وعند كتابة مرحلة **التحديات والصمود** تؤخذ الملاحظات السابقة المتعلقة **بتاريخ المغرب** بعين الاعتبار ، ويستحسن مراعاة مايلي:

١ ــ التركيز على ردود الفعل الوطنية في المشرق والمغرب على حد سواء وفي جميع الاقطار العربية ضد مختلف اشكال الغزو الاجنبي .

٢ ــ مع شرح العوامل الاقتصادية التي ادت الى قيام الحملات الصليبية ، من المفيد ايضاح اثر الانشقاق الكبير في الكنيسة وشرح استغلال التعصب الديني في الدعوة الى هذه الحملات .

هـ ــ وعند كتابة مرحلة **اليقظة القومية العربية** يستحسن مراعاة مايلي :

١ ــ من المفيد عدم المبالغة في اثر حملة نابليون في اليقظة القومية العربية على نحو ما يذهب اليه البعض من انها أوجدت هذا الوعي القومي من الفراغ ، والتركيز على ردود فعل الشعب العربي عليها وعلى اثرها باعتبارها تحديا للامة العربية وكونها اول شرارة او اول احتكاك مع الحضارة الغربية كشفت عن فساد اساليب الحياة القديمة وتفسخ الحكم العثماني .

٢ ــ التركيز على ان الدعوة الوهابية باعتبارها دعوة الى العودة الى المنابع الاصلية للدين هي اول تحد ديني عربي للزعامة الدينية العثمانية وعدم التركيز على الجوانب الاخرى من الدعوة الوهابية .

٣ ــ التركيز بالنسبة الى عهد محمد علي على تعريب الدولة وتحديثها ــ ظهور فكرة الدولة العربية ، وهي أول محاولة في التاريخ الحديث لاعادة تكوين الدولة العربية في المشرق والمغرب وتحدي السلطة العثمانية ووقوف جميع القوى الكبرى في ذلك العصر ضد قيام دولة عربية قوية في المنطقة .

٤ ــ دراسة تيار الجامعة الاسلامية في مصر وسائر الاقطار العربية في افريقيا ومقارنته بالتيار القومي العربي في المشرق .

٥ ـ يتم ابراز البذور الاولى للفكر التقدمي الاشتراكي في الفكر العربي في الفترة المنتهية بنهاية الحرب العالمية الاولى .

٦ ـ يتم التركيز على شرح السياسة الاستعمارية في ترسيخ التجزئة وفي خلق الدعوات الاقليمية (البربرية في المغرب ، الفرعونية في مصر ، القومية السورية في بلاد الشام) وردود الفعل العربية على هذه الدعوات .

٧ ـ في دراسة الحركة الصهيونية وتحالفها مع الاستعمار يجب الا يهمل ابراز المصلحة المشتركة بينهما في اقامة حاجز يفصل المشرق عن المغرب ويحول دون قيام الوحدة العربية .

٨ ـ يتم التركيز على شمولية ردود الفعل على الحركة الصهيونية لجميع اقطار الوطن العربي .

المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٩٣١

محاولة للبحث عن نصير

د . خيرية قاسمية

جامعة دمشق

مقدمة :

اتخذت فلسطين وضعا متميزا منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حين اضبحت هدفا للحركة الصهيونية ، وخلال الحرب العالمية الاولى التقت على ارض فلسطين المصلحة البريطانية والصهيونية لايجاد الوطن القومي اليهودي ، وجاءت قرارات سان ريمو ١٩٢٠ لتحكم عليها بنظام الانتداب البريطاني الذي تكفل بانشاء الوطن القومي اليهودي فيها . ولم تنفرد فلسطين بهذه الظاهرة الاستعمارية ، فقد خرج عدد كبير من الاقطار العربية الاسلامية من الحرب وهو يرزح تحت صور مختلفة من اشكال النفوذ الاجنبي ، وأخذ يسعى لازالة السيطرة الاجنبية ولنيل الاستقلال التام . وفي فلسطين تعقدت المهمة ، لان الحركة الصهيونية كانت ذات طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة اي احتلال اجنبي او اية قضية استعمارية اخرى ، « فهي عاملة بكل الوسائل لاستئصال الوجود العربي من فلسطين ، بل من كل المنطقة العربية التي تتناولها مخططاتها» (١) . وكذلك لانها كانت تحظى بتأييد اجماعي من الدول الغربية الاستعمارية.

وكان توازن القوى بين عرب فلسطين من جهة ، وتحالف الامبراطورية البريطانية مع الصهيونية العالمية خلال فترة الانتداب ، من جهة اخرى ، مفقودا . ولم يغب عن ابناء فلسطين ، وهم يواجهن الخطر المزدوج البريطاني ــ الصهيوني ، ان بوسعهم مقاومة سياسة الانتداب والصهيونية بنجاح أكبر لو التقوا مع قوى وطنية اخرى ،

عربية واسلامية ، تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاقتصادي والسياسي الذي تعتبر الصهيونية اخطر اشكاله . وقدم قادة الحركة السياسية الفلسطينية قضيتهم على انها جزء من تحد عام للعالمين العربي والاسلامي(٢) : ففلسطين جغرافيا وتاريخيا قطعة من الوطن العربي بل صلةالوصل بين شطري الوطن العربي، الاسيوي والافريقي. والحركة الصهيونية تمثل خطرا على الوجود العربي تهدف لانتزاع اقليم هام له مكانته الخاصة في الوطن العربي ، والوقوف حاجزا في وجه الوحدة العربية .. والقدس ، وطن الاسراء ، تلي الديار الحجازية في المقدسات ، تمثل القبلة الاولى للاسلام وفيها ثالث الحرمين الشريفين . وفلسطين مثوى علماء المسلمين وشهدائهم ومئات من الصحابة .

وعقدت الحركة الوطنية الفلسطينية الامال على عمل عربي عام ، وربطت بين اماني البلاد العربية الاخرى واماني فلسطين ، فكانت قضية فلسطين من اكثر العوامل في تعميق الوعي القومي ، كذلك ادرك العاملون في الحركة الوطنية أهمية استنهاض العالم الاسلامي من أجل القضية الفلسطينية ، والحاجة الى تاييد دول هذا العالم وشعوبه لمواجهة الصهيونية العالمية في غزواتها على الديار المقدسة ، والرد على الدعاوي الصهيونية الدينية في البلاد ، ودعّم المسيحيون في فلسطين موقف المسلمين ، وكان التعاون وثيقا بينهم لان الخطر الصهيوني على الاراضي المقدسة يهددهم ايضا(٣) .

وكان الاتجاهان القومي والديني يشكلان نسيجا متماسكا داخل الحركة الوطنية، للتصدي للحكم البريطاني وللقضاء على سياسة الوطن القومي . ويعد المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس ١٩٣١ جسرا ما بين الاتجاهين ، مع انه ظاهريا يمثل أوج الجهد الذي بلغه مسعى الفلسطينيين للتاكيد على أهمية فلسطين للمسلمين في جميع انحاء العالم ، ومسؤولية كل المسلمين في الحفاظ على المقدسات الاسلامية فيها .

بدايات الفكرة :

بدأت فكرة استنفار العالم الاسلامي وضرورة تعبئته الى جانب قضية فلسطين مع بدايات ظهور زعامة الحاج أمين الحسيني ، بعد ان عين في مطلع العشرينيات في مركزين أتاحا له التمرّس بدور على جانب من الاهمية في سياسة بلده ، احدهما منصب مفتي القدس (٤) (واصبح يدعى المفتي الاكبر) ، والثاني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى (٥) ، وتجاوزت مكانة المركزين حدود الدوائر الدينية . ورغم وجود المؤسسات الصغيرة المتمثلة في المؤتمرات الوطنية واللجان التنفيذية المتعاقبة والمنتخبة في المؤتمرات الوطنية(٦) ، أصبح الحاج أمين القاعدة الاساسية للحركة الوطنية وزعيم البلاد ، والعنصر الموجه في المحيط العربي ، بالاضافة الى الدور العظيم الذي كان يقوم به في

مضمار الشؤون الاسلامية المحضة(٧) ، كما اصبح المجلس الاسلامي الاعلى وما يتبعه من دوائر واجهزة مركز الثقل في النضال ضد الوطن القومي وضد سلطات الانتداب، رغم وجود اساليب ومستويات اخرى للتعبير . وكان للحاج أمين يد طولى في تنشيط المواسم الدينية (كموسم النبي موسى) ، بما كان له من سلطة على الشؤون الاسلامية، لاذكاء الروح الوطنيـة وجعلها فرصة للتوعية القومية(٨) ، وحول المجلس الاسلامي الاماكن المقدسة إلى رموز سياسية والى نضال للحفاظ على التراث الاسلامي التاريخي في فلسطين ، وهي مسألة لا تؤذي مشاعر المسيحيين الفلسطينيين لانهم يتخوفون على سلامـة الاماكن المقدسـة في حال استيلاء الصهيونيين على البلاد(٩) . وتولى الحاج ، بوصفه رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ومفتي فلسطين الاكبر ، تنفيذ خطة جمع كلمة المسلمين حول فلسطين ، واحرز نجاحا كبيرا تمثل في مبادرة العديد من زعماء المسلمين ومؤسساتهم الى ارسال التبرعات لاصلاح المسجد الاقصى واعماره(١٠)، وفي قيام وفود فلسطينية ، بزيارات متابعة الى عدد من البلدان العربية والاسلامية لتعزيز اهتمامها بوجود مشكلة فلسطين . واتصلت الوفود الفلسطينية الى الحجاز بالحجاج من جميع انحاء العالم واعلنت للعالم الاسلامي ان الاماكن المقدسة في خطر عظيم من الاعتداء الصهيوني . وانه « لو تحققت اطماع واماني الصهيونية في فلسطين ، لا قدر الله ، كانت وبالا على المسلمين »(١١) . واخذ الحاج أمين يحوز الاحترام من الشخصيات السياسية والدينية في كل العالم الاسلامي فرأس وفودا الى مصر ١٩٢٣ والعراق والكويت والبحرين وجنوب ايران ١٩٢٤ ، وبادر للتوسط في الصلح بين ابن سعود والحسين في حرب الحجاز، واتصل بحكام العرب المسلمين بهذا الشأن(١٢) ، وحضر المؤتمر الاسلامي في القاهرة ١٩٢٦(١٣) . وانشغل المجلس الاسلامي بشكل علني في السياسة بعد عام ١٩٢٨ مع نشاط الحركة الوطنية اواخر العشرينيات اثر ظهور مشكلة البراق(١٤)، ورعى المجلس (جمعية حراسة الاقصى والاماكن المقدسة (١٥))، وادار القضية الاسلامية التي قدمت امام اللجنة الدولية للتحقيق بمسألة البراق واستطاع حشد عدد من محامي العالم الاسلامي المشهورين في الدفاع عن حقوق المسلمين في البراق الشريف(١٦) وأكد المجلس على ان مسلمي فلسطين هم فقط سدنة الحرم الشريف باسم كافة المسلمين ، وان التعدي على حقوق العرب المسلمين في فلسطين سوف يكون له ردود فعل في جميع انحاء العالم الاسلامي(١٧) . ووصل هذا الجهد اوجه في المؤتمر الاسلامي الذي دعا له الحاج أمين ١٩٣١ .

ولم يكن مؤتمر ١٩٣١ المحاولة الاولى لعقد مؤتمر اسلامي في العصر الحديث ، ويشير رشيد رضا في صفحات المنار(١٨) الى ان عددا من كبار اصحاب الرأي من المسلمين منذ اواخر القرن الماضي فكر بشدة الحاجة الى الاجتماع للبحث في اسباب

ضعف امتهم وما يجب من معالجته واعادة مجدهم السابق بما تقتضيه حالة هذا العصر من علم وعمل والي تأليف جمعية ذات فروع كثيرة ، وان اعظم هؤلاء المفكرين جمال الدين الافغاني .. ويذكر رشيد رضا بمقال له كتبه أواخر القرن الماضي عنوانه « الاصلاح الديني المقترح على مقام الخلافة الاسلامية » (١٩) وان « هذا الاصلاح يتوقف على تاليف جمعية اسلامية تحت حماية الخليفة يكون لها شعب اعظمها في مكة .. ويكون أهم اجتماعات الشعبة في موسم الحج » .. ويضيف رضا ، الى انه قد تبين في تلك المقالة مايجب ان تقوم به الجمعية من الاصلاح لجمع كلمة المسلمين والقيام بمصالحهم العامة(٢٠) ، والى ان الكواكبي في كتابه ام القرى هو « اوسع شرح لمشروع اعظم مؤتمر اسلامي للاصلاح العام » . وفي القرن العشرين ، وبالاضافة الى مؤتمري الحج في مكة آب/اغسطس ١٩٢٢ ويوليو / تموز ١٩٢٤ ، عقد مؤتمران اسلاميان عام ١٩٢٦ ـ ولا علاقة بين الاثنين ـ الاول مؤتمر الخلافة في القاهرة(٢١) والثاني المؤتمر الاسلامي العام في مكة(٢٢) . وشارك عدد من ابناء فلسطين في المؤتمرين، وكان مفتي فلسطين احد كبار الحضور في المؤتمر الثاني .

الدعوة الى عقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٣١ :

تعود فكرة عقد مؤتمر اسلامي في فلسطين يشترك فيه مندوبون وزعماء من مختلف الاقطار العربية والاسلامية الى ما قبل ثورة البراق ١٩٢٨ ، ذلك انه لمواجهة القوة السياسية والاقتصادية الصهيونية عبر العالم كان لابد للعرب من اللجوء الى قوة لايقاف الانحياز البريطاني تجاه اليهود ، وتوصل الحاج امين الى حلها باللجوء الى قوة العالم الاسلامي مستندا الى مكانته الدينية . ويقول عزة دروزة في مذكرات غير منشورة(٢٣) ان الفكرة قد انبثقت في ذهن الحاج امين والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي (٢٤) الذي جاء الى فلسطين قبل ثورة البراق بمدة وقام بينه وبين الحاج امين وبعض المشتغلين بالقضية الوطنية ، ومن جملتهم دروزة ، انسجام وصداقة وثيقة . وتجددت الفكرة للدعوة الى مؤتمر اسلامي عام في القدس بعد تفجر احداث ١٩٢٨ من اجل اثارة اهتمام الرأي العام الاسلامي العالمي وكسب عطفه وتأليف جبهة اسلامية قوية تستطيع الوقوف في وجه الصهيونية العالمية ، « فالعاطفة الدينية الاسلامية هي من اقوى الاسلحة التي يمكن استخدامها للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين ، اذ انها قادرة على التاثير على مئات الملايين من الناس المنتشرين في جميع انحاء العالم وعلى خلق مشاكل سياسية خطيرة لبعض الدول الغربية ولانكلترا بنوع خاص (٢٥) .. » وحال اقدام الحكومة البريطانية على تشكيل لجنة البراق دون الاستمرار في تنفيذ الفكرة لعقد المؤتمر . ولا صحة للادعاء القائل ان عقد المؤتمر التبشيري في القدس

نيسان/ابريل ١٩٢٨(٢٦)، او عقد المؤتمر الصهيوني في زوريخ ١٩٢٩(٢٧) ، كان دافعا لعرب فلسطين لعقد مؤتمر مماثل(٢٨) .

ومن المحتمل ان تكون الفكرة عادت فتجددت مرة اخرى بمناسبة قضية البراق وشهادات ممثلي الاقطار الاسلامية امام لجنة البراق ١٩٣٠ ورأى الحاج أمين في هذا الجو من التعاطف على القضية الفلسطينية انه من المفيد اشراك المسلمين جميعهم في « هم" فلسطين العظيم وقضيتها » على حد قول دروزة في مذكراته غير المنشورة .وكان قرار عقد المؤتمر قد سبق واتخذ قبل توجيه رسالة مكدونالد (الكتاب الاسود) الى وايزمان في ١٣ فبراير / شباط ١٩٣١ (٢٩) ، وقبل صدور توصيات اللجنة الدولية للتحقيق بمسألة البراق في يونيو / حزيران من نفس العام(٣٠) ، ولم يكن للوثيقتين الدور الحاسم ولكن كان لهما أهميتهما في الجو الذي رافق الاعداد للمؤتمر(٣١) . وقد فاتح الحاج أمين الزعيم التونسي الثعالبي بذلك فحبذه ، وكان الثعالبي قد عاد الى فلسطين في اواسط ١٩٣١ بنية المكوث فيها مدة طويلة وهيأ له الحاج امين بيتا قرب الحرم وصار يلتقي مع رجالات الحركة الوطنية في المجلس الاسلامي وفي مناسبات متعددة(٣٢) .

ولاقت الفكرة موافقة الزعيم الهندي شوكت علي(٣٣) ، وبدأت الاستعدادات الحثيثة لعقد المؤتمر قبل اشهر من انعقاده . ويقول عزة دروزة في مذكراته ، غير المنشورة ، « ان الحاج أمين والثعالبي اتفقا على بقاء الجهد في سبيل ذلك سرا ، الى ان تلوح بوادر نجاحه وعلى ان يرسل الحاج امين بصفته رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى رسائل الى بعض الشخصيات الاسلامية الشهيرة .. لمفاتحتهم بالفكرة واستطلاع رأيهم فيها(٣٤) » ، وورد عليه ردود مشجعة .وحينئذ دعا المفتي عددا من اخوانه واصدقائه من رجال الحركة الوطنية ، وكان دروزه منهم ، وشرح لهم الفكرة بحضور الزعيم التونسي الذي ايدها وحبذها فوافقوا عليها . وتألفت لجنة تحضيرية للدعوة وتهيئة اسباب نجاح المؤتمر ماديا ومعنويا(٣٥) . وفي منتصف اكتوبر / تشرين أول ١٩٣١ ارسلت الدعوات باسم رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ومفتي (الديار القدسية) ، الى عدد من رجالات العرب والمسلمين من زعماء سياسيين ورجال دين وعلماء وادباء ، في مصر والعراق وسورية ولبنان وجزيرة العرب وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والهند وجاوا وماليزيا وايران وافغان وسيلان وتركية وتركستان والبشناق في يوغسلافيا . وجاء في نص الدعوة ان الهدف من المؤتمر هو من اجل « البحث في حالة المسلمين الحاضرة ، وفي صيانة الاماكن المقدسة الاسلامية من الايدي المتدة اليها الطامعة بها ، وفي شؤون اخرى تهم المسلمين جميعا(٣٦) .» وحدد مكان وموعد المؤتمر في جوار المسجد الاقصى في ليلة الاسراء المباركة في ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠

وفق ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ . ولم تتضمن الدعوة جدولا محددا بالمسائل التي ستبحث في المؤتمر المقبل الا التاكيد على الطابع الاسـلامي البحت للمؤتمر(٣٧) . وبدأت الاجوبة ترد من شخصيات بارزة في مختلف الاقطار تعلن عزمها على القدوم والمشاركة في المؤتمر ، وأخذت اللجنة التحضيرية توالي اجتماعاتهالاعداد جدول اعمال المؤتمر واسباب اقامة راحة المدعوين ، « ولما اخذت جدية المؤتمر تبدو بدأت الدسائس حوله وحول القائمين به في فلسطين وخارجها » (٣٨).

العثرات في سبيل عقد المؤتمر :

لم تحل العمومية الشاملة في الدعوة للمؤتمر دون فهم السلطات البريطانيـة ، وكذلك الصهيونية ، المقصد الرئيسي للمؤتمر ، فالحكومة البريطانيـة كانت تتخوف منذ قيام قضية فلسطين ان يتدخل مسلمو العالم في هذه القضية لانها كانت تخشى ان تقوم حركات في الاقطار الاسلامية تأييدا لقضية فلسطين وشعبها تتطـور تلقائيا الى حركات ضد الحكم البريطاني في تلك الاقطار . كما انها كانت تدرك مدى الضرر الذي يستطيع العالم الاسلامي ان يلحقه بالحركة الصهيونية التي كانت بريطانيا تتبناها اذا هو ناصر الفلسطينيين ، ولذا دابت تعمل بشتى الوسائل لابعاد مسلمي العالم عن قضية فلسطين وعزلها عن العالم الاسلامي(٣٩) . ولا شك ان عقد مؤتمر اسـلامي في القدس ليكون بمثابة مظاهرة للاعلان عن تضامن المسلمين مع الفلسطينيين قد اثـار شكوك الحكومة البريطانية . وأخذت الدعايات تبث لتشكيك العالم الاسلامي ببـراءة فكرة عقده ، واشيع ان المؤتمر سيبحث مسالة الخلافة واختيار خليفة جديد ، وكتب الحاج امين حول ذلك في رسالة الى شوكت علي في لندن اشار فيها الى اتهام المفتي والثعالبي وشوكت علي بان غايتهم « ان يؤتى بالخليفة عبد المجيد وينصب خليفـةعلى المسلمين في القدس الشريف . وقد قصدوا في نشرهذه الاراجيف ان يضطرب الـرأي العام الاسلامي في جميع الاقطار »(٤٠) . واجرى المسؤولون البريطانيون اتصالات هامة رسمية بالحكام العرب والمسلمين وبعض اقطابهم وزعمائهم يحضونهم على رفض دعوة المفتي لعقد المؤتمر ، ويحاولون اثارة مخاوفهم مـن اجتماع المؤتمر(٤١) . ونجحـت الاتصالات التي اجراها المفتي مع سائر حكام الاقطار الاسلاميـة وقادتهـا في ازالـة الشكوك التي اثارتها في اوساطهم المساعي الاجنبية فقرروا تأييد المؤتمر وتشجيعه(٤٢).

واخذت حملة المعارضة للمؤتمر في مصر شكلا اوسع ، ذلـك ان « الملك فؤاد او اولياؤه ظن ان المؤتمر قد يتناول موضوع الخلافة الاسلاميةوالبت فيها»(٤٢) ، واثارت صحف مصر احتمالات بحث موضوع الخلافة في المؤتمر المزمع عقده في القدس ، فسارع الحاج امـين الى نفـي ذلك ، « والتوكيـد على ان المؤتمـــر هو من اجل القضية

الفلسطينية»(٤٤) . كذلك بدأ الطعن في المؤتمر بمقالات ينشرها بعض كبار شيوخ الازهر في الصحف انتقل الى تاليف مظاهرات من جميع المعاهد الدينية التابعة له في القطر . ويظهر ان رجالات الازهر فهموا الدعوة الى المؤتمر والاستعانة به على انشاء مدرسة اسلامية جامعة في فلسطين انما يراد به ان تكون هذه الجامعة معارضة للجامعةالازهرية ومضادة لها ، وصار موضوع الحوار بين الناس في هذا المؤتمر ان الفرض منه «مقاومة سياسة الحكومة الملكية المصرية وازهرها»(٤٥) . وبدأ رشيد رضا حملة توعية للدفاع عن اهداف المؤتمر واعتبر ان « نصر دعوة المؤتمر واجبة لانه مصلحة اسلامية ضرورية في احباطها مضار كثيرة عامة »(٤٦) . ورد على منتقدي المفتي بقوله « .. بان الرجل قد ثبت عنده وعند من شايعه وساعده على الدعوة الى هذا المؤتمر انه ضروري لتعزيز مركز فلسطين تجاه مطامع اليهود ومحاباة الدولة البريطانية لهم ولتقوية مركز المجلس الاسلامي الشرعي فيها ومركزه هو فيه .. والامر الضروري الذي لابد منه لايستشار فيه احد وانما الواجب الادبي الذي تقتضيه المصلحة والذوق ايذان المسلمين بالدعوة وطلب عطفهم ومساعدتهم » (٤٧) . ودعا رشيد رضا الحاج امين الى الاسراع الى مصر لتلافي الفتنة مع الحكومة المصرية ومشيخة الازهر(٤٨) .

وخلال شهر نوفمبر / تشرين ثاني . تلقت وزارة الخارجية البريطانية سيلا من الاعتراضات والاستفسارات في بعض الدول الاجنبية عن المؤتمر المزمع عقده : ففي تركيا اثير الموضوع في المجلس الوطني ووصف المؤتمر بالرجعية وكان اهتمام المجلس منصبا على موضوع احياء الخلافة . واعلن وزير الخارجية توفيق رشدي انه تلقى تاكيدات من الحكومة البربطانية بعدم اثارة اية مسائل سياسية ذات سمة معارضة للمصالح التركية في المؤتمر (٤٩) . واكد الوزير ان بريطانيا لم تعمل على رعاية وتشجيع عقد المؤتمر ، كما اعلن ان الحكومة التركة تعارض بقوة اية حركة تستغل الدين للاغراض السياسية(٥٠) . وبعثت الحكومة اليوغسلافية استفسارا الى لندن بشأن المؤتمر لان عددا كبيرا من رعاياها المسلمين كان يزمع المشاركة فيه(٥١) . وكانت الاحتجاجات الايطالية اكثرها عنفا ، ذلك ان الحكومة الايطالية كانت تخشى ان تثار الحملات ضد سياستها في ليبيا ، واوضحت الحكومة الايطالية في مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية ان عقد المؤتمر قد يكون له « وقع غير موات على العلاقات الانجلو ايطالية »(٥٢) .

ونتيجة لهذه الاحتجاجات عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات على مستوى عال بين موظفيها في وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات وحكومة الهند في ١٦ نوفمبر/ تشرين ثاني . وكانت وجهة نظر موظفي وزارة الخارجية وجوب منع انعقاد المؤتمر ، على ان ترفع مسؤولية ذلك المنع الى عصبة الامم من خلال اقتراح تتقدم به ايطاليا .

وكان لابد من استشارة السلطات البريطانية في حكومة فلسطين ، وكان امام تلك السلطات خياران : الاول ضمان عدم ذكر شيء في المؤتمر قد يؤذي من وجهة نظرها حساسيات الدول الاجنبية ، وبمعنى آخر عدم اثارة مسألتي الخلافة والسياسة الايطالية في ليبيا ، وانذار الحاج امين بالعزل من منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى اذا لم يتعهد بذلك .. اما الخيار الثاني فهو منع عقد المؤتمر بحجة « الحفاظ على الامن العام والعلاقات الاجنبية »(٥٣) . ونظرا لاهمية الموضوع كان لابد من عقد اجتماع اخر بين رجالات الاجهزة البريطانية في ٢٠ نوفمبر / تشرين ثاني ، رأسه وزير الدولة للمستعمرات ، ولم يكن قد تلقى بعد جوابا من القدس ، ولكنه كان يتوقع عدم موافقة المندوب السامي البريطاني واكهوب على منع عقد المؤتمر . وقد يكون هذا سبب اتخاذ قرار في الاجتماع اكتفي بابلاغ السلطات البريطانيةفي فلسطين بوجوب عدم اعطاء اية مساعدات او تسهيلات للمؤتمر ، والتاكيد على صفة المؤتمر غيرالرسمية(٥٤). وقامت السلطات البريطانية في فلسطين بابلاغ رئيس المجلس الاسلامي الاعلى عدم موافقتها على عقد مؤتمر يجري البحث فيه بامور خارجية او داخلية تمس احدى الدول الصديقة ، وطلبت منه ان يوافيها ببيان عن الموضوعات التي سيتناولهاالمؤتمر بالبحث فوافاها بالبيان المذكور(٥٥) .

وكان الصهيونيون أيضا حانقين من عقد المؤتمر ، وقد قيل انهم بذلوا اموالا طائلة بغرض التشويش على المؤتمر ، واصدرت الوكالة اليهودية بيانا مطبوعا ابان الاستعداد للمؤتمر ، جاء فيه ان المفتي عمد الى دعوة المؤتمر لتحويل تيار (المعارضة) ضد سلطته واعماله ، « وليس من شك في ان الصهيونيين كانوا خائفين اشد الخوف من حركة المؤتمر وما ينطوي عليه من دعاية واسعة في العالم الاسلامي ضدهم » (٥٦) .

وكان ما يمكن ان يضفيه المؤتمر على الحاج أمين من مزيد من المكانة والنفوذ قد أثار حفيظة خصومه السياسيين الفلسطينيين ايضا(٥٧) . ففي الوقت الذي كان الحماس للمؤتمر يزداد تصاعدا حركت الحكومة هؤلاء الخصوم بقيادة آل النشاشيبي الذين نظموا انفسهم في حزب خاص لمقاومته(٥٨) . « وهب المعارضون الى تشويه سمعة المؤتمر والطعن في مقاصده لصد المسلمين عن اجابة الدعوة اليه ... غرضهم من المعارضة منع عقد المؤتمر او الحيلولة .. دون جعله معززا لمركزه (أي المفتي) ومقويا لنفوذه في البلاد » ، واشاعوا كذلك ان الحكومة البريطانية اخذت عهدا على الحاج أمين الا يبحث في المؤتمر السياسة البريطانية والا يجرى التعرض لصك الانتداب(٦٠) ، واخذوا يبثون هذه النقاط في الصحف الموالية لهم مثل (فلسطين) و (مرآة الشرق) و (الصراط المستقيم) وبين انصارهم « حتى كادوا يحولون مجرى المؤتمر الى مجال نزاع وتنافس شخصي ومحلي وحزبي »(٦١) . ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة

عن محاولة اللجنة التحضيرية تلافي الامر بضم بعض المعارضين الى اللجنة فلم يستجيبوا ، ولم يقبلوا الدعوة التي ارسلت اليهم ، لانهم « ظلوا على يقينهم ان الحاج أمين سيستغل المؤتمر لشخصه اعظم استغلال»(٦٢) . وحاول الزعيم الهندي شوكت علي والدكتور عبد المجيد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر) والشيخ التفتازاني (من علماء الازهر) التوسط وتسوية الامور بسبيل اشتراكهم في المؤتمر وعدم التشويش عليه ، ووجهة نظر الوسطاء هي « ان الصلح خير من الخصام بنص القرآن واتفاق جميع الناس وانه لا ينبغي ان يؤلف مؤتمر في فلسطين لاجل مصالح المسلمين وجمع كلمتهم على مايمكن من المنافع العامة وأهلها في شقاق وخصام يمنع من اشتراك جميع احزابهم فيه»(٦٣) ،واظهر الحاج امين استعداده لقبول ما يقترحه الوسطاء ولكن جهودهم اخفقت(٦٤) .وظلت جبهة المعارضة على رفضها للاشتراك في المؤتمر وعلى سوء ظنها بالحاج امين والتشويش عليه عبر المؤتمر ، وانتهى بهم الامر الى عقد مؤتمر اخر منافس له اسموه « مؤتمر الامة الاسلامية الفلسطينية »(٦٥). ولكن الحركة المناوئة والشهيرة (بالمعارضة) فشلت هذه المرة لكونها قد جعلت للمنافسة السياسية الداخلية وللاحقاد الشخصية مكان الاولوية على القضية الوطنية العامة وفي مناسبة لا يجوز فيها السؤال اصلا ايهما اولى (٦٦) .

افتتاح المؤتمر :

اخذت الوفود تفد قبل ليلة الاسراء التي تقرر ان يكون افتتاح المؤتمر فيها . وجاءت الوفود غير الرسمية من ٢٢ قطرا مختلفا (الاردن ، سورية ، لبنان ،العراق، مسلمو البشناق ، الهند ، سيلان ، جاوا ، افغان ، تركستان ، القفقاس ، ليبيا ، تونس ، الجزائر والمغرب الاقصى (٦٧) وارسل امام اليمن مندوبا عنه من وزرائه(٦٨)، ولم يات من السعودية احد(٩٦) ولا تكمن أهمية المؤتمر في عدد اعضائه (بين ١٤٥ — ١٥٠) (٧٠) بمقدار ما كانت تكمن في نوعية الاعضاء . فقد اجتمع حشد من كبار علماء الدين ورجال العلم والرأي ومن الشخصيات السياسية وجميعهم من البارزين في بلادهم علميا او سياسيا او وطنية او اجتماعيا او اقتصاديا(٧١) ، كان من تلك الشخصيات المجتهد الكبير محمد الحسين ال كاشف الغطاء (العراق) وضياء الدين الطباطبائي (رئيس وزراء ايران السابق في عهد الملك القاجاري الذي اطاح بعرشه انقلاب البهلوي) ، وعبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي ، ومحمد اقبال الشاعر الهندي، والزعيم شوكت علي الهندي والعلامة الشيخ رشيد رضا والشيخ التفتازاني (الازهر) ومحمد علي علوبة (وزير الاوقاف السابق في مصر ومن حزب الاحرار الدستوريين)، وعبد الحميد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين مصر) وعبد الرحمن عزام (حزب الوفد) والامير سعيد الجزائري (حفيد الامير عبد القادر وكان يقيم في دمشق

ويراس لجنة الدفاع عن الخط الحجازي) ومحمد المكي الناصري ومحمد بنونــة من المغرب الاقصى وبشير السعداوي من ليبيا ، ومحمد علي بيهم ورياض الصلح (لبنان) وشــكري القوتلي وسعد الله الجابري (سورية) (٧٢) . كما شهد المؤتمـر نحو خمسة وعشرين من رجالات فلسطين بالاضافة الى اعضاء اللجنة التحضيرية ..

ويصف شاهدا عيان(٧٣) حفلة افتتاح المؤتمر وما رافقها من مشاهد على غاية من الروعة والفخامة حيث ازدانت ساحة الحرم الواسعة بالاضواء الكثيرة والاعــلام الاسلامية واحتشد آلاف الناس مع اعضاء المؤتمر في الساحة وداخل المسجد الاقصى الكبير. وكان قد وفد على مدينة القدس كثير من أهل المدن والقرى الفلسطينيةلحضور حفلة الافتتاح واتفق ان كان يوم الاحد ٢٦ رجب يوما شديد المطـر ، مع ذلـك كان المنتظرون في المسجد قبل المغرب يعدون بالالوف ، وعندما حضرت صلاة المغرب قدم الحاج امين كبير مجتهدي الشيعة محمد حسين ال كاشف الغطاء فصلى اماما بالناس، ويقول رشيد رضا « كان لهذا التقديم تاثير عظيم ووقع حسن في انفس اعضاءالمؤتمـر وغيرهم من المسلمين الذين يشعرون بشــدة الضرورة الى التأليف بين أهــل السـنة والشيعة والقضاء على هذا التفرق والتعادي الذي طال عليــه العهد ، وكان فســاده وضرره على الاســلام وشعوبــه ودوله عظيما . وبعــد صــلاة المغــرب قــرأ بعض القراء آيات من أول سورة الاسراء وتلاهــم الشيخ حسن ابو السعود فقرأ رسالــة في شمائل الرســول وما جاء به من الاصلاح العــام للبشر الم فيها بمعجزة الاســراء . ودعي الشيخ رشيد رضا الى القاء كلمة في معنى الاســراء وفضــل المسجد الاقصى واختيار هذه الليلة الشريفة لافتتاح المؤتمر الاســلامي(٧٥) .. وبعد صلاة العشــاء بامامة الاستاذ آل كاشف الغطاء افتتح المفتي المؤتمر بخطبة(٧٦) اشــار فيها الى « ان اكثر الاقطار الاسلامية قد فقدت عزها وسلطانها واصيب جميعها بمحن وكوارث عديدة اثقلت كاهلها ولكن فلسطين هذه البلاد المقدسة التي قامت بالدعوة الى هــذا المؤتمـر اصيبت زيادة على ذلك بمصيبة خطيرة تهدد كيانها بانشاء وطن قومي صهيوني في هذه البلاد العربية الاسلامية المقدسة » . واوضح السبب الرئيسي للدعوة الى المؤتمربقوله « .. ولما كانت هذه البلاد تهم المسلمين جميعا لما لها من الموقــع الدينــي والجغرافي العظيم ، ولان فيها هذا المسجد الاقصى المبارك .. فقد رأينا عملا بقوله : (وامرهــم شورى بينهم) وبقوله عليه الصلاة والسلام (المسلم للمسلم كالبنيان يشــد بعضــه بعضا) ان ندعو الى هذا المؤتمر العظيم من كافة الاقطار الاسلامية للبحث في هذا الامر الجلل وفي الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين جميعا . . » . وأكد المفتي في ختام كلمته ان القصد من وراء المؤتمر ليس « الاعتداء على امة من الامم او مهاجمة دين من الاديان او مخاصمة احد في هذا العالم ، وانما القصد ان يعمل المسلمون لصالحهم يدا واحــدة

وصفا واحدا » . وكان من المتحدثين في جلسة الافتتاح الدكتور عبد الحميد سعيد وضياءالدين الطباطبائي والشاعر محمد اقبال والامير سعيدالجزائري ومصطفى الغلاييني من ادباء بيروت ، ورياض اسحق مندوب المسلمين في روسيا، وعبد القهار مذكر مندوب جاوا ، وبهجت الاثري من علماء العراق ، والشيخ نعمان الاعظمي رئيس مدرسة دار العلوم في بغداد (٧٧) .

وكانت كلمة الثعالبي في حفلة الافتتاح (٧٨) تأكيدا للمبادىء السامية التي عمل الثعالبي من اجلها طيلة حياته ، والتي لا تقتصر على العمل السياسي بل تركز على العمل الاسلامي الثقافي لمواجهة الغزو الثقافي الاجنبي ، وتدعو الى الاصلاح واليقظة من اجل استرجاع المكانة التي كانت للحضارة العربية الاسلامية في الماضي(٧٩) . وقد بين الثعالبي في كلمته اهمية عقد المؤتمر من اجل دفع فكرة الوحدة الاسلامية . « ... ومن المدهش الغريب ان المسلمين ، ودينهم دين الاتحاد والاخوة والتعاون واحكام الصلات الاجتماعية بين معتنقيه ، افرادا وجموعا ، لم يقدر لهم فيما سلف ان يعقدوا اجتماعا يلمون به شعثهم ويجمعون فيه اشتاتهم كما تم لهم في هذه الليلة .. » ... ثم استعرض التاريخ منذ ظهور الاسلام وتلألؤ قوته حيث « .. طوى في برديه الشرق والغرب ووحد امم العالم القديم ، ونظم منه وحدة دينية سياسية من امم كانت متنافرة متشاكسة في العنصريات واللغات والاديان والسياسة ، فكانت قوة نشرت في العالم الهدى والنور والسلام والتمدن » الى الحالة التي وصل اليها اهله اليوم ، « من ضعف التماسك في الاقوام الاسلامية وتلاشي دولهم وذهاب ريحهم واستسلامهم لسلطات المغيرين عليهم بحيث لا توجد ممالك في اية قارة من القارات الخمس لها تاريخها ولها مدنيتها ولها نظامها نهبا للطامعين مثل الممالك الاسلامية » . وما يثير استغراب الثعالبي ان بلاد المسلمين لديها كل مقومات الوحدة في الجغرافيا واللغة « ... فقد اصطلحوا بسائق من الدين على جعل العربية لغة التفاهم والتخاطب. بدليل ما نشاهده في هذا المؤتمر فقد اجتمعت فيه امم الشرق الواقعة بين المحيطين الباسفيك والاطلنطيك وكلهم يتفاهمون ويتباحثون بهذه اللغة الشريفة كانهم من سلائل القحطانيين ، وهي اكبر قوة لنا في العالم نستطيع ان نلعب بها اكبر دور في مقدرات البشر » . ويتساءل عن اسباب الوهن ولدى المسلمين كل المؤهلات للتفوق « ... اقطارنا خصبة التربة معتدلة الجو وافرة المياه كثيرة المعادن مكتظة باسباب الارتزاق قابلة للزراعة وتربية الحيوان وانشاء المصانع بكثرة ما فيها من الوقود ، حراج وزيوت وفحم حجري ، تحيط بها البحار من سائر الجهات .. وفي سكانها من اعتدال المزاج وحدة الذهن وسرعة الخاطر وقوة الذكاء ما يخولهم التفوق في العلم والصناعة والسياسة وسائر مواد الحضارة ومقومات التمدن » ، وهو يرى اننا « ورثة حضارة عريقة ، وأسلافنا في الشرق هم الذين ملكوا قياد العالم في أزمنة مختلفة مديدة ، وهم

الذين أوجدوا المثل العليا لاسمى مبادىء الفضائل والسيادة ، مع ذلك فقد وقعنا تحت قبضة الاجنبي ، ونستمطر الرحمة والعدالة ممن كنا تعدهم من موالينا » ، وهو اذ يدقق في عناصر المدنية الحاضرة التي يفخر بها الغربي على الشرقي يجد كل مصادرها نابعة شرقية لا اثر للغرب فيها « فالشرق هو مفجر ينبوع الايمان ومبتكر أصول الشرائع وكاشف ناموس التطور في الحياة وملهم العقل لاكتشاف سر الحق في الوجود وباني المجتمعات البشرية ومستنزل روح الاديان ، والخلاصة هو مشرق النور والعظائم » .

ويصور الثعالبي كيف انتقلت مدنية الشرق للغرب واستنام الشرق للمكاره واستطاب عيشة الذل والخضوع للاقوياء « ... وبذلك سلم الواجبات التي كانت ملقاة على عاتقه في السيادة العالمية لغيره من أمم الغرب التي تغلبت عليه» . ويبحث الثعالبي عن سبل انقاذ الشرق من محنته واعادة شعوره بالكرامة فلا تكون الا بأن « نلتفت لانفسنا وندرس ادواءنا وأمراضنا حتى نهتدي الى معالجتها وازالتها .. ونحن اذا شعرنا بانحطاطنا وأدركنا أسباب اعتزالنا للحياة ... أمكننا أن نعالج أنفسنا علاجا شافيا .. » . ويمضي الثعالبي الى مناشدة المجتمعين بالتخلي عن البكاء والاسترحام والاستجداء والشكوى « ... فكلها مظاهر ضعف يجب أن نتلافاها . مضى ما مضى ولا عتب على الماضي وعلينا ان نبادر بتلافي الاخطاء التي استمرأها سلفنا وكانت السبب المباشر في أسرنا ووقوعنا في الهلاك » .

مناقشات المؤتمـر :

كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد أخلت له مدرسة روضة المعارف الاسلامية التابعة للمجلس ووضع فيها من الورق والاقلام والدفاتر والمحابر والكتبة والخدم ومنهم سقاة الشاي والقهوة اليمانية الامامية (٨٠) وقد أعد في المدرسة(٨١) قاعات وغرف للجان المؤتمر ، كما خصت قاعة لنشر أخبار المؤتمر على الصحف ولتزويدها بها وقاعة اخرى لتنظيم شؤون المؤتمر وتلبية طلبات وحاجات الاعضاء . وجرى في الجلسة الاولى اختيار المكتب لادارة جلساته واعماله وتم الاتفاق بالترشيح والموافقة على ان يكون الحاج أمين رئيسا للمؤتمر (٨٢) ، وتألفت في المؤتمر ثماني لجان لبحث الشؤون التي عرضت عليه وتقديم تقارير وافية عنها ، وهي لجنة الدستور ، ولجنة الدعاية والنشر ، ولجنة المالية والتنظيم ، ولجنة الثقافة وجامعة المسجد الاقصى ، ولجنة السكة الحديدية الحجازية ، ولجنة الاماكن المقدسة والبراق الشريف ، ولجنة الدعوة والارشاد ، ولجنة المقترحات (٨٣) . يقر رشيد رضا(٨٤) ان نظام جلسات المؤتمر كان حسنا لم يستطع اعداؤه الطعن فيها الا ان اكثر اوقاتها ضاعت بالقاء الخطب والمناقشات العديدة مع كثرة التكرار في الموضوع الواحد والخطبة الواحدة ،

وانتقد طريقة تاليف اللجان حيث ابيح لكل عضو ان يدخل في اللجنة التي يختار العمل فيها « فكان العضو الواحد يكتب اسمه في لجنتين او ثلاث بحسب ما يهوى لا بحسب استعداده للعمل فيها كلها» (٨٥) .

ويذكر عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ان المؤتمر اخذ يتلقى برقيات ورسائل تأييد ورسائل فيها اقتراحات متنوعة من جميع انحاء العالم الاسلامي ، ومن الذين دعوا وتخلفوا لاسباب قاهرة ومن شخصيات اسلامية بارزة حتى صار المؤتمر « في من شهده وفي من ايده وفيما ورد عليه من مقترحات وفي ماأثير فيه من مواضيع يسمو سموا كبيرا ويظهر بذلك ما كان من حاجة المسلمين الى مثل هذا المؤتمر العام الاسلامي في سياق كفاحهم مع المستعمرين وما طرأ عليهم من قطيعة وما يتعرض له الاسلام من مؤامرات وما تحفزهم اليه النهضة المواتية الحديثة من اسباب التواصل وعوامل التجمع والتعاون . ومما هو جدير بالذكر ان مسيحيي فلسطين العرب شكلوا وفدا عنهم يضم بعض رؤساء الدين فيهم ، وزار الوفد المؤتمر الاسلامي في ساحة الاقصى حيث كان ينعقد المؤتمر واكد للمجتمعين تاييد النصارى للمؤتمر وترحيبهم بدخول مسلمي العالم فريقا مباشرا في قضية فلسطين» (٨٦) .

وكان من ابرز الاقتراحات التي انهالت على المؤتمر : انشاء جامعة اسلامية في القدس ، ومحاربة الاستعمار مهما كان شكله وكل مسلم يؤيد الاستعمار يعتبر خارجا عن الاسلام والمسلمين . وبعث الامير شكيب ارسلان من جنيف باقتراح مقاطعة بضائع كل دولة ترهق المسلمين عسرا وتاليف لجان للمقاطعة ، وكذلك مقاطعة المسلم الذي لا يتقيد بمقررات المقاطعة (٨٨) . وكان من المقترحات مؤازرة قضية انتخاب بطريرك عربي للارثوذكس (٨٩) . كما عرض على المؤتمر بيانات او تقارير مطبوعة منها تقرير طويل من جمعية الشبان المسلمين تعرض فيه على المؤتمر ماتراه من الاصلاح الاسلامي ، وتقرير محمد علي علوبة في الاصلاح اللغوي بوضع معجم عربي للعلوم والفنون والاصطلاحات العصرية ، وتقرير لجنة البراق الدولية ، وتقرير في اعمال دعاة النصرانية ، (٩٠) وتقرير لجنة الدفاع عن سكة الحديد الحجازية (٩١) . ووزعت على اعضاء المؤتمر بعض المواد الاعلامية التي تعالج الوضع في طرابلس ، والمغرب الاقصى والاتحاد السوفييتي (٩٢) . ويلاحظ ان المسائل ذات الطابع السياسي قد اجلت الى الجلسات الاخيرة . ويعلل عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ذلك بقوله « . شعر الحاج برغبة القوميين في تقديم اقتراحات بشان الاستعمار فبذل جهده لتأخير تقديمها الى اخر جلسة حتى لا يكون حرج عليه وعلى المؤتمر من جانب السلطات الانكليزية في فلسطين» . وشغل موضوعا الاصلاح الاسلامي والثقافة الاسلامية حيزا كبيرا في ابحاث المؤتمر ، وكان للشيخ رشيد رضا وجمعية الشبان المسلمين الاسهام الاكبر في الموضوعين .

وقد سبق للحاج أمين ان اقترح على رشيد رضا قبل عقد المؤتمروضع تقرير فيالاصلاح الاسلامي ليطرح في المؤتمر اثناء انعقاده ويكون مدارا لما يقرر في هذا الشأن(٩٣) ، ولكن رضا اثر ان يعرض ما يراه من الاصلاح في جلسات المؤتمر عند الحاجة اليها . وقد راس لجنة الدعوة والارشاد في المؤتمر (٩٤)، وقدم لاعضاء اللجنة تعريفا بمشروع الدعوة والارشاد على انه « اعظم مشروع اسلامي لاصلاح المسلمين في انفسهم ولتجديد هداية دينهم ومجده ، وهو يتوقف على تعليم جديد وتربية جديدة في مدرسة خاصة، وعلى جمعية كالجمعية التي سبق تاسيسها في مصر ، وعلى مال كثير لذلك وللدعاة والمرشدين الذين يتخرجون في المدرسة ولا يتم غرسه ونباته واثماره الا في سنين كثيرة »(٩٥) ..

وفي جلسة المؤتمر العامة تقدم رضا بتقرير لجنة الدعوة والارشاد وهي ملخصة من عدة مقترحات(٩٦) ، اهمها تاليف جمعية باسم (جمعية الدعوة والارشاد الاسلامية) على المنهج الذي كانت عليه الجمعية التي الفت بهذا الاسم في القاهرة يكون لها مدرسة كلية خاصة تكون احدى كليات الجامعة الاسلامية التي قرر المؤتمر السعي لانشائها في بيت المقدس لتخريج طائفتين من العلماء احداهما تخصص لارشاد المسلمين على اختلاف اجناسهم الى حقيقة الاسلام بالتعليم النظامي السهل والتربية الدينية العملية الموافقة لحالة العصر ، والثانية لاجل دعوة غير المسلمين الى الاسلام . ويستعان على انشاء الجمعية والمدرسة بما وضع للجمعية السابقة ومدرستها من نظام ومناهج وتجربة .٠وطالبت مقترحات اللجنة تكليف بعض العلماء بالكتاب والسنة ومسائل الاجماع والمذاهب الاسلامية تاليف رسائل في عقائد الاسلام وادابه وفضائله وعباداته وتاريخ نشاته ، تكون الوسيلة لاحياء روح الدين ومقاومة الالحاد والزندقة في عامة المسلمين وتحقيق الاخوة الاسلامية على اكمل وجه ممكن ، ويتوخى فيها ان تقتصر على المسائل الاجماعية عند جميع اهل المذاهب الاسلامية لتكون مقبولة عند جميع المسلمين وتمهيدا لجمع كلمتهم وان تكون في منتهى السهولة في العبارةوالاسلوب وان يكون الكلام في آداب الاسلام وفضائله مقرونا بما لها من التاثير في الاعمال النافعة من شخصية ومنزلية واجتماعية ، وان يقتصر في العبادات على الكليات المجمع عليها ، كما طلبت المقترحات من المؤتمر الاستعانة باعضائه ثم بلجانه التي تؤلف له ثم بجمعيات الشبان المسلمين وغيرها من الجمعيات الاسلامية على نشر هذه الرسائل في جميع الشعوب الاسلامية بعد ترجمتها بلغاتها الراقية .وكان من اخر مقترحات اللجنة مطالبة المؤتمر باتخاذ الوسائل التمهيدية لتعميم اللغة العربية في جميع الشعوب الاسلامية لما في ذلك « .. من توقف فهم الدين ووحدته عليها، واشتداد الحاجة في هذا العصر الى هذه الوحدة التي تجمع قوة هذه الامة المؤلفة من ٣٥٠ مليونا الى ٤٠٠ مليون لحفظ حقيقتها

واعلاء شانها ودفع ضروب العدوان عن دينها ودنياها .. فلا يتم لنا احياء هداية الاسلام بانواعها ولا وحداته المتقدمة ولا فائدة مؤتمراته الا باحياء لغته الجامعة»(٩٧). وقد القى الشيخ رشيد رضا خطابا على هيئة المؤتمر العامة في الاخطار التي تهدد العالم الاسلامي من امراضه الذاتية العامة لجماعته والشخصية في افراده والخارجية وما يجب على مثل هذا المؤتمر من السعي لدرء الاخطار ومعالجة الامراض(٩٨) ، وهي تؤكد اراء رضا التي تبناها منذ نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تابع فيها رأي استاذيه الافغاني وعبده ، حول ضرورة الاصلاح وعلى اهمية الاسلام لتحقيق التقدم الذي اثبت الماضي امكان تحقيقه .

وتناولت كلمة جمعية الشبان المسلمين الى المؤتمر الاسلامي العام (٩٩)، بالاضافة الى مسألة الثقافة ، قضيتين هامتين : الاولى الاماكن المقدسة ، والثانية مسألة سكة الحديد الحجازية . وبعد مقدمة طويلة دعت الكلمة فيها الى الالفة بين المسلمين اقترحت على المؤتمر « .. ان يقرر وجوب تنظيم طرق التعارف بين الشعوب الاسلامية وازالة الجفاء بين جماعاتهم ذلك ان الاشتراك بين المسلمين حاصل في الاصول ، وقائم على جميع الاركان » . واهم ما يشترك به المسلمون اشتراكهم جميعا في عبادة الله عزوجل، وبالتالي اشتراكهم في بيوت الله واماكن الاسلام المقدسة « .. وكلهم مكلفون بحفظها وصيانة حوزتها ودفع السوء عنها » ، وتنتقل الكلمة الى مسألة الاماكن المقدسة في فلسطين فتشير الى قرار اعلنه مؤتمر مجالس ادارة جمعيات الشبان المسلمين في ١١ يوليو/تموز ١٩٣٠/ (١٥ صفر ١٣٤٩) والذي نص على تمسك المسلمين العام بمكان البراق الشريف الذي هو حق مقدس لهم لا ينازعهم فيه الا ظالم او معتد وان كل مساس بذلك الحق الذي لاشبهة فيه يترك في نفس كل مسلم جرحا عميقا ، ويذهب بكل ثقة له بالعدالة التي تنادي بها جمعية الامم والتي ينبغي ان تكون بعيدة عن مثار العواطف السياسية والاطماع . وتعلن كلمة الجمعية باعتزاز « ان مسلمي فلسطين هم جبهة الدفاع الاسلامية عن جميع الاماكن المقدسة في فلسطين ومن وراء هذه الجبهة اربعمائة مليون قلب تخفق بالايمان وتؤيد سكان فلسطين من اتباع محمد (صلعم) في كل ما يضطرون اليه من وسائل الاحتفاظ بحق الاسلام كاملا على مقدساته في هذه الديار » ..

وتناولت الكلمة مسألة سكة الحديد الحجازية التي اشتركت في الانفاق على تاسيسها بقاع الوطن الاسلامي الاكبر، وهذه السكة وقف اسلامي عام « فمن الاعتداء على حق المسلمين في ادنى الارض واقصاها ان يدار بايدي غير المسلمين ، وان يستغل لغير مصلحة المسلمين وان يظل اكثر من عشر سنين معطلا عن وظيفته الاولى وهي

الوصول الى المسجد النبوي الطاهر » . وطالبت الكلمة بحصول المسلمين على ادارة خطهم الحجازي ووضع ريعه في صندوق تحت ايديهم يستعملونه في ارجاع هذا الخط الى ما كان عليه قبل الحرب العظمى كما طالبت بان تقام في كل قطر اسلامي لجنة تتصل بلجنة دمشق للدفاع عن الخط الحجازي .

وكان الموضوع الاخير الذي تعرضت له كلمة الجمعية خاصا بثقافة النشء المسلم وما تتعرض له من اخطار من طريق الثقافة والدعاية والنشر « ولعل المسلمين أفقر أمم الارض في المدارس التي تصلح لانشاء ابنائهم انشاء يتفق مع عقيدتهم وهدايتهم وآدابهم وحاجاتهم الروحية والمعنوية » ، ومن اجل انشاء جيل جديد كفؤ للنهوض بحاجة المسلمين المادية والروحية تتقدم الكلمة باقتراح مزدوج احد شقيه « مقاومة دعايات الالحاد في داخل المدارس الموجودة الان وفي عالم الطباعة والنشر ، والثاني ايجاد مدارس جديدة تكون مستوفية الشروط من وجهة النظر الاسلامية ومعاونة وسائل النشر الاسلامية على السير في طريق الرقي حتى تتمكن من اظهار محاسن الاسلام للملأ ، وعرض حقائقه بالاساليب المحبوبة عند الجماهير » . واشارت الكلمة بأسى الى ان « جميع طوائف البشر لهم مدارس خاصة بطوائفهم ، ووسائل نشر تؤيدها من ورائها ، ما خلا المسلمين فانهم فقراء في المدارس وفي وسائل النشر حتى صارت البيوت العريقة في التقوى تنشأ فيها الناشئة الملحدة او على الاقل الناشئة الغريبة عن الاسلام وتاريخه ومحاسنه » .. وهي تحث اهل الاخصاء في التعليم والتهذيب على ايجاد مناهج محكمة للثقافة الاسلامية كما تدعو اغنياء المسلمين ان يكونوا كاغنياء غير المسلمين في العمل على تاسيس مدارس اسلامية جامعة لجميع الشروط ، وتحيي جمعية الشبان المسلمين اول من فكر في السعي لتاسيس جامعة اسلامية في فلسطين « يأوى اليها شباب هذه البلاد والمحتاجون الى مدارس عليا تعدهم للكفاح في ميادين الحياة وتهيئهم ليكونوا رجالات في عالم العمل » . وكانت جمعية الشبان المسلمين قد قامت بتوزيع تقرير عام على اعضاء المؤتمر عنوانه (النهضة الاسلامية عن طريق الثقافة والنشر)(١٠٠) ، شرحت فيه بالتفصيل وجهة نظرها بالنسبة لمسألة الثقافة فتناولت تعرّض النشء الجديد للغزو الثقافي الاجنبي بسبب تفريط المسلمين في مقوماتهم الاجتماعية ، وعالجت سبل نهضة العالم الاسلامي لمواجهة هذا التحدي على اساس الدين والعلم .. ورأت أن تأسيس جامعة مدنية اسلامية في فلسطين ليس دافعه فقط الرغبة في مقاومة الأمر الصهيوني للجامعة العبرية « .. هذا مبرر من غير شك ومبرر كبير لكنه ليس المبرر الوحيد ، انما هو من المبررات التي تدعو الى تاسيس تلك الجامعة ، او بالاحرى هو المبرر لجعل مركز الجامعة المدنية الاسلامية هنا في فلسطين وفي القدس لا في غيرها من بلاد الاسلام » . أما التأسيس نفسه « تأسيس جامعة مدنية اسلامية

تعلم العلوم الكونية التي حض القرآن في نحو ربع آياته على طلبها وتعليمهـا فمبرره اسلامي عام والحاجة اليه قائمة منذ غربت شمس الاسلام عن الاندلس واندثـرت المدرسة او بالاحرى الجامعة النظامية التي اسسها نظام الملك في بغداد » .

وكان من بين المتحدثين عن الجامعة الاسلامية(١٠١) التي يراد انشاؤها في القدس الشاعر الهندي محمد اقبال وكيل المؤتمر وقد خطب فيه خطابا شائقا وقال أنه يجب ان تكون جامعة يؤمها الشبان المسلمون من جميع انحاء العالم(١٠٢) ، وكذلك القى الطباطبائي خطابا قيما عن الثقافة والجامعة الاسلامية فاحاط بالموضوع احاطة تامة وقد ساعده على ذلك انه يقيم في سويسرا من ثماني سنوات فتسنى له في خلال هذه المدة الوقوف على نظم التعليم في اوروبا ودرسها دراسة وافية(١٠٣) .

وتجدر الاشارة الى ان « الوحدة الاسلامية » كانت ترد على لسان كثير من المتحدثين دون ان يخصص لها موضوع مستقل في مناقشات المؤتمر(١٠٤) . والوحدة كما تصورها المتحدثون لا تتجسد بالضرورة في شكل دولة اسلامية واحدة بل كانت صدى بعيد لافكار تلامذة الافغاني بضرورة قيام جبهة متحدة متجهة نحو غرض واحد هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الامم الاسلامية من قبول السلطة الاوربية السياسية(١٠٥) ، كما كانوا يعنون جوهريا بالتراث المشترك القائم لا على وحدة الدين فحسب بل على الثقافة والعادات والطباع وبالاخص رابطة اللغة ، وقد اكد المتحدثون على ان اللغة العربية هي وحدها لغة التقوى والعقيدة والشريعة اينما وجد الاسلام(١٠٦) ..

واجلت مناقشة موضوع الاماكن المقدسة حتى الجلستين الثامنة والتاسعة أي يومي ١٢ و ١٣ ديسمبر / كانون اول ، نظرا للوقت الذي استغرقته اللجنة في اعداد الموضوع ، او ربما لتخوف المسؤولين عن المؤتمر من البدء بمثل هـذا الموضوع الحساس(١٠٧) . وقام رئيس اللجنة محمد الحسين آل كاشف الغطاء بقراءة مقترحات اللجنة وسط هتاف وترحيب اعضاء المؤتمر ، وقدم للمقترحات ببيان مفصل حول النوايا الصهيونية بالنسبة لفلسطين والاماكن المقدسة(١٠٨) .. وبلغ الحماس اقصاه بعد خطاب سعيد ثابت ضد الصهيونية تلته دقيقتا صمت حدادا على ارواح الشهداء الذين سقطوا في سبيل قضية الاراضي المقدسة . وكانت أكثر الخطب حماسا تلك التي القاها عوني عبدالهادي الذي لم يهاجم فقط الخطط الصهيونية حول الحرم الشريف بل اثار مسألة الانتداب البريطاني برمتها ، وقدم اقتراحا للمؤتمر ينص على طلب الغائه ، فعارضه شوكت علي طالبا استبعاد الاقتراح ، فانبرى رياض الصلح وحمل على شوكت علي قائلا: « يظهر لي ياسيدي انك تجهل تاريخ الجهاد في بلاد العرب .ان

الانتداب منشأ كل هذه البلايا في هذه البلاد . وهو الذي جزأ سورية هذه التجزآت، معاهدة كان او حماية هو الاستعمار بابشع صوره »(١٠٩) ، كما حمل عوني عبد الهادي بدوره على شوكت علي(١١٠) .

وكانت الجلسة العاشرة التيعقدت في ١٣ ديسمبر / كانون اولجلسة الانتداب، فانهالت فيها الاحتجاجات على الانتداب البريطاني . وفي الجلسة الخامسة عشر في١٦ ديسمبر/ كانون اول تقدم عدد من القوميين باقتراحات بشأن الاستعمار وافق عليها المؤتمر ، وتكلم في اثناء ذلك غير واحد من اصحاب الاقتراحات منددين باحتلال الدول المحتلة لتلك البلاد وتصرفاتها(١١١) ، ووقف بشير السعداوي في نهاية الجلسة طالبا الاحتجاج على الاعمال الاستعمارية العنيفة في طرابلس وبرقة ، والقى عبد الرحمن عزام كلمة حماسية حمل فيها على اعمال ايطاليا في طرابلس ، قرر المؤتمر على اثرها وقف الجلسة دقيقتين حدادا على استشهاد عمر المختار(١١٢) . واحتج قنصل ايطاليا على ما اثير في المؤتمر ضد سياسة بلاده ، فأمرت السلطة البريطانية عزام بمغادرة فلسطين فورا(١١٣) . ويقول دروزة(١١٤) « كانت السلطة البريطانية قد اخذت موقفا حياديا من المؤتمر الى ان بدأ المؤتمر يبحث في مسائل الاستعمار والمستعمرين فتدخلت في الامر » .

قرارات المؤتمر :

جاءت قرارات المؤتمر في مجموعتين : **الاولى عامة** ، تتناول قضايا دينية ثقافية لا علاقة لها بالاستعمار والصهيونية(١١٥) وهي :

أ ــ تنمية التعاون بين المسلمين على تعدد مواطنهم ومذاهبهم ، ونشر الثقافة والفضائل الاسلامية ، واذكاء روح الاخوة الاسلامية العامة .

ب ــ حماية المصالح الاسلامية وصيانة المقدسات من كل تدخل وسيطرة .

جـ ــ مقاومة المساعي والحملات التبشيرية بين المسلمين .

د ــ انشاء جامعات ومعاهد علمية تعمل على توحيد الثقافة الاسلامية وتعليم اللغة العربية للناشئة الاسلامية ، وان يبدأ ذلك بانشاء جامعة في بيت المقدس تسمى جامعة المسجد الاقصى تغذيها وترعاها مؤسسة المؤتمر وتشكيلاته(١١٦) .

هـ ــ تأليف دائرة معارف باسم القاموس الاسلامي(١١٧) .

و ــ ادرك المؤتمر أهمية الدعاية وخطورتها دفاعا عن المصالح والثقافة الاسلامية ونشرا لغايات المؤتمر ، وذلك بتأسيس مكتب رئيسي للدعاية في القدس ومكاتب فرعية في البلدان التي بعثت بمندوبين لهذا المؤتمر .

ز ــ اتخذ المؤتمر قرارا عاما بالعمل على ترقية الصناعات في الاقطار الاسلامية

والقيام بمسح عام للعالم الاسلامي متضمنا احصاءات دينية تعليميةاقتصادية.

ح ـ دعا المؤتمر الى تحبيذ فكرة انشاء جمعيات الشبان المسلمين فيالاقطار الاسلامية وفي ديار المهجر .

ط ـ اعتبر المؤتمر قضية العرب الارثوذكس جزءا من القضية العربية الكبرى ولفت نظر الحكومة الى وجوب تمكينهم من انتخابات بطريرك عربي لهم ، كما قدم الشكر لمسيحيي فلسطين وشرق الاردن على عواطفهم التي ابدوها نحو المؤتمر ، وحيا المؤتمر العربي الارثوذكسي المنعقد في يافا .

المجموعة الثانية من القرارات وهي التي تتناول عددا من القضايا السياسية المحددة :

ا ـ تأسيس شركة اسلامية كبرى لانقاذ الاراضي في فلسطين من خطر انتقالها لليهود يشارك فيها العالم الاسلامي كله (١١٨) .

ب ـ في صدد البراق قرر المؤتمر انه مكان اسلامي عام مقدس عند جميع المسلمين، وقرر استنكار كل تبديل او تغيير في حالته وصفته ، كما اعلن استنكار قرار لجنة البراق الدولية(١١٩) .

جـ ـ وفي صدد قضية فلسطين الاصلية ، قرر المؤتمر ان فلسطين ، باعتبارها أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الاسلام ، هي مقدسة عند جميع المسلمين وان من حقهم وواجبهم حفظها اسلامية ومنع كل مطمع وعدوان عليها، وطالب باستقلالها وقيام حكم فيها باكثرية اسلامية لان المسلمين هم الاكثرية الكبرى فيها ، وقرر رفض وعد بلفور وصك الانتداب وبطلان كل ما جرى نتيجة لهما ، وطالب بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين وانتقال الاراضي العربية لليهود وبعدم محاباة اليهود في الوظائف والقوانين والمشاريع والامتيازات(١٢٠) .

د ـ استنكار الاستعمار بجميع أنواعه وفي أي قطر من الاقطار الاسلامية وذلك لان الاستعمار لا يتفق مع الحق العام ومبادىء الدين الاسلامي القويم ،وبالتحديد، يستنكر المؤتمر السياسة البريطانية الاستعمارية في فلسطين ، وكذلك في مصر والسودان وبعض اقطار الجزيرة العربية ، ويستنكر المظالم التي ينزلها الطليان في طرابلس وبرقه والفرنسيون في سوريا ولبنان والمغرب(١٢١) .

هـ ـ يطالب المؤتمر بتسليم خط السكة الحديدية الحجازية الى ادارة اسلامية لانه ملك اسلامي قام باموال اسلامية لاغراض اسلامية ، ويطالب المؤتمر بالتقيد بصك الانتداب بشأن عدم التعرض للاوقاف الاسلامية ، وبتنفيذ ما اعترفت به معاهدة لوزان من كون الخط وقفا اسلاميا(١٢٢) .

و ـ استنكار الظهير الفرنسي البربري (القانــون القاضي بتنصير مســلمي البربر في المغرب العربي ، الصادر في ١٩٣٠) ، « فالمؤتمر يحتج بشدة ويطالب بالغاء الظهير والكف عن تلك الاساليب الخطيرة (١٢٣) ».

ز ـ استنكار المعاملة السياسية التي لقيها زعماء طرابلس وبرقة ومجاهدوهم وسائر قبائلهم من تقتيل وتشريد وسلب املاك ، «ان المؤتمر يرجو باسم العدل والمدنية والشرائع السماوية والارضيــة ان تتدخلوا او تحولــوا دون استمرار تــلك الفظائع »(١٢٤) .

وفي سبيل العمل لانشاء منظمة اسلامية دائمة قرر المؤتمر وضع دستور باســم (دستور المؤتمر الاسلامي العام) وعهد برئاسة لجنة صياغته لمحمد علي علوبة (كان دروزة سكرتيرا لها) . وقد أقر المؤتمر مواد الدســتور (من ١٧ فقــرة) وكان من مقتضاها ان المؤتمر مؤسسة اسلامية دائمة ينعقد كل سنة في بلد اسلامي يعين في آخر كل دور انعقاد ، وان له تشكيلات ومكاتب في كل انحاء العالم الاســلامي لمساعدتــه في الجباية وفي تنفيذ القرارات (١٢٥) . ونص دستور المؤتمر على انتخاب لجنة تنفيذية من ٢٥ عضوا لتمثيل المؤتمر في فترة عدم انعقاده وملاحقة تنفيذ قراراته والاشراف على تشكيلاته وتهيئة انعقاد دورته التالية ، على ان تجتمع مرة واحدة كل شهر ، ونص على ان يكون لها مكتب مؤلف من رئيسها وسكرتيرها وخمسة من اعضاء آخرين منهاليكون دائم العمل . وكانت اللجنة التي انتخبت ممثلة لجميع الاقطار الاسلامية العربية وغــير العربية التي شهد المؤتمر وفود منها(١٢٦) .

وفي حفلة ختام المؤتمر ١٧ ديسمبر / كانون أول كرر الخطبــاء تأييــد بلادهــم لفلسطين وقضيتها واماكنها المقدسة والبراق ، واعتبار انفسهم وبلادهم شركاءاصليين في كل ذلك ، ووعدوا ببذل كل جهد في تنفيذ قرارات المؤتمر وديمومتــه . واقيــم في الليل حفل ديني في المسجد الاقصى ، دعا المؤتمرون بنصر المسلمــين وبــلاد المسلمين وحماية فلسطين المقدسة من اخطار الاستعمار والصهيونيــة وكبت اعــداء الاســلام والمسلمين(١٢٧) . ثم اجتمعت اللجنة التنفيذية والفت مكتبها حســب الدستور مــن الحاج أمين رئيسا ، والسيد الطباطبائي سكرتيرا عاما ونبيه العظمــة مساعدا له ، ومن الزعيم الثعالبي ورياض الصلح وسعيد شامل اعضاء ، ومحمد علي علوبة امينــا للمال(١٢٨) . وسار العمل اياما بنشاط كبير . « وكان جيشان المؤتمر وروحه مايزالان مؤثرين »(١٢٩) . ووضع الطباطبائي ونبيه العظمة بعض الانظمة والتعليمات بسبيــل تشكيل لجان فرعية في المدن الفلسطينية والمدن الاسلامية الاخرى ، كما وضعا نظــام جباية وتبرع ، وباشرت بعض مدن فلسطينية العمل وفقا لذلك بسرعة(١٣٠) .

تقييم عام للمؤتمر :

لا شك ان المؤتمر الاسلامي الاول في القدس كان الميدان الواسع الذي عبر ابناء العالم الاسلامي فيه عن اهتمامهم بالقضية الفلسطينية ، وقمة الجهود التي بذلها الفلسطينيون لمناشدة عطف البلدان العربية والاسلامية ودعمها، وقد شعر قادةالحركة الوطنية في فلسطين بالقوة الجبارة للعالم الاسلامي وما يمكن ان يحققه التحالفالوثيق معها من نتائج مثمرة ، كذلك فقد دلل المؤتمر للعالم ان الشعوب الاسلامية أصبحت تشعر بان الحاجة ماسة الى تضامنها وتكاتفها ، وان لا سبيل لها الى تحقيق كثير من اغراضها الا باتحادها وتعاونها ، وكان اهم ما انجزه المؤتمر هو جمع ذلك العدد الكبير من كبار رجالات المسلمين من مختلف الاقطار الاسلامية في صعيد واحد لمناقشة قضاياهم واستعراض مشاكل بلدانهم والتعرف على الاوضاع السائدة في سائر الاقطار الاسلامية ، واقتراح ضروب العلاج التي تسفر عنها احاديثهم ومناقشاتهم .

لم يقتصر نجاح المفتي على توجيه انظار العالم الاسلامي نحو قضية فلسطين ، وتنبيهه الى ما يحيط بها من اخطار وخلق رأي عام اسلامي يساند القضيةالفلسطينية في السنوات التالية ، بل ترتب علىهذا العامل نتيجة اخرى ، هي تحقيق مجد شخصي له وتعزيز مركزه ونفوذه في انحاء العالم الاسلامي ، فتخطت شخصيته الحدود بعد ذلك المؤتمر واصبح شخصية اسلامية يعتد بها، بلاصبحخلال الثلاثينات وخاصة بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٠ وكاظم الحسيني ١٩٣٤، من ابرزالشخصيات في العالم العربي(١٣١) . واذا كان المؤتمر قد قصر عن تحقيق نتائج سياسية حاسمة فلا يعود ذلك الى فساد او وهن في اعماله ، بل الى ان معظم البلدان التي شاركت في المؤتمر كانت تفتقر الى الثقل الدبلوماسي الكافي ضد بريطانيا وسائر الدول الاوربية الاخرى ، والظاهرة الاستعمارية كانت لا تزال في اوجها في مرحلة مابين الحربين ،وجاء نقص التمويل عاملا اخرا لاحباط عدد من المشاريع الواسعة التي أقرها المؤتمر . ولا يمكن فصل هذا العامل عن الجو العام الذي كان يسود اقطار العالم الاسلامي سياسيا واقتصاديا .

في أعقاب المؤتمر :

عاش عرب فلسطين يحدوهم الامل بتنفيذ قرارات المؤتمر ، على ان امور المؤتمر لم تستمر على ما يرام ، فلم يباشر المكتب عمله كما يجب وذهب الطباطائي بعد اسبوعين الى اوربا ، كذلك لم تدع اللجنة التنفيذية الى الاجتماع وتحولت الى هيئة فخرية غير فعالة (١٣٢) . ويضيف عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة سببا آخر اذ

«.. لم تبدر اية بادرة في البلاد الاسلامية العربية وغير العربية في صدد تأسيس فروع للمؤتمر وتنظيم الجباية وتنفيذ القرارات . وكان هذا مما وضع على عاتق رجال المؤتمر في هذه البلاد التي كانت منشغلة بهمومها حيث كانت كلها تقريبا تحت الاحتلال والسيطرة الاجنبية وتعاني من ذلك ما تعاني وينشغل اولئك الرجال بذلك اكثر مما ينشغلون في امور المؤتمر وكان قدومهم اليه مبادرة شخصية وفردية وهذا فضلا عن التخلف العظيم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي كان يلف بلادهم وسكانها ..».

وكان تحقيق الوعدين ، الوعد بانشاء الجامعة(١٣٣) ، والوعد بانشاء الشركة الزراعية لانقاذ الاراضي ، بحاجة الى اموال ، فشرع مكتب المؤتمر يجمع المال من الخارج ، وسافر الى الهند وفد مؤلف من الحاج أمين الحسيني ومحمد علي علوبة ، وانضم اليه هناك الشاعر محمد اقبال ، فلقي نجاحا كبيرا وانهالت عليه التبرعات ، (مليون روبية من نظام حيدر اباد ، ونصف مليون من سلطان البهرة) .. وبينما كانت التبرعات تنهال والوفد يزداد اطمئنانا لنجاح مهمته ، وصلت رسالة من الحكومة في لندن الى ونتغتون نائب الملك في الهند تطلب منه عرقلة مساعي الوفد والحيلولة دون تحويل الاموال الى خارج الهند . ولم يكن صعبا على نائب الملك تنفيذ الاوامر بطبيعة الحال ، وبالتالي لم يعد صعبا على اعضاء الوفد وكبار الاعضاء في المؤتمر الاسلامي ان يروا بالعين المجردة لا بعين الخيال ، الحدود الضيقة التي وضعها الاستعمار امامهم لا يتخطوها ، فالاقطار العربية والاسلامية كلها كانت تعاني من ضغط استعماري ، والاستعمار سواء اكان بريطانيا او فرنسيا او ايطاليا يبقى استعمارا متضامنا وموحدا في مجابهة الاماني التحررية والقومية والتقدمية لدى الشعوب المستعمرة(١٣٤) . وكانت فكرة جمع الاموال في العالم الاسلامي فكرة هزت بريطانيا واقلقتها ، فانشاء جامعة في القدس تهيىء سبيل العلم للعرب تحاربه بريطانية ، وانشاء شركة زراعية تمول من مسلمي العالم ، وتوفر لها القدرة المالية لن يجد اليهود بعدها شيئا ميسرا لهم في التملك والانشاء والانماء(١٣٥) . ولم تنجح فكرة المؤتمر حتى فيمقاطعة البضائعاليهودية لدى المسلمين ولم ينقطع سيل التصدير من الشركات اليهودية في فلسطين والبيوت الصهيونية في العالم الى مختلف انحاء العالم الاسلامي الذي كان محكوما ببريطانيا وفرنسا وايطاليا ،ولم يكن لسكانه رأي في هذا الميدان بقدر ما لهم رأي في حكم بلادهم(١٣٦) .. ولربما كان وفد السلاممن المؤتمر الاسلامي العام برئاسة الحاج أمين لحل الخلاف المسلح بين اليمن والسعودية على الحدود هو الانجاز الوحيد الذي حققه المؤتمر في تلك الفترة . وجرت المفاوضات بين الطرفين باشراف ورقابة الوفد وانتهت بعقد معاهدة صلح وتحالف بين البلدين . فقد اعتبر مكتب المؤتمر النزاع ضربةللوحدة الاسلامية وهذا ما برر التدخل ، وعزز ذلك مكانة الحاج الدولية وخلق جوا من حسن

النية امكن ان يستخدمه فيما بعد وهو يبحث عن دعم السعودية واليمن في الثلاثينات(١٣٧) .

ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة ان هذه المبادرة قد منحت المؤتمر دفقة جديدة من الدم والحياة الا انها لم تبعث فيه حياة مستمرة ،« وظل الحاج امين يتحرق على اعادة اللألاء لشمس المؤتمر »، واستطاع ان يقنع الطباطبائي الذي كان في اوربا بالعودة الى فلسطين واستلام المكتب وانعاش حركة المؤتمر ، فعاد فعلا في اواخر سنة ١٩٣٣ واخذ يضع الخطط لذلك . واستطاع الحاج امين ان يقنع الزعيم الثعالبي ايضا بالعودة والاقامة الى جانب الطباطبائي في سبيل ذلك أيضا . وفي هذه الاثناء ورد خبر من حكومة فلسطين بوصول الحوالة بتبرع نظام حيدر اباد مشروطا دفع قيمتها. وشجع الخبر (الثلاثي الحاج والطباطبائي والثعالبي) على السير في مشروع جامعة المسجد الاقصى دون ان ينتبهوا الى ان المبلغ ليس سنويا ،وانه لا يمكن انشاء بناء كبير به للجامعة ، فضلا عن ما تحتاج اليه الجامعة من نفقات باهظة سنويا . فألفوا لجنة علمية واخرى دعائية واخذوا بوضع الخطط المتنوعة ، وانهمك الزعيمان الطباطبائي والثعالبي في ذلك مدة عامين وبدأ عملهم باحضار مهندس من مصر(١٣٨) كلفوه بوضع مخطط لبناء جامعة ذات كليات عديدة يتم انشاؤها مرحلة بعد مرحلة ، ثم فطنوا الى ان المال الذي في يدهم لا يكفي انشاء كلية واحدة فضلا عن تجهيزها . فراوا ان يقتصر عملهم على عمارة فندق الاوقاف الكبير لاقامة كلية او كليتين ، وألحا على الحاج امين الذي الح بدوره على المجلس حتىاستصدر قرارا بالموافقةعلى تخصيص العمارة للمشروع ، ثم تنبها الى ان المشروع يحتاج الى مبالغ كبيرة ليست متيسرة ، وان من الممكن تدبير اماكن مناسبة من البنايات والمدارس الوقفية الملحقة بالحرمبدون أجر او باجور رمزية .. وكان عزة دروزة حينذاك قد تولى مديرية الاوقاف وطلبمنه المجلس ابداء الرأي، وبعد تقليب الرأي قال دروزة ان العمارات التي حول الحرم مشغول أكثرها ولو امكن اخلاء او تخصيص بعضها فانه يحتاج الى مبلغ كبير ،ومجمل القول ان المشروع يحتاج اولا الى مبلغ جاهز لاعداده ثم الى ريع ثابت كاف لادامةحياته فضلا عن تنميته ، ولا يجوز ان يعالج معالجة متسرعة ، وسلموا بما قالدروزة واخذوا يخططون لمدرسة صناعية او مصنع يتعلم فيه الطلاب ، ولكن هذا ايضا بقي في نطاق الكلام وهكذا قضوا « سنتين في فراغ »(١٣٩) .

خاتمة :

ان تقلص قرارات المؤتمر لا يعني فشل فكرته في البحث عن القوة الدينية لدعم النضال الوطني ، ولا يعني كذلك غياب زعامة الحاج ولكن اخذ كل منهما منحى اخر:

فالجيل الماضي من دعاة الجامعة الاسلامية والـذي كان يشـدد على الطابع الاسلامي للقومية العربية اخذ يحل محله جيل جديد يرى الاولوية في الرابطة القومية والوحـدة العربية دون ان ينفي أهمية التعبير الديني عن المشاعر السياسية او البعد الاسلامي للقضية الوطنية ، وهذا اتجاه عام كان يجري في ثلاثينات القرن الحالي في كثـير من البلدان العربية ، بظهور احزاب تعبر عن عقيدة قومية اشد ترابطا والنظر الى الاسلام كحضارة او كخالق للامة العربية ومستودع لثقافتها وموضوع عزتها المشترك . وكان الشاعر محمد اقبال بعيد الرؤية عندما عبر بهذه الكلمات قبل مغادرته فلسطين « انني اعتقد ان مستقبل الاسلام متوقف على مستقبل العرب ، ومستقبل العرب متوقف على وحدة العرب ، فاذا تمت وحدتهم ، علا شأن الاسلام» (١٤٠) . وكانت كتلـة القوميين العرب داخل المؤتمر الاسلامي ، كما يصفهم دروزة في مذكراته غير المنشورة ، أقوى الجبهات من حيث التفاهم ووحدة الافكار ، وكادوا يكونون الروح الـذي سيرتـه في مناقشاتهم ومقترحاتهم ونشاطهم ، وكان عدد غير قليل منهم من ابناء جمعية الفتـاة وعهد فيصل من القوميين العرب يحملون وجهات نظر قومية عربية اكثرمنها اسلامية ، فرأوا في اجتماعهم فرصة لتجديد العهد والميثاق في سبيل الحركة القومية . وقد تكون القيود التي فرضتها السلطات البريطانية على المؤتمر الاسلامي(١٤١) قد حملت عددا من هؤلاء على اغتنام فرصة انعقاد المؤتمر للدعوة الى عقد مؤتمر عربي قومي في القدس ، فاجتمعوا قبل انتهاء المؤتمر في بيت عوني عبد الهادي ليلة ١٣ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ ، وانضم اليهم اخرون من الشباب العرب ورجالاتهم القوميين ، مـن القدس وفلسطين وخارجها ، ممن شهدوا المؤتمر الاسلامي او كانوا حوله . وبلغ عدد المجتمعين نحو خمسين من مختلف اقطار العرب الاسيوية والافريقية ، وتداولوا في ما صارت اليه البلاد العربية وما تعانيه من تجزئة واحتلال واستعمار وصهيونيـة ومشـاكل اقليمية ، وقرروا وضع الميثاق التالي :

١ ـ ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرا عليها من انواع التجزئـة لا تقره الامة العربية .

٢ ـ توجه الجهود في كل قطر من الاقطار العربية الى جهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والاقليميـة .

٣ ـ لما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها . واوضح المؤتمرون في الوثيقة العواقب السياسية الوخيمة لانقسام العالم العربي وتشرذمه وقرروا مكافحة

الاستعمار والنضال في سبيل استقلال جميع الاقطار العربية وتوحيدها . وانبثقت لجنة تنفيذية مهمتها نشر الميثاق القومي وتعميمه والاعداد لمؤتمر عام يضم مندوبين من جميع الاقطار العربية للبحث عن الوسائل والخطط اللازمة لتنفيذ الميثاق على مستوى شعبي في البلاد العربية كلها .

وفيا يتعلق بزعامة الحاج فان الهالة الدينية ،التي اخذت تكبر وتكبر حتى تكرست في المؤتمر الاسلامي العام ، بدأت تتراجع لتحل محلها الزعامة السياسية اولا، واخذت الحركة السياسية في فلسطين بصورة عامة تنهج منهجا مختلفا ، وتتخلى عن ضرورة وجود الزعامة الدينية كعنصر هام من عناصر قيادتها ، ولم تقم الاحزاب السياسية التي ظهرت في فلسطين في الثلاثينات على اساس ديني ، ولم تعد تعتبر ان للمكانة الدينية التي يتمتع بها الحاج الافضلية في الميدان السياسي . ومن هنا اخذت الاحزاب السياسية تخاطبه كرجل سياسي اولا وثانيا(١٤٤) . ولا يعني هذا ان الحاج قد فرط بالهالة الدينية التي تحيط بشخصه او انه بدأ يتجاهل القوة الهائلة للعالم الاسلامي من اجل تعبئته الى جانب قضية فلسطين، بل ظل يدرك أهمية العامل الديني في خدمة الاهداف السياسية ، ومما يذكر في هذا المجال الحملة التي قادها المفتي ضد بيوع الاراضي ، والتي وصلت اوجها عام ١٩٣٤ باصدار الفتاوى الدينية بتكفير البيع والبائع ، والسعي الى استنقاذ الاراضي في فلسطين من خلال تخويلها الى وقف وحظر بيعها (١٤٥) . وظل المجلس الاسلامي الاعلى يشغل مكانة معنوية عالية بين ابناء فلسطين واستمر في ممارسة نفوذه في السياسات الفلسطينية المحلية حتى ابعاد المفتي . وكان تعاظم مكانة المفتي كزعيم له شهرة في العالم الاسلامي هي التي حملت بريطانيا ، وهي تخطط لابعاد المفتي عام ١٩٣٦ عن فلسطين، الى محاولة التاكد من الاثار السيئة التي يمكن ان تعقب عملا من هذا النوع ، وذلك بالتشاور مع ممثليها المنتشرين في الهند ومصر والعراق والجزيرة العربية(١٤٦) .

الحواشــي :

(١) خدوري ، عبد المجيد ، عرب معاصرون ، ادوار القادة في السياسة بيروت ١٩٧٣ (مترجم)ص١٥٩ من رسالة المفتي الى المؤلف .

(٢) **Lesch Ann Mosely** , Arab Politics in Palestine , 1914 - 1939 London, 1949, p. 132

(٣) الفوري ، اميل ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ، ١٩٧٢ جزء (١) ، ص ٢١٥ .

(٤) كان منصب الافتاء قد شغر بوفاة كامل الحسيني اذار / مارس ١٩٢١ . وجرت العادة في العهد العثماني ان يختار عدد من العلماء يمثلون مختلف المقاطعات في البلاد ثلاثة رجال تختار السلطة احدهم لمنصب المفتي ورشح الحاج أمين نفسه فكانت تتوفر فيه المؤهلات المطلوبة (وهو شقيق المفتي الراحل) .وعارضت ذلك اسرة النشاشيبي (وهي احدى العائلات المنافسة التيانتقلت اليها رئاسة البلدية بعد الحرب) ، وضمنت ترشيح ثلاثة من اسر اخرى ذات نفوذ . ووفقا لقانون انتخاب الافتاء العثماني والذي طبقته السلطات البريطانية كان يحق لمتصرف القدس (والمندوب السامي يعتبر نفسه قد حل محله) ان يختار واحدا من الفائزين الثلاثة لتولي المنصب. ومن اجل الحفاظ على التوازن بين العائلات المتنافسة اقنعت السلطات البريطانية احد المرشحين الثلاثة بالانسحاب ليفسح المجال امام الحاج ويصبح المرشح الثالث واختير بعدها مفتيا للقدس. (كان عدد المفتين في فلسطين كلها سبعة الا ان مفتي القدس كان اكثرهم أهمية فقد كان يجري اختياره من بين ثلاثة مرشحين انتقاهم كبار علماء فلسطين ، بالاضافة الى قيامه بدور رئيسي في النشاط الاسلامي والسياسي) .

(٥) في العهد العثماني كانت السلطة التشريعية هي المرجع الرئيسي الذي يصدر عنه التشريع والقوانين في كل ما يختص بالمحاكم الشرعية والاوقاف الاسلامية ، وبعد الانتداب اصبح من الضروري ايجاد صيغة اخرى لتنظيم الشؤون الاسلامية وادارتها . وبعد التشاور مع عدد من العلماء والاعيان وموظفي الحكومة ، تم انشاء المجلس الاسلامي الاعلى في اذار / مارس ١٩٢١ للاشراف علىالشؤون الشرعية الاسلامية وادارتها من محاكم شرعية واوقاف ، وجرت الانتخابات الاولى لاختيار الهيئة العليا للمجلس (رئيس واربعة اعضاء) على طريقة الانتخابات لمجلس النواب العثماني وفازبالرئاسة في الانتخابات ١٩٢٢ الحاج أمين الحسيني . وقد اثارت الانتخابات التنافس بين العائلات ولعبت العصبيات المحلية دورها ، ودخل المجلس الاعلى في لعبة التوازن بين قوتين سياسيتين متنافستين اطلق عليهما فيما بعد « المجلسيون والمعارضون » .
نويهض الحوت ، بيان ، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ .

(٦) عقد عرب فلسطين في الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٢٨ سبع دورات للمؤتمر العربي الفلسطيني ، ويعد هذا المؤتمر في بلد حرم ابناؤه العرب ممارسة حق الانتخاب ، مؤسسة وطنية تشبه المجلس النيابي ولها اهدافها الواضحة وبرامجها المحددة . ولميتم اختيار المندوبين الى دورات هذا المؤتمر وفق قاعدة واحدة بل تم من خلال الجمعيات واهمها « الاسلامية المسيحية » والهيئات الاخرى ، او بعرائض ومضابط انتخابية تقدمها المؤسسات والمدن والقرى . وراوحعدد المندوبين بين ٢٨ و ١٢٧ مندوبا من مختلف مدن فلسطين واقضيتها .وكانوا من العاملين في الحقل السياسي ومعظمهممن الذين تولوا مناصب عالية او ممن كانوا اعضاء في الجمعيات السياسية في العهد العثماني وعدوا

فيما بعد اعضاء في الجمعيات الوطنية الفلسطينية . وكان هدف المؤتمر وضع الخطوط السياسية لحركة النضال الوطني وبث الدعاية لها في الخارج ، وقد انبثق عن كل مؤتمر لجنة تنفيذية اتفق على ان تكون الناطقة باسم عرب فلسطين وتتولى الاشراف على تنفيذ قرارات المؤتمر وقيادة الحركة الوطنية وتوجيهها .وقد ظل موسى كاظم الحسيني يتولى رئاسة اللجنة التنفيذية حتى وفاته ١٩٣٤ وكان ذلك نهاية لوجود اللجنة نفسها وانتهاء لعهد المؤتمرات العربية الفلسطينية ،وستتولى قيادة الحركة الوطنية فيما بعد اللجنة العربية العليا برئاسة المفتي نفسه ممثلة لجميع الاحزاب الفلسطينية التي برزت في مطلع الثلاثينات .

(٧) الغوري ، اميل ، ص ٨١

(٨) الشقيري ، احمد ، اربعون عاما في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

(٩) **Peters, Rudolph,** Islam and Palestinian national movement 1918 — 1940 , a paper submitted at the 8 th congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisants, Amsterdam, p.11.

وفي الثلاثينات شن المسيحيون حملة مماثلة في العالم المسيحي :

كيالي ، عبد الوهاب ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ،بيروت ١٩٦٨ ، ص ٤٢٩ نداء من مسيحيي فلسطين الى العالم المسيحي لانقاذ الاماكن المقدسة من الخطر الصهيوني .

(١٠) الغوري ، اميل ، ص ٢٠٥ . في نهاية ١٩٢٤ بلغت الهبات ١٧٠٠٠ استرليني ، ووصلت ١٩٥٠٠٠ استرليني في منتصف ١٩٢٨؛

Political Report, Sep. 1924 , CO 733 / 74 Chief Secretay dispatch , August 30, 1928 C.O 733/160/57527.

وردت في كتاب : **Lesch.** p.137

(١١) اوراق اكرم زعيتر ، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٩ ، وثيقة ٩٧ « نداءات الوفد الفلسطيني الاسلامي للحجاز الى الامم والدول العربية الاسلامية ١٩٢٢» .

وقد يكون هذا هو الذي دفع الحكومة البريطانية الى الالحاح على الوفود الفلسطينية التالية التي ذهبت الى الحج ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بالامتناع عن أي نشاط سياسي .

Political Report June 1923, CO 733/47
High Commissioner telegram Sept 26 1929 CO 733/44

وردت في كتاب : **Lesch** P.138

(١٢) ارسلان ، شكيب ، السيد رشيد رضا واخاء اربعين سنة ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٨.

(١٣) انظر الحاشية (٢٢) عن المؤتمر الاسلامي ١٩٢٦ .

(١٤) ساحة البراق هي المكان الذي تتحدث الروايات الاسلامية انه البقعة التي ربط فيها الرسول الكريم فرسه ـ البراق ـ ليلة اسرائه من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، وفي جوار هذه البقعة حائط المبكى وهو جزء من جدار المسجد الاقصى. وفي عيد الغفران عند اليهود ايلول/سبتمبر ١٩٢٨ تدفق جموع اليهود على المدينة القديمة في طريقهم الى حائط المبكى في مظاهرة شبه عسكرية وكانت تقاليد اليهود الى ذلك العهد قاصرة على البكاء والدعاء ، ولكنهم في ذلك اليوم تجاوزوا ـ الستاتكو ـ فنفخوا في الصور ووضعوا الطاولات واقاموا الستائر ورفعوا اصواتهم ، وكانت حركاتهم آية في التحدي والاستفزاز . ولم تكن الطاولات والستائر والابواق ذات أهمية بذاتها ، لولا

ما كان العرب يحسونه من الخطر الصهيوني على المسجد الاقصى والمقدسات الدينية عامـــة ، بل على فلسطين باسرها ، وخاصة تلك التصريحات اليهودية عن اقامة هيكل سليمان على انقـاض المسجد الاقصى . فاهتاجت المشاعر وابتدأ الصدام في القدس القديمة ، فتصدى الشعب بعدهـا للمسيرة اليهودية في القدس القديمة ، وتصدى رجال الشرطة للجماهير العربية وسقط القتـلى والجرحى بالمئات ، وعم الاضطراب جميع مدن فلسطين وبلغ اوجه في اب / اغسطس ١٩٢٨ ووقـع الاصطدام بين القرى العربية والمستعمرات اليهودية ونشـطت السلطات البريطانيـة في الاعتقالات واعلان الاحكام العرفية واصدار احكام الاعدام وساد البلاد جو مشـحون بالقلـق والاضطراب. وبعثت الحكومة لجنة تحقيق برلمانية عرفت باسم رئيسها (ولتر شو) تشرين اول اكتوبـر ١٩٢٩ لدراسة الاسباب التي ادت الى الاضطرابات ولتقديم التوصيات لمنع تكرارها .

(١٥) بعد تفجر مسالة البراق عقد مؤتمر اسلامي تشرين اول / اكتوبر ١٩٢٨ في القدس حضره سبعمائة من فلسطين والاقطار المجاورة طالب الحكومة باصدار تصريح عـن تعهداتها بحفظ حقـوق المسلمين في البراق ، وتمخض المؤتمر عن ولادة « جمعية حراسة الاقصى والاماكن المقدسـة » وكان للحاج أمين ودوائر المجلس الاسلامي دور كبير .

(١٦) في اواخر ايار / مايو ١٩٣٠ وفدت على البلاد لجنة البراق الدولية لدرس الخلافات حول هـذا المكان بين العرب واليهود ، وكان ذلك مما اوصت به (لجنة شو) ووضعت كل الطاقات والكفاءات بين يدي الحاج امين بوصفه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى .وتداعـــت الوفود من كل انحـاء العالمين العربي والاسلامي للمثول امام اللجنة الدولية للادلاء بشهاداتها وارائها حول ملكية المسلمين لحائط البراق وما حوله . ولم تكن القضية صعبة من الناحية القانونية فقد كانت وثائـق المحاكم الشرعية وسجلات الاوقاف كفيلة بان تثبت حق المسلمين . وجاء تقرير اللجنة الدولية فاعلـن الملكية للمسلمين واعطى اليهود حق الزيارة في اضيق الحدود .

(١٧) **Falastin**, Englisf edition . Jun, 28, 1930, p.2
وردت في كتاب : **Lesch** , pp.139 - 140

(١٨) المنار ، ج ٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٣–١٤

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر اخذت تحوم في مختلف ارجاء العالم الاسلامي أفكار تبحث في اسباب تخلف البلدان الاسلامية، وطرق مواجهة تحدي الغرب ، وانتشرت الافكار الاصلاحية على يد تلامذة الافغاني تدعو الى الاصلاح بقبول المدنية الجديدة بالمقدار الكافي لاستعادة العالم الاسلامي قوته وهيبته مع الحفاظ على الدين الاسلامي والقيم الاسلامية .
حول هذه المواضيع انظر : **Hourani , Albert** , Arabic thought in Liberal age 1798 — 1939. Oxford University Press, 1970, Chap. V.VI,VII

(٢١) بعد الغاء تركية للخلافة ١٩٢٤ يقول شكيب ارسلان « بادر العقلاء والمفكرون من المسلمين الى النظر في هذا الموضوع حتى لا يبقى الاسلام بلا خليفة » وكان هو قد اشار بمعالجة هذه المسألة في مؤتمر اسلامي عام فصادفت هذه الفكرة قبولا في جميع الاندية الاسلامية ، وانعقد مؤتمر الخلافة في مصر ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٦م. ويضيف ارسلان « وبعد ان تذاكروا مليا في الموضوع لم يجـدوا مملكـة اسلامية في هذا الوقت تقدر ان تقوم بشروط الخلافة سوى مصر ولكن الاحتلال الانجليزي وعـدم تمتع المملكة المصرية بتمام أستقلالها يومئذ جعلا سبيلا للاعتراض على جعل الخلافة في مصر وكان اكثر المعترضين هم من مسلمي الهند والجاوى » .

ارسلان شكيب ، السيد رشيد رضا واخاء اربعين عاما ص ٢٥٢

(٢٢) مؤتمر مكة ١٩٢٦ دعا له الملك عبد العزيز آل سعود بعد استيلائه على مكة وحضرته وفود رسمية وجمعيات اسلامية من عدة بلدان اسلامية ، ولم تبحث فيه مسألة الخلافة . وكانت مسألة النزاع حول العقبة ومعان بين الحجاز وشرق الاردن مثار بحث وكذلك مسألة الخط الحديدي الحجازي واعتبر انه وقف اسلامي . وكان من المقرر ان يجتمع المؤتمر سنويا على ان يمتد نطاقه ليشمل كل القضايا الاسلامية .

(٢٣) كان عزة دروزة احد الذين واكبوا الحركة السياسية منذ مطلع هذا القرن وخلال سنوات الانتداب كان في خضم الحركة الوطنية في مواجهة خطر الانتداب والصهيونية ولعب دورا محركا في الاحداث دون ضجة او اثارة . ومنذ ان تولى امانة سر المؤتمر السوري العام الذي اعلن استقلال سوريا وملكية فيصل ٨ آذار / مارس ١٩٢٠. سيتولى عزة دروزة امانة سر المؤتمر الاسلامي ١٩٣١ ومؤتمر بلودان ١٩٣٧ .

(٢٤) بعد ان غادر الثعالبي ارض تونس في ٢٦ تموز / يوليو ١٩٢٣ متجها الى الشرق استقر في فلسطين واستقبلته القدس ابنا بارا بقضية العروبة ، مبشرا مؤمنا بها واستمعت اليه محاضرا واسع المعرفة جذاب الحديث واعتبرته مناضلا منها ولها . وعمل فيها كما كان يعمل في مسقط راسه لا يفرق بين تونس والقدس بل ربما اولى هذه ما لم يوله تلك لانه يعلم انها مهددة بخطر افدح من الخطر المحيط بتلك ولانها ثاني القبلتين ترتاح روحه للصلاة في اقصاها .

الجندي ، سامي ، عبد العزيز الثعالبي – تونس الشهيدة – ترجمة – بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٠، من المقدمة . وقد سعى الثعالبي للتوسط بين الاحزاب الفلسطينية المتنافسة ١٩٢٤ للتعجيل بعقد المؤتمر الفلسطيني السابع ووجه دعوة لعقد مؤتمر مصالحة في ١٩٢٤/٦/٢٤ في مدرسة دار الايتام الاسلامية بالقدس وذلك للسعي في كل سبب يفضي الى سوء التفاهم بين عناصر الفكرة الوطنية المكونة للوحدة الفلسطينية » .

خلة – كامل ، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ – ١٩٣٩ بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ نقلا عن الجزيرة (يافا) ١٩٢٤/٢٦ .

(٢٥) صدقة ، نجيب ، قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

(٢٦) عقد في القدس على جبل الزيتون نيسان / ابريل ١٩٢٨ المؤتمر التبشيري العالمي وكان خاصا بالجمعيات التبشيرية البروتستنتية ورئيس المؤتمر جون موط وغرضه المشاورة في نشر الرسالة المسيحية في جميع انحاء العالم . ونشر تقرير عن المؤتمر في ثمانية مجلدات وكان القسم الخاص بالاسلام والبلاد الاسلامية ضئيلا ، ولم يمثل في المؤتمر أي مندوب عن المسيحيين العرب . وقد اثار المؤتمر موجة من الاستنكار والاحتجاج ، كما قامت المظاهرات والاضطرابات وعقد مؤتمر في يافا قرر على اثره تاسيس جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين.

(٢٧) انعقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زوريخ تموز – آب / يوليو – اغسطس ١٩٢٩ ونقلت وكالات الانباء خطب زعماء الصهيونيين التي تكشف عن اهدافهم التوسعية والعدوانية ، واعلنت قرارات المؤتمر فاذا بها تدعو الى مزيد من الهجرة اليهودية وشراء الاراضي ودعم المؤسسات العسكرية والمالية وتقوية الوكالة اليهودية .

(٢٨) **Kupferschmidt , Uri ,** The general Muslim Congress of 1931 in Jerusalem . Asian and African Studies, Haifa, Vol. ; 12 , No.1 March 1974 , pp.125,132

(٢٩) تحركت الحكومة البريطانية ١٩٣٠ امام الدراسات العلمية والتحقيقات العادلة بعض الشيء، في تحقيق مطالب العرب فكان الكتاب الابيض تشرين اول / اكتوبر ١٩٣٠ وكان خطوة على الطريـــق نص على انشاء مجلس تشريعي ووضع قيود على الهجرة وبيع الاراضي ولم تكن هذه كل المطالب الوطنية ولكن كان العرب في حاجة الى وقف « النمـو » الصهيوني ، ولكن الصهيونيـة غضبت واستقال وايزمان من قيادة الحركة احتجاجا وقامت الصهيونية بضغوط عالمية انتهت باصـــدار الحكومة البريطانية في شباط فبراير ١٩٣١ بيانا ايضاحيا تراجعت فيه عن الكتـــاب الابيض في لهجة كلها اعتذار للحركة الصهيونية ، وجاء البيان في صيغة رسالة الى وايزمان اطلق عليهـا العرب اسم (الكتاب الاسود) .

(٣٠) انظر الحاشية رقم ١٦ .

(٣١) يذكـر **Gibb** ان القرار الحقيقي لعقد المؤتمر اتخذ بعد يونيو / حزيران ١٩٣١ ومعنى ذلك انه قد ربطه بالتطورات السياسية المذكورة سابقا .

Gibb , H. A. R., The Islamic Congress of Jerusalem in December 1931 , In, **Toynbes , Arnold,** Survery of International Affairs, 1934 , London , 1935, p.100.

(٣٢) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة . ويصف دروزة الثعالبي بقوله : « .. وكان في الحق رجـلا ناضجا رصينا واسع الثقافة الاسلامية والعربية والغربية طلق اللسان طويل النفس في الكـلام والتقرير بارعا في الالقاء والخطابة يستعمل الكلام الجزل الفصيح النافذ » .

(٣٣) محمد علي وشقيقه شوكت علي زعيمان من زعماء مسلمي الهند السياسيين وهما المؤسسان لجمعية الخلافة هنالك . وكانت الصلة بين مسلمي الهند وفلسطين قديمة فقد بعث الحاج امين الحسيني بأول وفد فلسطيني الى الهند ١٩٢٣ للاتصال بقادتها لنصرة القضية ولجمع الاموال لاصلاح الحرم الشريف .كما اجتمع الحاج مع الاخوة علي في مكة خلال الحج ١٩٢٤ ومؤتمر مكة ١٩٢٦ كماجرت مراسلات بين الحاج والاخوين علي ، تطلب رفع المسلمين في الهند احتجاجات ضد الخطط اليهودية على الاماكن المقدسة ، ولاقت احداث ١٩٢٩ صداها في الهند واظهر مسلمو الهند تضامنهم مع عرب فلسطين . وشارك وفد هندي في المثول امام اللجنة الدوليـــة للبراق ، وكان محمد علي احـد المتحدثين باسم الجانب الاسلامي امام اللجنة .

FO 371/16001, CO 733/173- (67314) CO 733/179 - (77013) .

وردت في مقال : **Kupferschmidt , p.129.**

وقد نقل جثمان محمد علي بعد وفاته ١٩٣١ (وكان يحضر مؤتمر المائدة المستديرة الخاص بمشكلة الهند) نقل الى القدس بدعوة من الحاج امين الحسيني ، ودفن في حجرة من الحجر التابعـة للمسجد الاقصى الذي كان يدافع عنه .

المنار ج ٧ ، م ٣١ ، ١٨ فبراير ١٩٣١ ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

وتذكر بعض المصادر ان شوكت علي هو أول من طرح فكرة عقد مؤتمر في القدس للبحث في الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين وافضى بالفكرة الى الحاج أمين لما قام بنقل جثمان شقيقه لدفنها في الحرم بعد ان رأى الخطر المحيق بالاماكن المقدسة في فلسطين .

الهلال جزء ٣ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ص ٣٤٩ .

(٣٤) كان العلامة الشيخ رشيد رضا احد هؤلاء الذين استمزج الحاج امين رأيهم بعقد المؤتمر . وقد نشر رضا على صفحات المنار ج٢ م ٣٢ فبراير ١٩٣٢ نص الدعوة الخاصـة التي كان قـد تلقاها من

المفتي والتي تفيد بغرض المؤتمر وهو البحث في القضايا الاسلامية العامة التي تتعلق بفلسطين على الخصوص بعد ان بات من الضروري الاستعانة برأي العالم الاسلامي في تقرير الخطة التي ينبغي اتخاذها ، ويطلب المفتي من صاحب المنار عناوين ارباب المكانة والزعماء والفكر والقيادة من المسلمين في جميع الاقطار ليبعث لهم بالدعوة . وتعود صلة الحاج أمين برشيد رضا الى ماقبل الحرب العالمية الاولى حين كان يتردد على منزله خلال اقامته في القاهرة لتلقي العلم كما كان يتردد على دار الدعوة والارشاد التي اسسها رضا قبل الحرب .

(٣٥) كان في اللجنة التحضيرية عشرون عضوا جميعهم فلسطينيون عدا الثعالبي وكان الحاج أمين وامين التميمي هما العضوان الوحيدان من المجلس الاسلامي الاعلى .

(٣٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة (المحفوظة فيمؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت) . وايضا المنار ، ج٢ ، مجلد ٣٢ فبراير ١٩٣٢ ص١١٧ — ١١٨.

(٣٧) كان شوكت علي قد اكد ذلك في حديث خاص مع السلطات البريطانية في لندن ٢٩ سبتمبر/ ايلول ١٩٣١ لضمان موافقة تلك السلطات على عقد المؤتمر .

F.O 371/15282

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.135

(٣٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٣٩) الغوري ، اميل ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٤٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٢٤ نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة ويشير رشيد رضا في المنار ج٢ ، مجلد ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ص١٢٠ انه « كان قد ذاع وشاع ان (مولانا شوكت علي) احد مؤسسي جمعية الخلافةفيالهند لترويج سياسة الخلافة العثمانية التركية هو الذي اقترح على السيد محمد امين الحسيني عقد هذا المؤتمر وا ن اهم غرض فيه مبايعة عبد المجيد اخر سلاطين الترك بالخلافة » .

(٤١) الغوري ، اميل ، ص ٢٠٥ .

(٤٢) المصدر نفسه ص ٢٠٦ .

(٤٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المنار ج٢ ، م٣٢ فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢١ . ويبدو ان هناك تخوف اخر بالاضافة الى مسالتي الخلافة والازهر ، وهو امكانية حضور خديوي مصر السابق عباس حلمي المؤتمر للحصول على دعم لمطالبته بعرش سوريا .

F.O 371/15282

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.127

(٤٦) المنار ج (٢) ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٤٨) وصل المفتي الى القاهرة فزاره اركان حزب الوفد المعارض برئاسة مصطفى النحاس مؤيدين ثم كانت مقابلة الحاج مع رئيس الوزراء مقنعة للجميع ، واثر المقابلة ارسل الاول للثاني رسالة خاصة اكد فيها على ان الابحاث في المؤتمر ستكون بعيدة كل البعد عن ان تمس الشؤون المصرية البحتة من سياسية وقومية ، او ان يتعرض للازهر الشريف واوضح ان الجامعة في القدس يقصد منها خدمة مسلمي فلسطين ، ثم نفى الاشاعات حول البحث في الخلافة .

المنار جزء ٢ ، م٣٢ فبراير ١٩٣٢ ، ص ٢٦ ١ـ ١٢٧

(٤٩) FO 371/15284

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.136

(٥٠) غنيم ، عادل ، المؤتمر الاسلامي العام ١٩٣١ ، شؤون فلسطينية ، سبتمبر / ايلول ١٩٧٥،ص١٢١. نقلا عن Jewish Chronicle 11.12.1931 ويشير المقال الى ان بعض الاتراك الكماليين قد حضروا المؤتمر مثل رضا توفيق الفيلسوف التركي والوزير السابق ، بينما منع من حضور المؤتمر الشيخ مصطفى صبري شيخ الاسلام السابق وكان في اليونان (نقلا عن الاهــرام ١٩٣١/١٢/١٢) وكان العلم التركي مرفوعا مع اعلام البلاد المشتركة في المؤتمر لكنه سحب من القاعة بعد تدخل قنصلية تركيا في القدس (نقلا عن وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١) .

(٥١) F O 371/15282

وردت في مقال Kupferschmidt, p.137

(٥٢) الاحتجاجات الايطالية على الحملة الصحافية المعادية لايطاليا في فلسطين في الوثيقة رقم : FO 371/15334

وردت في المقال السابق ص ١٣٧

(٥٣) FO 371/15283 FO 371/15282

وردتا في المقال السابق ص ١٣٨

(٥٤) FO 371/15282

وردت في المقال السابق ص ١٣٨

وقد كرر في نفس الاجتماع التاكيد على رفض السماح للخليفة السابق عبد المجيد بالدخــول الى القدس قادما من مقر اقامته في نيس .

(٥٥) غنيم ، عادل ، ص ١٢٦ نقلا عن الشعب (القاهرة) ١٩٣١/١١/٣٠ (بيان اللجنة التحضيرية في المؤتمر) . ووفقا للوثائق البريطانية التقى المندوب السامي (واكهوب) بالمفتي فاكد الاخير على عدم بحث الامور السياسية المتعلقة بموضوع الخلافة او السياســـة الايطالية في طرابلـس او الاعتداءات اليهودية على الاماكن المقدسة . واشار واكهــوب الى ان منع المؤتمر لم يوضـــع في الحسبان وان وزارة المستعمرات قد قبلت بنصيحته . مع ذلك فقد ظل واكهوب متيقظا واستدعى المفتي ثانية بعد ان تلقى بيانا حول جدول اعمال المؤتمر وجدد المفتي تأكيداته السابقة .

FO 371/ 15283

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.139

(٥٦) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا ١٩٥١ ، الجزءالثالث ، ص ٧٧.

(٥٧) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديثة ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) يشرح رشيد رضا في المنار جزء٢ ، م٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ خلفية التنافســات العائلية بين اسر القدس الوجيهة . فآل الحسيني توارثوا منصب الافتاء في حين توارث آل الخالدي اعمال القضاء والمحاكم الشرعية . وبعد انشاء المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه مفتي القدس من آل الحسيني ، صارت المحاكم الشرعية تابعة لرياسته فكان هذا سببا لقوة التنافس بين الاسرتين. ووجد راغب النشاشيبي ، رئيس البلدية وعميد آل النشاشيبي ، (وهي ايضـــا من الاســر الوجيهة) ، في علو وجاهة المفتي ما اقتضى الاتفاق بينه وبين آل الخالدي على معارضة الحسيني، ولكل من الفريقين انصار فانصار الحسيني يسمون المجلسيين والاخرون يســمون المعارضين ولكــل منهما جرائد تدافع عنهـــم وتطعن بالاخرين ، « وعقلاء البــلاد الفضـــلاء يخشون عاقبــة هـــذا

الشقاق ويمقتون جميع مظاهره ولا يهتدون الى ازالته سبيلا » .

(٥٩) المنار ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٦٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢١٤ .

(٦١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٦٢) المصدر نفسه .

(٦٣) المنار ، جزء٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٣٨ .

(٦٤) تشير الهلال في جزء ٣ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ، ص ٣٥١ الى ان فشل شوكت علي في سعيه للتوفيق ثم عطفه على المعارضة ، كان سببا في فتور العلاقات بينه وبين الفريق الاخر . وقد ظهر هذا الفتور في أول ايام المؤتمر ثم لم يلبث ان تجلى بعد ذلك .

(٦٥) الغوري ، اميل . ص ٢٠٦ .. يقول الغوري ان عقد هذا المؤتمر كان بايعاز انكليزي ولايستبعد دروزة في مذكراته غير المنشورة ان يكون اليهود قد بذلوا اموالا طائلة عن طريق فخري النشاشيبي وكان لولب الحركة المعارضة والاشد نشاطا للقيام بهذه الحركة التشويهية ضد الحاج وضد المؤتمر ويبدي دروزة اسفه لعمل المعارضين وقد عقد مؤتمر المعارضة في فندق الملك داود .

(٦٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٤ .

(٦٧) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .
ونقلا عن اعداد جريدة الجامعة العربية (القدس) ١٩٣١/١١/٢٥ كما وردت في كتاب نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧٢ فان الاقطار العربية والاسلامية التي قدمت منها الوفود هي : مصر ، سورية ولبنان ، الاردن ، العراق ، تونس ، مراكش ، السعودية ، اليمن ، عدن ، الجزائر ، القفقاس ، كاشغر ، جاوه ، سيلان ، نيجيريا وافريقيا الوسطى ، ايران ، الاورال ، البوسنة والهرسك ، يوغوسلافيا ، البانيا ، الهند ، كامبالا واوغندا ، اميركا الشمالية والجنوبية .

(٦٨) كانت الدعوة قد وجهت الى بعض ملوك المسلمين وامرائهم ولكن امام اليمن كان الوحيد من رؤساء الدول العربية الذي رحب رسميا بالدعوة الى المؤتمر قبيل انعقاده ، ولم يكتف بارسال مندوبه بل ارسل مقدار طن من بن المملكة اكراما لاعضاء المؤتمر . غنيم ، عادل ، ص ١٢١ نقلا عن المقطم ٢٤/١٠/١٩٣١ والبلاغ (القاهرة ١٩٣١/١٠/٢٠) .

(٦٩) كان الملك عبد العزيز آل سعود قد عين ممثله كامل القصاب بعد ايام من بدء المؤتمر . غنيم، عادل ص ١٢١ نقلا عن وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١ .

(٧٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧١ جدول باسماء اعضاء المؤتمر نقلا عن اوراق نبيه العظمة الخاصة (مؤسسة الدراسات الفلسطينية) .

(٧١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٧٢) تذكر الهلال في ج ٣ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ص ٣٥١ ان من بين اعضاء المؤتمر عياض اسحاقي بك مندوب مسلمي اورال في روسيا وقد وافى مندوب الهلال بالشيء الكثير عن مسلمي روسيا وما يلقونه من اضطهاد البلاشفة ومناوأتهم لهم . واخبره انه يعيش في بولندا لان البلاشفة حكموا عليه بالاعدام لانتصاره لدينه واحتجاجه على محاربتهم للاديان اذ انهم يحاربونها كلها على السواء .

(٧٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، ورشيد رضا في المنار ج ٣ ، م ٣٢ مارس ١٩٣٢ ص ١٩٥ يقول درو زة ان ليلة الافتتاح كانت ٢٧ رجب بينما يقول رضا انها ٢٦ رجب .

(٧٤) المنار ، العدد السابق .

(٧٥) يروي رشيد رضا – العدد السابـق ص١٩٦ – انه سعى في كلمتـــه الى « تقريب وقوع منقبـة الاسراء الى العقول بما اجمع عليه العلماء والفلاسفة الروحيون» ، كما ذكر من حكمته تسـمية هذا المكان الشريف بالمسجد الاقصى بعد خراب ما بناه بسليمان عليه السلام ومحو اثره هو ان اللـه تعالى شرفه بجعله معبدا للمسلمين الى اخر الزمان ، وجعله في المرتبة الثالثة بعد المسجدالحرام ومسجد الرسول ، واوجب على المسلمين صيانته وحفظه الى اخر الزمان ولهذا اختير افتتاح هـذا المؤتمر الاسلامي العام فيه واقامته بجواره .

(٧٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٥ نقلا عن الجامعة العربية (القدس) ١٩٣١/١٢/١٦ .

(٧٧) غنيم ، عادل ، نقلا عن البلاغ ١٩٣١/١٢/٨ . وكان من الخطباء عبد الرحمن عزام الذي ابلـغ تحيات رئيس حزب الوفد المصري (مصطفى النحاس) ورجال الوفد وتضامنهم مع اعضاء المؤتمـر ومقاصده ، ويقول دروزة في مذكراته غير المنشورة انه بعد خطاب عزام « قـام صاحب الكشـكول (القاهرة) بالهتاف للملك فؤاد فكانت مفاجاة وهرج حتى خشي من ذلك على مصير المؤتمر لـولا ان استجار صاحب الكشكول بالمفتي وانتهت الحفلة بسلام ، وكان الرأي العام العربيمتعاطفابقوة على الملك ورئيس ورزائه اسماعيل صدقي » .

(٧٨) البلاغ (القاهرة) ١. كانون اول / ديسمبر ١٩٣١ .

(٧٩) الجندي ، انور ، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الاسلاميـة ١٨٧٩ – ١٩٤٤ بـيروت ١٩٨٤ ص ٣٢ ، ٥٨ – ٦٤ . ويذكر المؤلف ان الثعالبي كان قد بعث اليهبعد وصوله الىالقدسابان الاعداد للمؤتمر بطاقة مفتوحة رسمت على احد وجهيها صورة البحر الميت وفي ضفافها يهــودي يستحم فيها وعلى رأسه مظلة تقيه حرارة الشمس وبيده كتاب يقرؤه ، ودبج الثعالبي في الوجه الثاني « كلمات حارة تصف غيرته وحفاظه على الوطن العربي وعداءه للاستعمار والصهيونيـة، وتدفق اسى وحسرة على ان انشب الاستعمار والصهيونية مخالبهما في هذه البقعة الطيبة المباركة المقدسة من وطننا العربي ، وان كانت فلسطين مراحا وسراحا لليهود يوشك ان يقيموا فيها دولتهم ان لم ينهض العرب والمسلمون لطردهم قبل استفحال امرهم فيها ..» ويضيف المؤلف انه قـد اجتمع بالثعالبي ابان المؤتمر « ونحن نجاهد هذين العدوين : الاستعمار والصهيونية » .
المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٨٠) المنـار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٥ .
ويقول رضا انه من اجل التمهيد لراحة اعضاء المؤتمر والاقتصاد في نفقاتهم اتفق المجلس الاسلامـي مع اصحاب الفنادق على اسقاط قدر غير قليل من النفقة المعتــادة عنهم ، واتفق مـع اصحاب سيارات الركاب على نقلهم من الفنادق الى المؤتمر ومنه اليهـا او الى حيث شاءوا على حسـاب المجلس ، « بل احتمل المجلس جميع نفقة الفنادق عن بعضهم ».
كما يذكر رضا في المنار ج ٣ ، م ٣٢ ، ص ١٣٢ . ان اعضاء المؤتمر قد دعوا الى مـآدب تكريمفي القدس نفسها وفي يافا وفي ضواحيها « فكانت السيارات تجري بهم ارسالا وكان اهل القرىوالمزارع في طرقهم يجتمعون لتحيتهم والهتاف لهم ». قد نشرتصورة لاعضاء المؤتمر خلالالوليمة علىالطريقة العربية في اريحا (الشونة) في مجلة الهلال الجزء٣ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٣٢ .

(٨١) علقت صورة جمال الدين الافغاني في القاعة الرئيسة للمؤتمر وقد اقترح تقديم نسخة منالصـورة لكل عضو (مقررات المؤتمر الاسلامي في دورته الاولى القدس ص ٢٣) .

(٨٢) دروزة ، عزة . مذكـرات غير منشورة . تم الاتفاق بالترشيح والموافقـة على ان يكون الحاجرئيسا

للمؤتمر ومحمد علي علوبة وضياء الدين الطباطبائي ومحمد اقبال ومحمد زبارة (مندوب امام اليمن) وعزت دروزة ورؤوف مندوب سيلان وابراهيم الواعظ (العراق) والشيخ عبد القادر المظفر امناء للسر واحمد حلمي عبد الباقي امينا للمال والشيخ محمود الدجاني مساعدا لامين المال وشكري القوتلي ورياض الصلح مراقبين . ويشرح دروزة كيف ان النشاط الاقوى كان له لان المكتب جعل الشيخ المظفر مختصا بالعلاقة بينه وبين الناس وابراهيم الواعظ مختصا بحفظ الملفات وكان رسم رؤوف السيلاني شكليا لانه لا يحسن العربية ويضيف « فكنت انا يد الرئيس ولسانه والمشترك الاول في صياغة القرارات وتاليها وشارعها ومقررها » .

(٨٣) المنار ، جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٨ .

(٨٤) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٨٤) المصدر السابق، ويقول رضا « وقد دخل زهاء نصف الاعضاء في لجنة تنقيح القانون الاساسي للمؤتمر فكان اكثر الكلام في جلساتها لغوا جدلا باطلا » .

(٨٦) كان من بين الذين بعثوا برسائل الى المؤتمر : الملك فيصل ملك العراق ، عباس حلمي خديوي مصر السابق ، احمد حلمي الصباح أمير الكويت ، سلطان لحج ، مصطفى النحاس ، احمد شفيق باشا ، وزير خارجية ايران ، حمد الباسل ، عبد الوهاب عزام ، الامير عمر طوسون ، الامير شكيب ارسلان ، اهالي سومطرة ، الطلبة المراكشيين في باريس ، مسلمو بولونيا وفنلندا . غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن البلاغ ١٩٣١/٢/٨ ، السياسة ١٩٣١/١٢/٩ وادي النيل ١٩٣١/١٢/١١ . وكان من بين الرسائل الهامة التي تلقاها المؤتمر تلك التي وردت من مسجوني ثورة ١٩٢٩ من العرب الفلسطينيين جاء فيها « من اعماق السجون ، التي يسيطر فيها قوة المستعمر الغاشم ، يرتفع صوت مرحبا بكم ايها المؤتمرون الاباة ..» .
المصدر نفسه ، نقلا عن مصر ١٩٣٢/١/١٩ .

(٨٧) الغوري ، اميل ، ص ١٤٦ .

(٨٨) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٦ .

(٨٩) وكان قد عقد في يافا في تلك الفترة المؤتمر العربي الارثوذكسي الثاني للاشراف على انتخاب بطريرك عربي للطائفة الارثوذكسية خلفا للبطريرك اليوناني الذي توفي . صدقة ، نجيب ، ص ١٦٠ .

(٩٠) المنار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ، ص ١٩٩ .

(٩١) كان الامير سعيد الجزائري (حفيد عبد القادر ويعيش في دمشق) يتولى رئاسة جمعية الدفاع عن سكة الحديد الحجازية الاسلامية ووزع على المؤتمرين كراسة تاريخية سرد فيها تاريخ هذه السكة وجميع التطورات التي طرأت عليها . الهلال ، ج٣ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ص ٣٥٠ .

(٩٢) كان من بين المواد منشورا من بعض اهل مكة معاديا للملك عبد العزيز آل سعود .
FO 371/16009
وردت في مقال **Kupferschmidt, p.142**

(٩٣) المنار ج٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٩٤) كان مع رضا في اللجنة رضا توفيق (وزير المعارف في الدولة العثمانية) ومحمد عبد الرسول كاشف الغطاء (من علماء النجف الشرعيين) والشيخ محمد عبد اللطيف دراز (من علماء الازهر) وحسن ابو السعود (قاضي الرملة) واسعاف النشاشيبي (من ادباء فلسطين) .

(٩٥) يقول رضا في المنار ، ج ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ، ص ٢٠١ انه سجل نفسه في لجنة ثانية هي لجنة القانون الاساسي لاجل حضور بعض مواده واهمها عنده المادة الثالثة التي موضوعها تاليف

المؤتمر وقد قاوم فيها رأي الزعيم شوكت علي جعل المؤتمر (شعوبيا) كما اقترح في مؤتمر مكـة « وتقرر فكان افعل الاسباب في قتل ذلك المؤتمر واقترح مثل هذا في مؤتمر القدس ففند اقتراحه فلم يقبل » .

(٩٦) المنار ، جـ٤ ، م ٣٢ ، ابريل ١٩٣٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٧ .

(٩٧) اثار التقرير بعض الجدل بين اعضاء المؤتمر واتهم البعض رشيد رضابان التقرير وضع لتاييدمذهب الوهابية ، وافتتح رشيد رضا دفاعه عن التقرير بالاشارة الى ما يعرفه اكثر اعضاء المؤتمروغيرهم «من جهادي مدة ثلث قرن ونيف في سبيل جمع كلمة المسلمين على طريقة استاذي العصر وحكيميـه السيدجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ويشهد لي بذلك اكثر من ثلاثين مجلدا من مجلة المنار » . المنار ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٩٩) كانت جمعية الشبان المسلمين قد تاسست في القاهرة على يد مجموعة من الرجال المتديّنين ،وركزت على الامور الدينية والاجتماعية وحاولت ان تبتعد عن النشاط السياسي ، وقد جاء في نظـام الجمعية ان اهدافها : نشر القيم الاسلامية الدينية والخلقية . السعي لتنوير الشباب بالمعرفة وبطريقة تتلاءم مع روح العصر ، مقاومة العادات الشاذة والفاسدة التي يمكن ان توجد فيالاحزاب والجماعات ، اخذ كل ما هو مفيد من حضارات الشرق والغرب ونبذ كل ما هو ضـار . وانشـأ الاعضاء ناديا تلقى المحاضرات فيه حول موضوعات ثقافية واجتماعية وتجري فيه مختلف انـواع الرياضة والالعاب والموسيقى ، واصدرت الجمعية ١٩٢٩ مجلة تبشر برسالتها وافتتحت فروعا لها في فلسطين وسورية والعراق ولكن الجمعية المصرية المركزية وصحيفتها ذات الانتشار الواسع هي التي ارست التعاليم الاساسية للجمعية .وفي ١٩٣٠ عقدت الجمعية مؤتمرا في القاهرة رسـم خطوط نشاطها في المستقبل ، وكان اول رئيس للجمعية عبد الحميد سعيد عضو البرلمان والعضو النشط في الحزب الوطني .

Khadduri, Majid Political Trends in the Arab world, Johns Hopkins Press U. S. A. 1970, pp. 71 - 73 .

ويذكر الشقيري ان فكرة الجمعيات قد راقت لبعض الشباب في فلسطين بعد ان قام عبد الحميد سعيد بجولة في معظم مدن فلسطين داعيا الى تاسيس هذه الجمعيات شارحا اهدافها ومبادئهـا وكان من الحوافز على ذلك قيام جمعيات الشبان المسيحية في فلسطين وهي تحت رعاية السلطة. وقد قرر مؤتمر يافا تاسيس الجمعيات في كل انحاء البلاد « وحرصنا ان تظل الجبهة الوطنيـة في فلسطين الاسلامية المسيحية قوية متماسكة وبات مفهوما لدى الاوساط المسـيحية ان تأليف الجمعيات هو قوة جديدة للحركة الوطنية وليس انفصاما للجنة القومية » .

الشقيري ، احمد ، اربعون عاما في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ،ص ١١٠ — ١١١.

(١٠٠) مجلة ـ الشبان المسلمون ـ جزء ٤ سنة ثالثة ، يناير ١٩٣٢ ، ص ٢٣٦ — ٢٤٤ « كلمة جمعيـة الشبان المسلمين الىالمؤتمرالاسلاميالعام في بيت المقدس » .

(١٠١) يذكر رشيد رضا في المنار جـ٧ ، م ٣١ ، ص ٥٥٨ ، انه منذ الفترة التي سبقت عقد المؤتمـر اتفق الحاج أمينمعشوكتعليعلى السعي في العالم الاسلامي لانشاء مدرسة عربية اسلاميـة جامعة في القدس الشريف لتقوية الاسلام والعرب فيها تجاه الخطر الصهيوني والمدارس اليهودية في فلسطين.

(١٠٢) الهلال ، جـ ٣ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٣٢ ، ص ٣٥٠ .

(١٠٣) المصدر نفسه.

(١٠٤) كان كاشف الغطاء قد تعرض في خطابه الى الوحدة الاسلامية وطريقة نموها وقرر المؤتمر طبع خطبه وتوزيعها بكل اللغات ، وقد نشرتها اللجنة التنفيذية للمؤتمر ١٩٣٢ . غنيم ،عادل ، ص ١٢٩.

(١٠٥) ارسلان ،شكيب ، تعليق على حاضر العالم الاسلامي جزء ١ القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٠٦) اثيرت مشكلة لغة التدريس في الجامعة المقبلة ففي حين طالب شوكت علي ان يكون التدريس بكل اللغات الاسلامية ، عارضه الثعالبي وكثيرون والحوا ان تكون العربية هي لغة التعليم نظرا لان على كل مسلم ان يكون قادرا على التحدث بهذه اللغة . وارضاء لشوكت علي فقد قبل اقتراحه بتخصيص قسم خاص في الجامعة المقبلة لتعليم العربية للطلاب الذين ليس لديهم المام كامل باللغة على ان تقوم مدرسة روضة المعارف في القدس بدور هام في هذا البرنامج التعليمي، ولكن لغة القرآن هي اللغة الوحيدة الرسمية للجامعة . Gibb, p.106

(١٠٧) اشار الى ذلك دروزة ، عزة ، في مذكراته غير المنشورة وفي كتابه حول الحركة العربية ج ٣، ص ٨٠ ، ٨٧ .

(١٠٨) اعداد الجامعة العربية (القدس) م ن ١٣-١٦ ديسمبر / كانون اول ١٩٣١ وشارك في لجنة الاماكن المقدسة عدد كبير من الفلسطينيين منهم امين عبد الهادي ، حسن ابو السعود ، عزة دروزة وجمال الحسيني .

(١٠٩) غنيم ، عادل ص ١٢٧ ، نقلا عن الجهاد (القاهرة) ١٩٣١/١٢/١٣ .

(١١٠) اشار رضا في رسالة بعث بها من القدس اثناء انعقاد المؤتمر الى شكيب ارسلان في جنيف ، الى ان شوكت علي قد اتهم بانه من انصار الانكليز الغلاة في المسالة الهندية وغيرها وانه يحاول في المؤتمر منع التشنيع عليهم وعلى الفرنسيين والطليان المستعمرين وظهر منه هذا في المؤتمر فتحامل عليه الوطنيون بعض التحامل وفندوا بعض ارائه واقتراحاته .
ارسلان ، شكيب ، رشيد رضا واخاء اربعين عاما ، ص ٥٦٤ .

(١١١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١١٢) غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن المقطم ١٩٣١/١٢/١٧

(١١٣) غادر عزام القدس في حراسة بريطانية الى مدينة غزة ١٧ ديسمبر / كانون اول وترك هذا الابعاد اثرا سيئا في نفوس اهل فلسطين واعضاء المؤتمر واقيمت مظاهرات في بعض مدن فلسطين تحتج على هذا التصرف .
غنيم ، عادل ، ص ١٢٨ نقلا عن البلاغ ١٩٣١/١٢/١٨

(١١٤) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(١١٥) غنيم ، عادل ،ص ١٢٨ - ١٢٩ نقلا عن مقررات المؤتمر الاسلامي.

(١١٦) كان هناك تجاوب شعبي كبير للمشروع تجلى بسيل البرقيات والتبرعات التي بعث بها اهل فلسطين الى المؤتمر. الجامعة العربية .١٠و١٥ ديسمبر/كانون أول ١٩٣١ . وكانت القرارات التي تباها المؤتمر حول الجامعة تنص على ان تكون دينية وعلمانية في منهجها وان تقدم التعليم الثانوي والعالي معا للوقوف بوجه المدارس الثانوية غير الاسلامية ، كما تقرر ان ينفذ المشروع على مرحلتين تبدأ المرحلة الاولى بجمع المال اللازم ، وبعد ذلك يتقرر بالتشاور مع مجموعة من الخبراء امور تنظيمها من وجهة النظر التعليمية .

(١١٧) هو مشروع مصري تقرر ان يعد في مصر باشراف محمد علي علوبة ، وتعود فكرة المشروع الى عام ١٩٢٨ ، واعيد احياؤه في المؤتمر الاسلامي. الجامعة العربية ١٩٣١/١٢/١٢ .

(١١٨) لم تكن الفكرة جديدة الا ان القرار كان وراء الحملة التي سيتولاها المفتي ضد بيع الاراضي في

السنوات التالية . وقد لاقى مشروع انشاء الشركة دعما معنويا بالغا .
الجامعة العربية ، ١٩٣١/١٢/١٧ .

(١١٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٠) المصدر نفســه .

(١٢١) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، حول قرارات المؤتمر .

(١٢٢) المصدر نفسه .

(١٢٣) المصدر نفسه .

(١٢٤) المصدر نفسه .

(١٢٥) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٦) المصدر نفسه . كان من بين اعضاء اللجنة المفتي ، الطباطبائي ، محمد علي علوبة ، رشـيد رضا ، شكري القوتلي ، سعيد ثابت ، الثعالبي ، بشير السعداوي ، محمد المكي الناصري ، شوكت علي ، سعيد شامل ، عياض اسحاقي ، محمد زيارة ومندوبان عن فلسطين هما توفيق حماد وعوني عبد الهادي . المصدر السابق .

(١٢٧) المصدر نفسه .

(١٢٨) نويهض ، الحوت ، بيان ، ص ٨٧٤ ، نقلا عن الجامعة العربية ١٧ كانون اول ديسمبر ١٩٣١ .

(١٢٩) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .

(١٣٠) المصدر السابق ، ويقول دروزة انه كان من جملة نظام الجباية والتبرع بطاقات مطبوعة بخمسين ملا وقد وزعت مجلداتها في فلسطين في بدء الامر ، وبلغ المجموع منها في الشهر الاول نحو الفـي جنيه ، واهتم الحاج امين بتشجيع المشروع واستعان عليه بموظفي الاوقاف والوعاظ والقضـاة والائمة والمدرسين والخطباء.

(١٣١) لم يقاوم الانتداب وحده نفوذ الحاج امين في العالم الاسلامي فالدوائر الصهيونية احتجت على ذلك النفوذ وقاومته بشـدة ، وعبر الكاتب الصهيـوني (اتمار بن افي) في مقال له نشرتـه جريـدة (دوآر هايوم) ١٩٣١/١/١٢ عن حقده الشديد على النفوذ العالمي للحاج امين ، ودعا الى انشـاء مجمع ديني يهودي كبير في القدس يتالف من كبار حاخامي اليهود ، وهو ما يسـمي بالعبريـة (سنهدرين) أي الكنيس الاكبر ويرمي بن أفي من وراء السنهدرين الى اقامة مؤسسة دينية يهودية عالمية في فلسطين تقف في وجه المجلس الاسلامي الاعلى . نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٨.

(١٣٢) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٦٨ . وقد وجه رشيد رضا نقدا للمؤتمـر للطريقة التي اختارها لانتخاب اللجنة التنفيذية اذ انتخبت ٢٥ عضوا من اقطار بعيدة عن المركز (القدس) . واجتمع هؤلاء الاعضاء مرة واحدة في مساء اليوم الذي انتخبوا فيه وانتخبوا بضعـة اعضاء لادارة مكتب اللجنة من المقيمين في فلسطين وسورية ومصر ، ومضى على ذلك بضعة اشـهر ولم يجتمعوا ولم يتيسر للطباطبائي السكرتير العام (ومقامه في اوربة) العودة الى القدس الا بعد تلك المدة واكتفي في ادارة اعمال المكتب بمن يوجد في القدس من اعضاء . المنار ج ٧، م ٣٢ ، يوليو ١٩٣٢ ، ص ٥٥٥-٥٥٦.

(١٣٣) كان رأي رشيد رضا ان لا يسرع المكتب الان في جمع المال لانشاء المدرسة الجامعة بل يجب اولا ان يعني بوضع النظام والرسم الهندسي لبنائها ، وتقدير النفقات الدقيقة لها ثم يضع النظـام لجمع المال من جميع الاقطار الاسلامية التي يعلم ان لاهلها من الحرية مايمكنهم من البذل لمصلحة

الاسلام العامة . وقد لاحظ رشيد رضا ان لجنة الجامعة قد وافقت على البدء بثلاثة فروع من كلياتها : وهي الشرعية والصناعيةوالطبية واهملت الدعوة والارشاد والتي هي اهمها بنظره ، وجل مباحث المؤتمر كانت تدور حولها .المنار ، العدد السابق ص ٥٥٦-٥٥٧ .

(١٣٤) نويهض الحوت ، بيان ص ٢٤٦

(١٣٥) ابو يصير ، صالح مسعود، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ١٩٦٨ ص١٦١.

(١٣٦) المصدر نفسه .

(١٣٧) Lesch, P.104

(١٣٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، وكانت المنار قد تلقت من مكتب المؤتمر نداء الى مهندسي المسلمين بشأن جامعة المسجد الاقصى لوضع الخرائط والتصميمات وفق القواعد التي بينهاالمكتب والتي تتألف من ثلاث شعب في ابان انشائها شعبة العلوم الشرعية ، شعبة الفنون والصناعات، شعبة الطب والصيدلة .

(١٣٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٤٠) نويهض الحوت ، بيان ، نقلا عن يوميات خاصة اكرم زعيتر ٦ - ١٩٣١/١٢/١٦ .

(١٤١) FO 371/16854

وردت في مقال Kupferschmidt, p.141

وايضا Gibb, p.107

(١٤٢) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة

(١٤٣) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٢٦٩

(١٤٤) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٩ .

(١٤٥) عبر المجلس الاسلامي منذ ١٩٢٩ عن فكرة استنقاذ الاراضي بتحويلها الى وقف . وكانت ترد على المجلس بين حين واخر اقتراحات لتحويل الاراضي العربية الى وقف .

Erskins, Steuart, Palestine and the Arabs, London 1935 , p.141

(١٤٦) CO 733,311 - (75528/6)

وردت في مقال **Kupferschmidt,** p.157

من تاريخ سورية الحديث

العلاقات السورية ـ التركية ★

١٩١٨ ـ ١٩٢٦

د . عبدالكريم رافق

جامعة دمشق

١ ـ التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ ـ ١٩٢١) .

٢ ـ العلاقات السورية ـ التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) .

* * *

يتناول هذا البحث فترة من تاريخ سورية ، كانت ، على الرغم من قصرها ، بالغة الاهمية ، اذ شهدت تطورات مصيرية في تاريخ كل من سورية وتركيا ، في وقت حاولت فيه كل من الدولتين اعادة تنظيم بنيانها على أسس قومية وطيدة . ولكنهما جوبهتا بالمطامع الاستعمارية الاوربية ابان الحرب العالمية الاولى وفي اعقابها .

وكان من نتائج التدخل الاوربي بشؤون كل من الدولتين ازمات سياسية وقومية تركت اثارها في حياة كل من البلدين وفي العلاقات بينهما . وفي حين استعادت تركيا قوتها في فترة قصيرة نسبيا وبدلت في بنيتها السياسية والاجتماعية ، في عهد مصطفى كمال اتاتورك ، فان سورية وبلاد الشام ، بل الاقطار العربية بعامة ، قاست من

★ اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث للعلاقات العربية ـ التركية ، جامعة اليرموك ـ مكتب ارتباط عمان ، ٢٥ ـ ٢٧/٤/١٩٨٥ .

الاستعمار الاوربي الذي مزق اوصالها وفرط بحقوق اهلها ، وباراضيها التي أؤتمن عليها من قبل المجالس الدولية .

ونظرا لتشابك الاحداث القطرية والاقليمية والدولية في هذه الفترة الحاسمة ، فمن الضروري تفسير الاحداث على هذه المستويات المتعددة والمتداخلة .

١ ـ التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ ـ ١٩٢١) .

ادرك الاتحاديون الاتراك ، في الاسابيع الاخيرة من حكمهم في سورية ، قرب خسارتهم الحرب وخروجهم من سورية ، فحاولوا الاتصال بالوطنيين السوريين ، في الداخل وفي الخارج ، لاجراء المصالحة معهم ومنحهم حقوقهم القومية . وارسلوا في صيف عام ١٩١٨ وفدا يمثل دمشق وبيروت ، يضم رضا الصلح ورضا باشا الركابي وسليم سلام وفارس الخوري ، الى سويسرا للاتصال بالعرب المطالبين بالاستقلال . وكانت الحركة الوطنية العربية على مفترق طرق تحاول كل من بريطانيا وفرانسا ، وحتى تركيا التي انهكتها الحرب ، ان تشدها باتجاهها . وحدث انقسام في الرأي بين العرب ، تدل على ذلك الرسائل التي وجهها احمد مختار الصلح من القاهرة في ٢٩ اب ١٩١٨ الى اعضاء الوفد هؤلاء ، يذكرهم فيها بدعم بريطانيا للعرب ويندد بمساوىء الاتحاديين وبالحادهم ، وبان الاسلام لن يتأثر من انهيارهم ولكنه سيتأثر من انهيار العرب(١) . ولم تجد محاولات الاتحاديين هذه في ثني العرب عن رايهم ومطالبتهم بالاستقلال .

وفي اعقاب الهزيمة العسكرية التي منيت بها تركيا وحليفتها المانيا ، على ايدي العرب والحلفاء ، انسحب الاتراك من دمشق في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ، ومن حلب في ٢٥ تشرين الاول . ووقعت تركيا الهدنة مع الحلفاء في مودرس ، في جزيرة لمنوس ، في ٣٠ تشرين الاول ، واتمت انسحابها الكامل من سورية في ١٢ تشرين الثاني بعد ان اخلت منطقة دير الزور(٢) . وتسلمت القوات العربية التي ارسلها الشريف حسين بقيادة ابنائه ، وعلى راسهم الامير فيصل ، الحكم في سورية بمساندة القوات البريطانية .

ومن الطبيعي ان تثار مساوىء الحكم التركي ، وبخاصة سياسة القهر والتتريك والتجنيد التي اتبعتها جماعة الاتحاد والترقي ، واعدام جمال باشا شهداء العرب في عام ١٩١٦ ، لتمكين الحكومة العربية من تأليف الناس من حولها . وحدث انقسام في صفوف السوريين ، بين ما عرف بطبقة الذوات القدامى التي خشيت على مصالحها ان تتهدد من دعاة الاستقلال فعارضت حكومة فيصل العربية ، والوطنيين الشباب الذين

ايدوا الامير فيصل لتحقيق الاماني العربية في التحرر والاستقلال . وانقلب الذوات هؤلاء فيما بعد الى مؤيدين للحكم الفرنسي الذي انهى حكومة فيصل العربية للحفاظ على امتيازاتهم(٣) .

والى جانب هذا الازدواج في الولاء حدثت ازدواجية في السلطة. فالحاكم العسكري العام للمنطقة الشرقية ، الخاضعة للنفوذ البريطاني ، كان رضا باشا الركابي الذي كان مركزه دمشق . وهو من اعيان هذه المدينة ومن كبار الملاك فيها ، وقد عينه في هذا المنصب الجنرال البريطاني اللنبي القائد العام للقوات الحليفة في الشرق الاوسط، وجعله مسؤولا مباشرة تجاهه . وبالمقابل ، كان هناك الامير فيصل ، ممثل والده الشريف حسين ، والقائد العام للقوات العربية العاملة في المنطقة الشمالية . وقد اعترف فيصل بحكومة الركابي كاول حكومة عربية في سورية . ولكن الركابي بقي يخضع للنفوذ البريطاني الى ان تم الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني في ١٥ ايلول ١٩١٩ القاضي بجلاء الجيوش البريطانية من سورية وكيليكيا واحلال الجيوش الفرنسية مكانها ،مقابل تنازل فرنسا عن المطالبة بمنطقة الموصل والتخلي عن شرقي الاردن لبريطانيا . وتازمت العلاقات ، في اعقاب ذلك ، بين الامير زيد ، ممثل فيصل في سورية ، وبين الركابي الذي عارض مقترحات الامير زيد بالاعداد للدفاع الوطني ضد الفرنسيين . فاستقال هذا الاخير في ١٠ كانون الاول ١٩١٩(٤) . واصبحت المبادرة السياسية اثر ذلك في يد فيصل .

وكان فيصل ، ازاء معارضة بعض الفئات له ، والازدواجية في السلطة مع بريطانيا ، وخطر التآمر الفرنسي ـ البريطاني ، حريصا على عدم الامعان في استثارة الاتراك ومؤيديهم في الداخل . لذا هاجم حكم الاتحاديين حين وجب ذلك ، كما فعل في حلب ، حين القى خطابا فيها في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، بين فيه جهود والده لانقاذ العرب من الحكم التركي الفاسد ، وعرض بالاتحاديين الاتراك ، وبسياستهم تجاه العرب ، وبتنكيلهم بالاحرار واعدامهم الشهداء . وعلق بعض المراقبين انه لم يصدر عن فيصل مثل هذا التعريض لا في دمشق ولا في حمص او حماه ، ولكنه فعل ذلك في حلب ردا على ما « كان يأمله الاتراك من مناصرة الحلبيين لهم لدى انسحابهم ، استنادا لصلة القربى مع بعض الاسر البارزة في حلب ولوجود اقليات تركية في بعض اقضيتها الواقعة على الحدود » (٥) .

ولم تكن تركيا ، من ناحيتها ، في وضع يسمح لها بمعاداة العرب . فقد كانت مهددة ، في عقر دارها ، باحتلال الدول الاوربية لاراضيها وبالانقسام الشديد بين

الحكومة الاتحادية المهزومة التي يرأسها السلطان ـ الخليفة ، والوطنيين الاتـراك . بزعامة الضابط مصطفى كمال ، الذين يرفضون الخضوع للاحتلال الاوربي ويدعـون لاقامة حكم وطني ثوري .

وقد سيطر الحلفاء ، في اعقاب هدنة مودرس ، على العاصمـة استانبول في ٨ كانون الاول ١٩١٨ ، واحتل البريطانيون كيليكيا ، بعد احتلال سوريـة . وتوغل الفرنسيون ، بعد احتلالهم الساحل السوري ، بما في ذلك الاسكندرونة وانطاكية ، في منطقة اضنة باتجاه كيليكيا . وانزلت ايطاليا قواتها في نيسـان ١٩١٩ في انطاليـا ، بموجب الاتفاقيات السرية بين الحلفاء . وكـان السلطان ـ الخليفـة العثماني منشغلا آنذاك بملاحقة اعدائه من جماعة الاتحاد والترقي . واستثار الاتراك، اكثر من كل شيء، احتلال جيش يوناني لمدينة أزمير في ١٥ ايار ١٩١٩ ، بحماية من قوات الحلفاء ، وبدأت تتراءى مخاطر احياء احلام اليونان القديمة وبيزنطة . وتركزت انظار الوطنيين الاتراك على شخص مصطفى كمال الذي انسحب مع القوات التركية والالمانية من سورية . وقـد رفض السلطان طلبه باعادة تنظيم الجيش الذي اصدر امرا بحله . ومع ذلك تمكـن مصطفى كمال من تنظيم بقايا الجيش في الاناضول ، ودعوة الوطنيين للالتفاف من حول ميثاق وطني ، واقامة مجلس وطني كبير في انقرة في نيسان ١٩٢٠ ، ثم مجلس وزراء في الشهر التالي متحديا بذلك حكومة السلطان في استانبول . وقد تعرض السلطان الى نقمة كبيرة بتوقيعه مع الحلفاء معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠ التي اقرت مكاسـب الحلفاء في تركيا .

وتمكن مصطفى كمال من استغلال النقمة على السلطان وعلى الدول الاوربيـة فهزم اليونانيين في اول موقعة كبرى معهم عند نهر سقاريا في آب ١٩٢٠ ، واستحق بذلك لقب « غازي » (٦) . واضطرت الدول الكبرى ان تعترف بحكومته في انقرة★ .

★ عقدت ايطاليا في ١٣ اذار ١٩٢١ اتفاقية مع حكومـة مصطفى كمـال سحبت بموجبها قواتها مـن الاناضول ، وعقد معها السوفيات اتفاقية في ١٦ اذار ١٩٢١ . وكان الفرنسيون قد وقعوا معها اتفاقيـة هدنة في لندن في ١١ اذار من العام نفسه اتبعوها باتفاقية شاملة في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ تخلوا بموجبها عن معظم امتيازاتهم التي منحتهم اياها معاهدة سيفر . وهزم مصطفى كمال اليونانيين واجلاهـم عن الاناضول في ايلول ١٩٢٢ ، وبذلك استعاد كافة مناطق الاناضول من سيطرة الدول الاوربية . واضطر البريطانيون في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢ الى عقد هدنة مودانيا مع حكومة مصطفى كمال تخلوا بموجبها عن استانبول والمضائق وتراقيا الشرقية . وتأكدت هذه الانتصارات التركية في معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣. وكان مصطفى كمال قد صمم على الغاء السلطنة والاحتفاظ بالخلافة كمرحلة اولى . وتم ذلك في الاول من تشرين الثاني ١٩٢٢ ، وهرب السلطان محمد الرابع وحيد الدين ، وعين عبد المجيد خليفـة . وانتخـب مصطفى كمال رئيسا للجمهورية في ٩ أب ١٩٢٣ بعد ان نقل مقر الحكومة الى انقرة . والغيت الخلافة في ٣ اذار ١٩٢٤ ،واطيح باسرة عثمان (٧) .

وكان الحكم العربي الفيصلي يرسخ قواعده في بلاد الشام ، في اعقاب انسحاب الاتراك منها ، مؤكدا على زعامة الشريف حسين للحركة العربية وللمسلمين . واطلق رسميا في دمشق على الشريف حسين القاب سلطان العرب وخليفة المسلمين ، وكذلك ملك العرب . وصدرت الاحكام في محكمة الحقوق الاولى بدمشق باسم الحسين وبالقابه هذه (٨) . واعتمدت سجلات محكمة البداية بدمشق تاريخ ابتداء قيام الدولة العربية بانه في غرة محرم ١٣٣٧/ (٧ تشرين الاول ١٩١٨) ، وبدأ ترقيم القضايا في هذه المحكمة برقم جديد (رقم ١) اثر ذلك ، كما استخدمت العربية محل التركية في السجلات(٩) .

ولم يؤثر انسحاب القوات التركية من سورية على نشاط السوريين والعرب المقيمين في استانبول والذين كانوا يعملون لاستقلال الاقطار العربية . وما ان سمع هؤلاء بخبر نشرته صحيفة « التايمز » اللندنية في ١٩ ايار ١٩١٩ حول منح بريطانيا « الامة العربية » استقلالها ، حسب تعبيرهم ، حتى توجه وفد منهم برئاسة نجيب ملحمة وعضوية رشدي الصفدي وعبد الرحمن العابد من دمشق ، واحسان الجابري من حلب ، وروحي عبد الهادي من نابلس ، الى مقر المفوض السامي البريطاني في استانبول يشكرون فيه ملك بريطانيا وحكومتها على هذه البادرة . وقد اربك هذا التفاؤل العربي المسؤولين في المفوضية لانه لا علم لهم بأي قرار من هذا النوع ، وربما كان ذلك للتذكير (١٠) .

ان عنف الاحداث التي شهدتها تركيا في هذه الفترة لم يصرفها عن الاهتمام باحداث سورية سواء في عهد فيصل ام في عهد الانتداب . وفي الواقع ادى احتلال الحلفاء لاجزاء كبيرة من سورية وتركيا واستمرار قواتهم في توسيع عملياتها ، وبخاصة تصميم الفرنسيين على احتلال سورية بكاملها ، الى التقارب بين المسؤولين في البلدين الى حد الدعم العسكري . وتحدثت الانباء عن عقد اتفاقية سرية بين الامير فيصل ومصطفى كمال في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ بوساطة متصرف الكرك اسعد بك . وكان اسعد بك هذا عضوا في جمعية الاتحاد والترقي . ونقل نص الاتفاقية بالفرنسية دون الاشارة الى اللغة التي كتبت بها الاتفاقية في الاصل .

تتألف الاتفاقية من تسعة بنود يذكر اولها ان الطرفين المتعاقدين ، الامة التركية والامة العربية ، يشهدان بكل اسف انقسام العالم الاسلامي ، وان واجبهما رأب الصدع وتاكيد التعاون بين الامتين اللتين تربطهما المصالح المادية والروحية والدينية. وان على الامتين التعاضد والدفاع بقواتهما الموحدة عن الدين والوطن . وجاء في المادة الثانية انه في هذه اللحظة التي يتهدد فيها استقلال العرب ووحدة وحرية الاتراك ،

بسبب رغبة الدول الاجنبية ان تقتسم فيما بينها العراق وفلسطين وسورية وما جاورها ، بالاضافة الى جزء كبير من اسيا الصغرى ، فقد عزمنا غداة انعقاد مؤتمر الصلح في باريس واصداره قرارا بشأننا ، على اعلا ن الجهاد المقدس للدفاع عن الدين والوطن . ولبلوغ هذا الهدف فان الطرفين المتعاقدين يتفقان على البنود التالية :

البند الثالث (حسب تسلسل بنود الاتفاقية) : لايمكن للطرفين المتعاقدين قبول تقسيم الامبراطورية التركية والبلاد العربية (Arabie) او احتلالها من قبل القوى الاجنبية .

البند الرابع : تعترف الحكومة العثمانية رسميا بتشكيل حكومة عربية تنضم اليها الحجاز و (Médome) ★ والعراق وفلسطين ودمشق وبيروت وحلب ، شريطة ان ترتبط البلاد العربية بالامبراطورية العثمانية وان تبقى مخلصة للخلافة . وتقبل الحكومة العثمانية وتصادق على سلطة الشريف حسين على هذه البلاد باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل حول شكل الحكومة والقضايا الاخرى التي ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

البند الخامس : في المناطق التي يحتلها جيش الشريف سيذكر اسم السلطان من منابر الجوامع وسيعترف بخلافة السلطان من جديد ويعلن ذلك .

البند السادس : لكي يبدأ الجهاد المقدس وتتأكد وحدة الاتراك فان صاحب السمو الشريف يوجه بيانا ، بلغة تتناسب والاوضاع ، في كل البلاد العربية شارحا لها الموقف العدواني للقوى الاجنبية تجاه الدين الاسلامي . وللبدء بالجهاد المقدس يجمع الشريف حسين جميع شيوخ وزعماء القبائل العربية ويعقد معها اتفاقيات ومعاهدات. وينظم الشريف جيوشا وطنية مماثلة للتنظيمات الوطنية في الاناضول بشكل تكون فيه هذه القوى ، عند اعطاء الاشارة، جاهزة تماما للمساهمة مباشرة في الجهاد المقدس .

البند السابع : يتعهد الشريف ، بمساعدة القوى الوطنية في الاناضول ، بجمع قواته المتوافرة وغير المشتغلة بمهام اخرى ، ويتعهد الطرفان المتعاقدان بالتعاون المتبادل ، ماديا ومعنويا ، في الهجوم كما في الدفاع ، حتى تحقيق هدفهما .

البند الثامن : يعلم الشريف بمضمون هذه الاتفاقية ليس فقط عرب الحجاز

★ لا يعرف معناها بدقة . واذا كانت (Médone) فهي مديان ، وتعني باللغة السامية شرقي الاردن .

وزعماء القبائل ولكن ايضا الامام يحيى والسيد ادريس والمسلمين في بنغازي ومراكش وتونس والجزائر والهند ، ويبذل جهوده ليجعل هؤلاء يساهمون في الانتفاضة العامة. ويتعهد الشريف ان يتخذ في الحال جميع الاجراءات التي لابد منها لتحقيق هذا الهدف .

البند التاسع : كتبت هذه الاتفاقية على نسختين وقعتا وتبودلتا في حلب في ١٦ حزيران ١٩١٩ بوساطة اسعد بك متصرف الكرك . ويلي ذلك اسم مصطفى كمال من اليسار ثم اسم الشريف فيصل .

يصف تقرير المخابرات البريطانية في استانبول الموجه الى هيئة الاركان العامة البريطانية فيها ، بتاريخ ٣ اب ١٩١٩ (رقم ٥٣٧) ، المعطوف على تقرير سابق بتاريخ ٢٤ من الشهر السابق (رقم ٥١٧) وعلى غيره من التقارير ، يصف هذه الاتفاقية ، التي يورد نصها بكامله بالفرنسية ، بانها « مزعومة » ، ويقول ان النص الفرنسي هو ترجمة ولكن لا يذكر باية لغة كتب النص الاصلي . ويذكر ان المخابرات حصلت على النص الفرنسي بواسطة عميل حصل عليه بدوره من موظف في مكتب المراسلات الخاصة في وزارة الداخلية التركية ، وقد وصلت نسخة النص الى هذه الوزارة من والي ارضروم . أما النص الاصلي فيقول التقرير انه حمله الى استنبول الجنرال كجك جمال باشا (جمال باشا الصغير) الذي رفعه الى السلطان . وكان هذا الجنرال يعمل مع مصطفى كمال في قونية . ويضيف التقرير ان نسخة اخرى من هذه الاتفاقية قد شريت لحساب السلطات الفرنسية بمبلغ مائة وخمسين ليرة تركية على يد ارمني هو الدكتور طوبجيان . ويذكر أيضا ان مصطفى كمال كان قد تلقى اوامر من وزير الحربية ومن غيره في الوزارة بالوصول الى اتفاق ما مع العرب لمقاومة الاحتلال الاجنبي بتشكيل عصابات من الثائرين وانه بناء على هذه التعليمات وقع الاتفاقية مع فيصل . ويقول التقرير انه لم يمكن الحصول على معلومات اخرى للتأكد من صحة نسخة الاتفاقية ، أي النسخة الفرنسية(١١) . ويقول تقرير بريطاني اخر بتاريخ ٢٤ تموز ١٩١٩ ان مفاوضات كانت تدور بين الامير فيصل والسلطان ، بوساطة اسعد بك وكجك جمال باشا ، حول اقامة حلف اسلامي ـ تركي ، وان الامير فيصل بعث برسالة الى السلطان الذي ناقشها في اجتماع وزاري بتاريخ ٢١ تموز ١٩١٩ وارسل جوابا عنها الى فيصل (١٢) .

لم يكن الاتصال وارسال الوفود وحتى عقد الاتفاقيات بين الحكومة العربية في سورية والحكومة التركية منعدما . فقد ذكر سعيد حيدر ، احد مؤسسي جمعية الفتاة والكاتب العام انذاك لحزب الاستقلال العربي انه ذهب في وفد رسمي من دمشق

الى استانبول عام ١٩٢٠ ، وقابل ممثلي مصطفى كمال ووضع اتفاقا وديا من اربع نقاط بين الطرفين رفع لموافقة الحكومة السورية . ويتضمن الاتفاق تعديل الحدود ، وبخاصة في منطقة الموصل ، وتشكيل جبهة موحدة ضد الاعداء ،من معان الى البحر الاسود ، ووضع الجيوش التركية والعربية تحت قيادة موحدة . وفي حال نجاح الطرفين ضد القوى الاجنبية فسيعيش العرب والاتراك في دولتين مستقلتين وتكون علاقتهما كما في الامبراطورية النمساوية ــ الهنغارية قبل الحرب . ويذكر سعيد حيدر انه عندما عاد الى دمشق في نيسان ١٩٢٠ كان الوضع قد تغير ورفض فيصل (الذي اصبح ملكا مستقلا) الدخول في مفاوضات مع تركيا . وعندما غير رايه في تموز ١٩٢٠ كان الاوان قد فات (١٣) .

وعلى هذا فالاتصالات بين فيصل والسلطان والاتفاقية بين فيصل ومصطفى كمال ، ان صحت ، لم تكن الوحيدة في اثناء قيام الحكومة العربية في دمشق ، ولا الاخيرة . ولكن مما يلفت النظر ان ايا من الكتابات العربية المعاصرة للاحداث او مذكرات السياسيين المعاصرين لم تذكر الاتفاقية ، ربما لكونها سرية . ويلاحظ ان تشجيع الثورات ضد الفرنسيين ، في سورية والاناضول ، ومدها بالدعم ، كما نصت الاتفاقية في البند السادس ، قد نشط بعد تاريخ الاتفاقية ، واعلن الثوار السوريون الجهاد على الفرنسيين ، وترقب الدعم من تركيا وشغلوا قسما كبيرا من القوات الفرنسية التي كانت ستتوجه ضد الاتراك ، كما نشطت الدعوات الى الجهاد المقدس في المدن السورية والتركية ، ونشرت بيانات موجهة من مصطفى كمال الى السوريين بضرورة التعاون وذلك بعد تاريخ الاتفاقية . واذا كانت قد حدثت اتصالات اخرى واعد مشروع اتفاقية بين الجانبين ، كما روى سعيد حيدر ، فان اتفاقية فيصل ــ مصطفى كمال قد نصت في بندها الرابع على ان القضايا الاخرى ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

والجدير بالذكر أيضا ان الامير فيصل سافر من دمشق الى حلب في ٩حزيران ١٩١٩ حيث القى خطابا في ناديها العربي(١٤) . والمعلوم ان اتفاقيته مع مصطفى كمال تذكر انها وقعت في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ .وقد اشار القنصل الامريكي في حلب الى قيام اتصالات بين مصطفى كمال وفيصل ، والى طلب فيصل دعم تركيا ، ملمحا الى امكان اقامة اتحاد بين سورية والحجاز وتركيا ، وان ملك الحجاز ارسل وفدا الى السلطان للمصالحة والاتحاد في ظل الروابط الدينية والسياسية(١٥) .

وقد تتالت علائم التعاون العربي التركي بعد الاتفاقية « المزعومة » ، على المستويين السياسي والعسكري . فعلى المستوى السياسي كثرت تصريحات

المسؤولين الاتراك وتوجهاتهم الى عواطف العرب الدينية للوقوف معا في وجه الاستعمار الاوربي . ومن الطبيعي ان تكون مدينة حلب مركزا هاما لهذا النشاط السياسي . وكمثال على ذلك تصريح وجهه مصطفى كمال الى السوريين ، بواسطة مؤيديه (ربما حزبه) في حلب ، في حوالي ٩ تشرين الاول ١٩١٩ . وقداهاب مصطفى كمال بالسوريين ان يصغوا الى صوت امة حزينة يتحكم فيها الاستبداد ونوايا الاعداء الشريرة . وينبه مصطفى كمال الاهلين ، كاخ في الدين ، الا يأخذوا بالصراع الذي فرق بيننا ، ويدعوهم لازالة كل سوء فهم بين الطرفين ، وتسديد السلاح معا ضد الاحزاب الخائنة التي تود التفريق بين البلدين . ويهيب بهم الا يصغوا الى وعود اعداء الدين الملحدين . ويستثير مصطفى كمال العاطفة الدينية بدعوته لانقاذ البلاد والاسلام من ايدي الاعداء ، ويشير الى انتصاراته في قونية وبروسه ، وان المجاهدين الاتراك سيؤيدون اخوانهم العرب ويمزقون الاعداء . ويختم البيان بالدعوة الى العيش كاخوان في الدين وبالتمني بزوال الاعداء(١٦) .

ووزع في حلب ، في النصف الاول من تشرين الاول ١٩١٩ ، بيان بالتركية يبين مطالب الاتراك ورفضهم الحكم الاجنبي ، وتعهدهم بحماية الاهالي بقطع النظر عن الدين . ويشير البيان الى حب المسلمين للسلطان والي احقية الاتراك بالخلافة (١٧) .

وكانت تصل حلب تباعا رسائل من قبل مصطفى كمال موجهة الى زعماء العرب والاتراك والبلاشفة تحضهم على توجيه الجهود ضد القوى الاوربية . وكانت حلب مركزا رئيسيا لنشر الدعايات العربية والتركية والبلشفية وغيرها ضد الانكليز والفرنسيين في سورية والعراق ، وضد الانكليز في الهند(١٨) .

وفي محاولة من حكومة فيصل العربية ، في الاسابيع الاخيرة من وجودها ، لتجنيد كافة القوى لمجابهة الخطر الفرنسي المحدق ، وصل يوسف العظمة ، وزير الحربية في حكومة هاشم الاتاسي ، التي شكلت في ٨ ايار ١٩٢٠ ، الى حلب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٢٠ ، واجتمع بقائد القوات الوطنية التركية العاملة في كيليكيا ، في قرية ترجمان ، قرب كلس ، لتنسيق الجهود العسكرية . ولم تقترن هذه الزيارة بالنجاح نظرا للتحسن الذي حصل انذاك في العلاقات بين الاتراك والفرنسيين والذي وصل الى حد الاتفاق ، في محاولة من الاتراك لاستخدام الفرنسيين ضد القوى الاوربية الاخرى (١٩) .

وحضر فيصل بنفسه الى حلب في ١٥ حزيران ١٩٢٠ ، واشيع انه سيغادر الى دير الزور في اليوم التالي . ولكنه الغى سفره الى هناك ، وحاول الاتصال بالاتراك في

محاولة منه للحيلولة دون الاتفاق بينهم وبين الفرنسيين . وقيل انه فشل في ذلك . واعلن انه سيعود الى دمشق في ٢٠ حزيران(٢٠) . ومع ذلك ظل الملك فيصل ، حتى الايام الاخيرة من حكمه فيسورية ، يدعم الاتراك في نضالهم ضد الفرنسيين . وعارضت حكومته استخدام الفرنسيين سكة حديد رياق ـ حلب لنقل الجنود والعتاد الى الشمال باتجاه اورفه وكلس وعنتاب . ويقول ساطع الحصري ، وزير المعارف انذاك ، ان موقف حكومة فيصل هذا ساعد الاتراك مساعدة ثمينة وازعج الجنرال غورو الى درجة كبيرة . وكانت هذه القضية موضوع البند الاول في الانذار الذي وجهه غورو في ١٤ تموز ١٩٢٠ الى فيصل واحتل دمشق في اعقابه . وحتى بعد مغادرة فيصل سورية ارسل الحصري الى تركيا للاتصال بالكماليين لتنسيق الجهود معهم(٢١) .

وكان الملك فيصل قد ابدى استياءه ، في الاشهر الاخيرة من حكمه في سورية ، من ازدياد النفوذ البلشفي على حكومة مصطفى كمال وانتقال هذا النفوذ ، اما مباشرة او عن طريق الاتراك ، الى سورية ، مما اغاظ ايضا بريطانيا لانه كان موجها ضدها بصورة خاصة . وقد ارسل فيصل في ربيع عام ١٩٢٠ عدة رسائل الى اللنبي ، الذي كان المفوض السامي في مصر انذاك ، يبين له مدى تفشي النفوذ البلشفي في المنطقة . وابلغت لندن بهذه الرسائل بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٢٠ . وضمت احدى رسائل فيصل بيانابلشفيا بالعربية مؤرخا في ١٣ ايار ١٩٢٠ يهاجم الانكليز ويشير الى هزائمهم على ايدي الروس والى انتفاض الهنود ضدهم ، ويذكر مساعدة روسيا للشعوب الاسلامية ، ويعرض على هذه الشعوب ، تركية كانت ام عربية أم هندية أم فارسية ، مساعدتها في الثورة لتستخلص حقوقها ، وان روسيا حشدت ثلاث فرق من البلاشفة المسلمين على حدود ارمينيا لهذا الغرض . وفي احدى رسائل فيصل الى اللنبي بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٠ اشار الى ان الهدنة مع تركيا وجهت انظار شعبنا الى مصطفى كمال . ولكن التدخل البلشفي ، بواسطة الاتراك ، الذي وصفه فيصل بالخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية ، جعله يعطل بعض الصحف اليومية فيسورية التي كانت تروج له وان يبعد بعض الافراد الذن كانوا على استعداد للسير تحت راية الاتراك ـ البلاشفة(٢٢) .

استغلت حكومة مصطفى كمال ، من ناحيتها ، النفوذ البلشفي وتزويد البلاشفة السوفيات لها بالسلاح ، وتتويج ذلك ، فيما بعد ، بعقد اتفاق بين البلدين في ١٦ اذار ١٩٢١ ، في مجابهة الاحتلال الاجنبي لاراضيها وفي مواجهة القضية الارمنية . واصبح النفوذ البلشفي عنصرا جديدا في العلاقات بين الاتراك والسوريين سواء في المجال السياسي ام العسكري . واخذت بالظهور بوادر المطامع التركية في منطقة حلب وفي شمال سورية بصورة عامة . وشهدت سورية ، وبخاصة حلب ، نشاطا بلشفيا قويا

من خلال الاتراك ، في الحقبة التي اعقبت احتلال الفرنسيين لسورية واستئناف القتال بينهم وبين الاتراك في كيليكيا .

وقد وصل الى حلب في اول تموز ١٩٢٠ ضابطان تركيان متخفيان واشاعا ان مصطفى كمال يعد حملة على حلب ، وان تفاهما يسود العلاقات بين السوفيات ومصطفى كمال ، وانه تلقى منهم السلاح والدعم(٢٣) . وذكر في ١٣ كانون الاول ١٩٢٠ ان منشورات بلشفية بالعربية ، تحمل توقيع لينين ، موجهة الى سكان حلب ، قد وزعت في حلب على مقربة من المكتب السياسي الفرنسي . وهي تحذرهم من الاستعمار الفرنسي وتنصحهم بتبني البلشفية كوسيلة لمقاومة الفرنسيين(٢٤) . وفي ١٨ كانون الاول علقت في حلب ملصقات مكتوبة بالعربية وبالتركية تتضمن تحذيرا للسكان من الفرنسيين ، وتحضهم على الثورة وطرد الفرنسيين خلال عشرة ايام واذا لم يستطيعوا ذلك فليبقوا على الحياد ويتركوا الامر للاتراك . ولم يعرف مصدر هذه الملصقات ولكن قيل انها صادرة عن مقر مصطفى كمال وروجها عملاؤه في حلب(٢٥) .

واكب الاهتمام التركي بسورية ، على المستوى السياسي ، تقديم الاتراك المساعدة للثائرين على الحكم الفرنسي في سورية على المستوى العسكري . وافاد الطرفان ، العربي والتركي ، من ذلك ، لان الثائرين السوريين شغلوا قوات فرنسية كبيرة كان من الممكن ان تدعم القوات الفرنسية العاملة ضد الاتراك في كيليكيا . والعكس صحيح ايضا .

نشبت في سورية عدة ثورات ضد الفرنسيين منذ ان بدأ هؤلاء باحتلال الساحل السوري ، اي المنطقة الغربية ، وبالتوسع باتجاه الشرق والشمال . ولم تتوقف الثورات باستيلاء الفرنسيين على جميع المدن السورية وعلى قسم كبير من البلاد بل ازدادت شدة مع مرور الزمن . وما يهمنا من هذه الثورات الموجة الاولى منها التي قامت بين ١٩١٨ وصيف عام ١٩٢١ . وقد اصيبت هذه الثورات بضربة كبيرة في اعقاب اتفاقية الهدنة التي وقعت في لندن بتاريخ ١١ اذار ١٩٢١ بين الفرنسيين والاتراك والتي أوقف الاتراك بموجبها دعمهم للثوار السوريين(٢٦) . وتلت ذلك الاتفاقية الفرنسية التركية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ التي انسحبت بموجبها القوات الفرنسية من كيليكيا ، مما مكن الفرنسيين من تركيز وتكثيف قواتهم ضد الثائرين السوريين .

ولا يتسع المجال هنا لتحليل هذه الثورات★ ، لان الهدف هو تسليط الضوء

★ انظر دراستنا حول تحليل هذه الثورات ، بابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في بحثنا بالانكليزية بعنوان : الاقتصاد والمجتمع والسلطة السياسية في سورية ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ ، الذي القيناه في الندوة الدولية حول ((الشرق الاوسط في فترة ما بين الحربين ـ تفاعل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي)) التي نظمها معهد التاريخ الاوربي في باد هومبورغ بالمانيا ، في اب ١٩٨٤ . البحث قيد النشر بالانكليزية وبترجمة الى الالمانية .

على العلاقات السورية ـ التركية من خلالها . وتبرز في هذا المجال ثلاث ثورات شغلت منطقة الساحل بدءا من بانياس جنوبا وحتى الاسكندرونة شمالا بما في ذلك الجبال المحاذية لها ، ثم المنطقة الشمالية بين حارم وكفر تخاريم وادلب شمالا وجبل الزاوية وجسر الشغور جنوبا وقضاء صهيون في منطقة اللاذقية غربا ، ثم معرة النعمان واطراف حماه شرقا . وكان اقل الثائرين شانا ، من الناحية العسكرية ، صبحي بركات الذي ثار في منطقة الاسكندرونة ـ انطاكية ، وكان على اتصال مع الاتراك . واكبر الثائرين شانا في هذه المناطق الزعيمان ابراهيم هنانو قائد ثورات المنطقة الشمالية والشيخ صالح العلي قائد ثورة الساحل وجبال العلويين . وقد تراس هنانو اربع ثورات في المنطقة الشمالية : الاولى في منطقة انطاكية ، المعروفة بالقصير ، حيث تزعم الثائرين يوسف السعدون في اعقاب مصالحة صبحي بركات مع الفرنسيين ، والثانية في منطقة صهيون ، ومركزها الحفة ، حيث تزعم الثائرين الصهاونة عمر البيطار ، والثالثة في جبل الزاوية وتزعمها مصطفى الحاج حسين ، والرابعة في منطقة كفر تخاريم وتراسها نجيب عويد . وكان هنانو القائد الاعلى لهذه الثورات التي عرفت بمجموعها بالثورة الهنانية .

وكان هناك اتصال وثيق بين هؤلاء الثائرين والحكومة العربية برئاسة فيصل . فقد عهد رشيد طليع محافظ حلب ، الذي يمثل الحكومة العربية ، الى صبحي بركات وابراهيم هنانو بتزعم ثورات انطاكية والشمال ، على التتالي ، في محاولة لتنظيمها وتوجيهها الوجهة الوطنية الصحيحة . وظهرت في ثورات انطاكية ، منذالبداية ،عناصر تركية بسبب تواجد الاتراك بين سكان المنطقة من ناحية ولان معظم قادة الثورة سبق لهم ان خدموا فيالجيش التركي او شغلوا مناصب فيالادارة العثمانية من ناحية اخرى. وعرف عن صبحي بركات انه لا يتقن العربية ، وعندما عين رئيسا للاتحاد السوري كانت خطاباته تلقى نيابة عنه .

واشترك في ثورة صبحي بركات ابن خالته عاصم وكان برتبة بكباشي ركن في الجيش التركي ، واصله من انطاكية . وقد نفته الدولة العثمانية لخلاف بينهما الى هذه المدينة فانضم الى ثورة صبحي بركات مع تركي اخر هو حقي بك . وقد اغرى الفرنسيون صبحي بركات وعاصم بالاستسلام ففعلا ، وكافأوا الاول بتعيينه رئيسا للاتحاد السوري الذي ضم دولتي دمشق وحلب وبلاد العلويين في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ . وهناك من يقول ان تعيين صبحي بركات لهذا المنصب كان بالحاح تركيا وارضاء لها من قبل الفرنسيين. وبقي في هذا المنصب حتى كانون الاول ١٩٢٥(٢٧) . أما عاصم فقد خشي من الايقاع به من قبل الفرنسيين فلجأ بمن معهمن الثائرين الى مرعش حيث دعموا الثوار الاتراك ضد الفرنسيين . وعهد الاتراك ، فيما بعد ، الى عاصم

بامرة قوة ارسلوها لدعم ثورة ابراهيم هنانو . ومما تجدر ملاحظته ان الدعم لم يكن من جانب واحد اذ ان اوائل الثوار السوريين ، في منطقة انطاكية ، التحقوا بالثورة التركية وحاربوا الجيوش الفرنسية في مناطق مرعش وعنتاب وغيرها(٢٨) .

وكان ابراهيم هنانو ، الذي خدم في الجيش التركي وعين رئيسا لديوان ولاية حلب ، قد عهد اليه الشريف ناصر ، قائد القوات العربية التي حررت سورية ، بتطهير منطقتي حارم وانطاكية المجاورتين لقرية كفر تخاريم ، حيث تقوم زعامة هنانو الاقطاعية وتقيم اسرته ، من فلول الجيش التركي المتراجع . واقام فيها في تشرين الثاني ١٩١٨ حكومة عربية تابعة لحكومة فيصل . وحين اعلم الجنرال اللنبي ممثل الحكومة العربية في حلب ان هاتين المنطقتين تقعان ضمن النفوذ الفرنسي استدعي هنانو الى حلب . ثم انتخب مندوبا عن حلب واقضيتها الى المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق في ٣ حزيران ١٩١٩ . ومن موقعه كممثل للشعب عهد الى هنانو ، في مطلع تشرين الاول ١٩١٩ ، بقيادة الثورة في المنطقة الشمالية ضد الفرنسيين . وكان هنانو وصالح العلي وغيرهما من قادة الثورة يعملون بتأييد ومباركة ودعم حكومة فيصل العربية التي امدتهم بالسلاح والعتاد والمال والضباط لتدريب رجالهم ومساعدتهم . ومن هؤلاء الضباط في الجيش العربي ابراهيم الشغوري الذي كان همزة الوصل بين الحكومة العربية وثورة هنانو .واصبح الشغوري امين سر ثورة هنانو ومرافقه العسكري .

وقد منع الانكليز الشريف حسين من ارسال المال الى ابنه زيد في سورية في ربيع عام ١٩٢٠ خشية وصول هذا المال الى هنانو . وكان الانكليز قد طلبوا من الحسين الا يرسل أي جزء من اعانتهم المالية له الى الثائرين على حلفائهم الفرنسيين في سورية(٢٩) . ولم يتمكن الانكليز ان يحولوا دون دعم حكومة فيصل العربية للثائرين . وكما امدت هذه الحكومة هنانو بالدعم امدت كذلك ثورة الشيخ صالح العلي بالدعم والمال والضباط حتى ان يوسف العظمة وزير الحربية التقى بالشيخ صالح قرب مصياف للبحث في شؤون الثورة(٣٠) . وكان اخر نداء للحكومة العربية الى الثائرين ذلك الذي وجهه الشريف زيد بن الحسين حين ارسل برقية من حماة في ٢٥ تموز ١٩٢٠ الى هنانو يقول فيها ان داوموا على اعمالكم ولا تصغوا الى أوامر حلب(٣١) . وكانت القوات الفرنسية قد احتلت حلب في ٢٣ تموز ١٩٢٠ ، وذلك بعد ان غادرها في اليوم السابق رشيد طليع واليها ونبيه العظمة مدير الشرطة وغيرهما(٣٢) .

بعد ان قضى الفرنسيون على حكومة فيصل العربية ، واحتلوا المدن الرئيسية في سورية ، وتخلى صبحي بركات وجماعته عن الثورة في تموز ١٩٢٠ ، شعرت الثورة الهنانية ، شانها شان ثورة الشيخ صالح العلي ، بحاجتها للعتاد والدعم ، وبخاصة

الخرطوش ، لمواصلة الثورة ومقاومة الفرنسيين الذين كانت تدعمهم ، بالاضافة الى قواتهم ، اعداد كبيرة من المرتزقة المحليين الذين اشار اليهم الثوار بالمتطوعة . وقرر هنانو ورفاقه الاتصال بتركيا التي كانت هي الاخرى تحارب الفرنسيين في كيليكيا . وسافر هنانو على راس وفد من الثوار الى تركيافي ١٧ اب ١٩٢٠ وقابل في مرعش صلاح الدين عادل بك قائد الفيلق الثاني التركي . ووقعت اتفاقية بين الطرفين في ٧ ايلول ١٩٢٠ . واتفق ، كما يروى الشغوري عضو الوفد ومرافق هنانو ، ان ما يقوم به هنانو من اعمال حربية هو باسم الحكومة العربية السورية ، أي ان تركيا اعتبرت هنانو استمرارا للحكومة العربية ، وان ما يعطى للجانب السوري من عتاد وسلاح يكون هدية لا قيمة له في الحال والمستقبل . وتقرر ان تبقى الحدود مفتوحة لتبادل التعاون العسكري عند الاقتضاء(٣٣) . ويضيف يوسف السعدون ، زعيم الثورة في منطقة القصير ، التي كانت ضمن الثورة الهنانية ، ان من جملة بنود الاتفاقية ان تقدم تركيا الخرطوش ومدفع واحد او اكثر حسب اللزوم ، وان لا تحدد الحدود بين سورية وتركيا الا بعد جلاء العدو عن اراضيهما وحصولهما على الاستقلال التام فعندئذ تعين لجنة مشتركة لوضع الحدود . كما تقدم الحكومة التركية بعض الجنود المدربين على المدفعية لتدريب الثوار . وحين يتوافر بين الثوار متدربون على المدافع بانواعها يعود هؤلاء الجنود الاتراك الى بلادهم(٣٤) . وكان تزويد تركيا الثائرين بالخرطوش والعتاد من اهم العوامل التي مكنت الثائرين من متابعة القتال .

وقد وجه هنانو في أعقاب عودته من تركيا في ١٢ ايلول ١٩٢٠ بيانا الى الشعب بداه بعبارة « من العرب الى العرب » ، جاء فيه ما بالكم ترضخون وأنتم خير امة أخرجت للناس . ان جريمتكم انكم من أبناء الشرق المسلمين . ونبه الى اتخاذ الفرنسيين الاديان ستارا للمطامع ، وأهاب بابن سورية أن ينهض للمحافظة على حريته ودينه . واشار الى الخونة وعقابهم . ووجه نداء الى قناصل الدول يناشدهم فيه التوسط لوضع حد لسفك الدماء . واختتم البيان بالقول : نحن السوريون نموت ونتبلشف أي نصير شيوعيين ونجعل البلاد رمادا ولا نخضع لحكم الظالمين . وأرفق بيان هنانو بفتوى من مفتي الاتحاد الاسلامي (لا يعرف من يمثل) الحاج محمد افندي أبي زاده تبيح دم من يتعاون مع الذين يحاربون الاسلام (٣٥) .

وقد لاحظ هنانو ان الشعب يكاد لا يصدق عقد مثل هذه الاتفاقية ، سيما وان الثورة تلاقي المصاعب ، فقرر قبول العرض التركي بارسال سرية من الجيش التركي مجهزة بالرشاشات وبمدفع واحد على الاقل ، لا لزجها في الحروب بل لتهدئة النفوس المضطربة التي تشكك بوجود حكومة تشد ازر الثائرين . وبالفعل وصلت هذه السرية المؤلفة من مائتي جندي نظامي بقيادة الرئيس بدري بك الشركسي ، وهي تحمل علما

يشير الى الاخوة بين العرب والاتراك اذ حمل احد وجهيه العلم العربي والوجه الاخر العلم التركي . وزنر كل منهما بوشاح ابيض نقش على الوجه الاول منه بالقصب الاية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » ، وعلى الوجه الثاني « فاصلحوا بين اخويكم »(٣٦) . وقد تجولت السرية التركية في مناطق الثوار ، بما في ذلك منطقة الشيخ صالح العلي، لتقوية الروح الثورية لديهم . وذكر انها كانت تحمل العلم التركي لتدلل به على وجودها كقوة تركية . وفي حين يذكر الضابط الشغوري ، مرافق هنانو والذي خاض معه المعارك ، ان القوة التركية لم تدع لاي عمل حربي واحتفظ بها كرمز للتآخي(٣٧) ، يذكر أدهم آل الجندي ، الذي لم يخض الثورات بل ارخ لها ، ان القوة التركية خاضت المعارك الى جانب الثوار(٣٨) . ولا يتطرق الثائر السعدون في مذكراته الى أي نشاط عسكري للقوة التركية .

ويتجلى في بيان هنانو الى الاهالي ، وفي بنود الاتفاقية التي عقدها مع تركيا ، التوجه العربي والاسلامي في آن واحد . فقد خاطب العرب باسم العرب ، كما أنه استثار الاخوة الاسلامية بين العرب والاتراك للوقوف في وجه العدو المشترك . ويعلق السعدون زعيم ثوار منطقة القصير ـ وهو المعروف بتدينه ، واستشهاده باستمرار في مذكراته بالايات الكريمة ، ووصفه تركيا بالدولة الاسلامية التي تقاتل المشركين ـ بان الثورة في سورية ليست لحساب الاتراك بدليل ان هنانو ، بعد فشل ثورته، لجأالى الاردن وليس الى تركيا. ويعلق السعدون على موقف هنانو هذا بقوله :«وكان رحمة الله لا يطمئن قلبه للاتراك ولمساعدتهم الصورية » (٣٩) . ومع ذلك يقول السعدون بمناسبة محاكمة هنانو في حلب واطلاق سراحه في اذار ١٩٢٢ ، بعد ان اعتقله الانكليز وسلموه للفرنسيين ،ان ذلك تم بتدخل تركيا وباتفاق دولي (٤٠) . كما ان السعدون نفسه يروي انه ونجيب عويد ، قائد ثورة كفر تخاريم والمساعد الايمن لهنانو ، رفضا تنفيذ طلب تركيا ، بعد لجوئهما اليها ، حين حاولت تجنيدهما لمساعدتها في ضم الاسكندرونة عام ١٩٣٦(٤١) . ويظهر كلام الثائر السعدون هذا حسا وطنيا عاليا تدعمه روح دينية تبعث فيه الاخلاص للجهاد في سبيل الوطن فقط .

وقد حرص زعماء الثورة على تنقيتها من المستغلين والمستهترين وغير المنضبطين لتحافظ على مصداقيتها واحترام الشعب والاعداء لها . وطبقوا ذلك حتى على القادة العسكريين الاتراك الذين ارسلتهم تركيا لدعمهم★ ، وذلك حرصا على الثورة من ان تشوه صورتها .

★ حدث في اواخر ايام ثورة هنانو ان هاجم افراد من القوة التركية قرية الصقيلبية المسيحية ،في منطقة حماة ، وسلبوا اهلها مالهم ومواشيهم ، فعقد ابراهيم هنانو ونجيب عويد مجلسا عسكرا فوريا اقر اعدام الضابط التركي المسؤول عاصم ، وتم ذلك بموافقة السلطات التركية(٤٢) .

ولم يقتصر الدعم التركي على الثورة الهنانية ، فقد اتصل الشيخ صالح العلي في ١٠ شباط ١٩٢١ بهنانو يطلب توحيد جهود الثورتين والحصول على السلاح من تركيا نظرا لاشتداد المعارك بينه وبين الفرنسيين . ويفسر تركيز جهود الفرنسيين ضد ثورة الشيخ صالح العلي بعنف المقاومة التي كانوا يلاقونها من ثواره ، وبخطتهم في القضاء عليه اولا ثم توجيه قواتهم ضد ثورة صهيون وثورة هنانو . لذا حشدوا قوات كبيرة ضده واخذوا يحرقون قرى الثوار(٤٣) . وقد سهل الاتصال بين ثورتي هنانو والعلي انضمام جبل الزاوية بزعامة مصطفى الحاج حسين الى ثورة هنانو ، في ٢٧ شباط ١٩٢١ ، مما اتاح نقل الامدادات بينهما . ووصلت وفود الشيخ صالح الى تركيا، وتم تزويدها بالخرطوس والسلاح (٤٤) .

والى جانب الحصول على الدعم العسكري عمد قادة الثورة الى الاتصال بالقناصل الاجانب لينفوا اتهامات الفرنسيين لهم بانهم يعملون للفوضى والنهب . وقد قاموا بتسليم رسائل متشابهة في ٢٩ اذار ١٩٢١ الى قناصل كل من امريكا وبريطانيا وايطاليا واسبانيا بحلب ، يؤكدون فيها رفضهم الاحتلال الاجنبي ، وعملهم الى جانب الخلافة الاسلامية ، اي العثمانية ، التي تشكل جزءا من الوحدة الاسلامية التي تدعمهم ، وان اعمال الثوار تصدر من القلب ومن وطنية الامة التي نمثلها . وتضيف الرسائل انه بناء على رغبة اللجنة الوطنية التي اجتمعت رسميا في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، التي تنتظم فيها جميع فصائل الثوار والاحزاب السياسية في سورية ، وبناء على القرارات التي اتخذتها بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٢١ في جلستها الثالثة ، تقرر توجيه هذه الرسائل الى القناصل في بيروت وحلب والمدن السورية الاخرى لابلاغ عصبة الامم بصوت الثوار. وقد وقع الرسالة الموجهة الى القنصل الامريكي بحلب ، باسم المجلس الوطني المنعقد في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، كل من نائب رئيس الحركة الوطنية العامة في سورية وفلسطين سيف الدين هلال ، ونائب رئيس قائد الحركات الوطنية العمومية في منطقة حلب صالح العلوي ، وكاتب العام قائد حركات العمومية بمنطقة غربي حلب ابراهيم هنانو . ولا تحمل الرسالة تاريخا (٤٥) . ويتبين من هذه الرسالة اعتماد الثوار على الدعم المعنوي للخليفة العثماني ، وبالتالي على دعم الاتراك العسكري . كما انها تشير الى تنظيمات ثورية على مستوى سورية بل بلاد الشام بكاملها .

وفي نيسان ١٩٢١ حدث تبدل هام في موقف تركيا من الثوار وفي موقف هؤلاء العسكري ككل . فقد توصلت فرانسا وتركيا . كما سبق القول ، الى اتفاقية هدنة وقعت بينهما في لندن في ١١ اذار ١٩٢١ ، وناب عن تركيا فيها سامي بك بكير مندوب المجلس الوطني الكبير في أنقرة ، وعن فرانسا رئيس وزرائها ووزير خارجيتها اريستيد

بريان . وتوقفت ، بموجب هذه الاتفاقية ، العمليات العسكرية بين الطرفين، الفرنسي والتركي ، في منطقة كيليكيا ، كما توقفت تركيا عن تقديم العون العسكري للثوار السوريين ، وسحبت قواتها التي كانت قد أرسلتها لدعم هؤلاء الثوار (٤٦) . وقد ذكر الشغوري(٤٧) أن نجدات فرنسية تزيد على خمسين الف جندي جلبت من كليليكيا الى سورية في اعقاب الاتفاقية ، فرفعت اعداد الجيش الفرنسي الذي يقاتل الثوار السوريين الى خمسة وسبعين الف جندي .واكد تقرير المخابرات البريطانية في ٢٠ نيسان ١٩٢١ ان الاتفاقية الفرنسية ـ التركية وتوقف العمليات في كيليكيا اتاح للفرنسيين استخدام اعداد كبيرة من الجنود ضد الثائرين(٤٨) .

وترتب على هذه التطورات نتائج هامة . فقد اختلت ، اول الامر ، المعادلة العسكرية على الجبهتين السورية والتركية . وكانت القوات التركية المشتبكة مع الفرنسيين في كيليكيا قد افادت من اشغال الثوار السوريين لقوات فرنسية كبيرة ، كان من الممكن ان توجه ضد الاتراك في غياب الثورات السورية . وذكرت التقارير الفرنسية ، مثلا ، ان اكثر من سبع فرق عسكرية فرنسية كانت تقاتل ثوار الشيخ صالح العلي في جبال العلويين في عام ١٩٢١ (٤٩) . ولا أدل على شدة ما أوقعه الثوار السوريون من اصابات في صفوف القوات الفرنسية في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ من احصاءات هذه الاصابات التي قدمتها الحكومة الفرنسية لمجلس النواب الفرنسي في جلسته بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٢٥ . فقد جاء ان عدد الفرنسيين الذين قتلوا ، باستثناء ما قتل من قوات تعمل في الجيش الفرنسي من اصول افريقية شمالية او محلية متطوعة ، بلغ ٢٨٩٣ قتيلا عام ١٩٢٠ ، و ٢٠٣٢ قتيلا عام ١٩٢١ . ثم هبط العدد الى ٦٣٦ عام ١٩٢٢ ، وعاد وارتفع الى ٥٨٨٥ خلال ثلاثة اشهر (١٥ تموز ـ ١٥ تشرين الاول ١٩٢٥) ابان الثورة السورية الكبرى(٥٠) .

وبسبب هذه التطورات غدا من الصعب على الثوار الانتصار على الفرنسيين . وكان الحصول على السلاح من الفرنسيين في المعارك احد المصادر التي زودت الثوار بالسلاح ، والمصدر الاخر هو شراؤه ، وبخاصة من منطقة حماة ، حيث يكثر في أيدي البدو (٥١) . وقد شح هذا المصدر بدوره بسبب تشديد الفرنسيين قبضتهم على القبائل البدوية ومصادرتهم السلاح الذي كان يشترى للثوار من لبنان وفلسطين . وتوقف كذلك المصدر الثالث للسلاح عن طريق تركيا (٥٢) . وكان زعماء الثورة ، مثل هنانو وصالح العلي ، ينفقون ، في تمويل الثوار وتزويدهم بالسلاح ، من واردات املاكهم وقراهم ، ومما يرد الى الثورة من جباية العشر في المناطق التي تسيطر عليها . وكان الممول الاكبر لثورة هنانو الحاج فاتح المرعشي الذي هرب من حلب الى مرعش بسبب

ملاحقة الفرنسيين له ، وكان يمد الثوار وهو في مرعش بالمال من واردات قراه في المنطقة الحدودية ، كما كان صلة الوصل الرئيسية بينهم وبين الاتراك (٥٣) .

وكان الهاشميون ، سواء في الاردن أم في العراق والحجاز ، يسعون لمد الثورة بالمال والسلاح بقدر ماتسمح به الظروف . وكان ذلك استمرارا لسياسة الشريف حسين وحكومة فيصل العربية في دمشق بدعم الثورات السورية على الفرنسيين . وقد سبقت الاشارة الى أن الجنرال اللنبي اشترط على الشريف حسين عدم ارسال المال الى الثوار . ويذكر الشغوري (٥٤) أن هنانو وصالح العلي اتصلا بالامير عبد الله في شرقي الاردن لهذه الغاية ، ولكنهما لم يحصلا منه على أكثر من الوعد بالمساعدة. وقد ذكر أن الامير فيصل ظل يرسل الدعم الى الثوار السوريين بعد خروجه من سورية ، وانه ارسل ، قبل سفره الى العراق ، رسالة الى الشيخ صالح العلي من جدة بتاريخ ٥ شوال ١٣٣٩ /١٢ حزيران ١٩٢١ يقول فيها انه تلقى رسالة الشيخ صالح ، وانه امر الشريف شند حاكم المدينة بالذهاب فورا الى معان ومنها يتوجه الى الشيخ صالح . وقال فيصل في رسالته انه سيذهب الى العراق ويتابع من هناك الاتصال بالشيخ صالح وينسق العمليات معه . وطلب من الشيخ صالح الا يوقف الاتصال مع شرقي الاردن وان يثابر في العمليات العسكرية ، واضاف « حيث اخذت كلام قطعي من لندن ان لا تنازل عن سورية ، وارجو سباتكم (هكذا) على اندفاعكم ريثما تتم مخابرتنا مع العشائر » . وقد نفى فيصل رسالته هذه ، كما نفتها الحكومة البريطانية في حين اكدها القنصل البريطاني في بيروت . وتحتفظ الوثائق الفرنسية بنص الرسالة العربي وترجمتها الفرنسية التي حصل الانكليز على نسخة عنها(٥٥) . وارسل ابراهيم هنانو بدوره برسالة الى الشريف على بن الحسين ، قائد عمليات الشمال ، يذكر فيها انه تلقى رسالة من الامير عبدالله بتاريخ ٢٩ اذار ١٩٢١ . ويضيف هنانو انه يحارب لاجل الدين باسم الشريف علي وباسم اللنبي ، وانه بمساعدة الشريف علي قد وحد جهوده مع الشيخ صالح العلي ومع حاجم باشا (لعله الامير البدوي من قبيلة العنزة في منطقة الرقة)★ ، وانه أسس اربع دول في سورية الشمالية (ربما يشير الى الثورات الاربع التي كان يراسها) ، باسم الملك حسين . واختتم بقوله « انه يحارب من اجل عقيدتنا ولدعم القضية العربية » . ويلقب هنانو نفسه في التوقيع بانه زعيم الدفاع الوطني في سورية الشمالية(٥٦) .

★ يذكر احمو وصفي زكريا ، عشائر الشام ، جزأين ، ط ٢ ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٥٩٨ ، ان حاجم ال مهيد تقلد المشيخة على الفدعان ، ولقب بباشا في عهد الملك فيصل، وان اهالي قضاء الرقة كلفوه بالاستيلاء على حلب التي احتلها الفرنسيون فسار اليها بقوة بدوية مع سرية من الجند التركي ولكن الفرنسيين صدوه .

ولكن نظرا لصعوبة وضع الثائرين العسكري قبل هنانو التفاوض مع الفرنسيين في ١٧ نيسان ١٩٢١ . وتم ذلك في بلدة كورين ، في منطقة ادلب ، دون الوصول الى اية نتيجة (٥٧) . ولذلك عدل زعماء الثورة الهنانية من استراتيجيتهم العسكرية وقرروا جعل تشكيلاتهم الثورية وحدات صغيرة تختص كل واحدة منها بمنطقة معينة . واوصوا بتجنب الاشتباك في معارك مكشوفة تستجرهم اليها القوات الفرنسية ، وبالاكتفاء باعمال التفجير والمداهمة والمباغتة وبالانقضاض على وسائل التموين وعلى الدوريات والمخافر . اما الشيخ صالح العلي فقد جرب التفاوض مع الفرنسيين وفشل(٥٨) ، ثم احتل هؤلاء مركز قيادته في الشيخ بدر . واصبحت كل فئة من ثوار الشيخ صالح تعمل مستقلة عن الاخرى . وبعد ان اخذت ثورته بالتلاشي احتجب الشيخ صالح مدة من الزمن ثم استسلم للفرنسيين الذين وضعوه قيد الاقامة الجبرية، وذلك بتاريخ ٢ حزيران ١٩٢٢(٥٩) .وتعلق برقية ارسلت من قبل هيئة اركان الجيش الفرنسي في بيروت الى باريس بتاريخ ٧ حزيران ١٩٢٢ تشعر باستسلام الشيخ صالح بان ذلك كان نتيجة لتوقف تزويده بالسلاح من قبل الاتراك في اعقاب الاتفاقية التي عقدوها مع الفرنسيين في انقرة في ١٩٢١ . وتضيف البرقية ان الفرنسيين سروا باستسلامه ، الذي توقعوه بعد هذه الاتفاقية ، لانه يعتبر مرحلة هامة نحو استسلام جميع المنطقة التي يتمتع فيها الشيخ صالح بالنفوذ(٦٠) .

وبالرغم من اجراء تعديل في خططهم العسكرية ، لم يتمكن هنانو وثواره من الثبات . وفي اجتماع لهم رأى البعض الالتحاق بالجانب التركي لقربه وأملا بشن الهجمات منه ضد الفرنسيين في سورية . ورأى البعض الاخر ، وعلى رأسه هنانو ، الالتحاق بشرقي الاردن ، حيث ثوار الجنوب ، أملا بالمساعدة . ووجدت فئة ثالثة « اقعدتها كبر العائلة وكثرة الاولاد عن اللحاق باحدى الفئتين » ، فاختارت البقاء ولكنها اقسمت انها لن تخون القضية (٦١) .

ومن قادة الثورة البارزين الذين انسحبوا الى تركيا ، في الفترة بين ٥ آب واوائل كانون الاول ١٩٢١ ، نجيب عويد قائد ثورة كفر تخاريم ، ومصطفى الحاج حسين قائد ثورة جبل الزاوية ، وعمر البيطار قائد ثورة صهيون ، ويوسف السعدون قائد ثورة القصير(٦٢) . وقام هؤلاء بعد ذلك ، وعلى فترات ، حسب الظروف ، بشن هجمات على الفرنسيين عبر الحدود . واتصف موقف الاتراك منهم ، كما سنرى ، بالتشجيع او بالقمع حسب علاقتهم بفرانسا .

٢ ـ العلاقات السورية ـ التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) .

شهدت العلاقات السورية ـ التركية في هذه الفترة محاولات الحكومة الكمالية

استمالة السوريين اليها عن طريق الدعاة والاحزاب ،كما شهدت الخلاف حول الحدود بين البلدين الذي لعبت فيه المطامع الاستعمارية دورا كبيرا . وتقلب موقف فرانسا بين مؤيد لتركيا او ناقم عليها ، تبعا لتقلبات السياسة البريطانية وموقفها من الخلاف مع تركيا وفرانسا حول قضية الموصل ،ودعمها الهجوم اليوناني فيالاناضول ، وفرض نفوذها في استانبول ، وانعكاس ذلك على موقفهامن المعارضةللحكم الفرنسي فيسورية. واستثار الموقف البريطاني حكومة مصطفى كمال في انقرة ، كما اقلق الفرنسيين ، وقرب بالتالي بينهم وبين الكماليين .وحين تفاهمت بريطانيا مع الفرنسيين انعكس ذلك على موقف هاتين الدولتين من الوطنيين في سورية ، ومن الكماليين في تركيا .

ادى الاتفاق بين الفرنسيين والكماليين في عام ١٩٢١ الى تغاضي الفرنسيين عن نشاط الكماليين ومؤيديهم في سورية ، ظنا منهم ان هذا النشاط سيوازن ازدياد نفوذ الوطنيين السوريين الذين كانوا يتطلعون الى دعم بريطانيا وامريكا لهم . واختلف موقف بريطانيا من فترة الى اخرى ، ومن قضية الى اخرى ، ومثال ذلك تسليم بريطانيا ابراهيم هنانو ، الذي اعتقلته في فلسطين بعد أن لجأ الى شرقي الاردن ، الى السلطات الفرنسية في سورية في آب ١٩٢١ .

ولم ينقطع تأييد بعض فئات السوريين لتركيا حتى بعد انسحابها الكامل من سورية ، نظرا لارتباط مصالح هذه الفئات بها ، وتمتعها ، في السابق ، بالامتيازات التركية ، أو بسبب خضوعها دينيا للسلطان ــ الخليفة العثماني . ثم جاء احتلال الدول الاوربية لكل من سورية وتركيا فزاد من التقارب بين الشعبين ازاء العدو المشترك . وكان لانتصارات مصطفى كمال ضد تحالف الدول الاوربية المحتلة لتركيا ، وبخاصة قتاله الفرنسيين في كيليكيا ، صدى محببا لدى الشعب السوري الذي كان يقاتل هو الاخر الفرنسيين . وترجم هذا الاعجاب بالتعاون بين الثوار في البلدين . ولم يخفف من هذا التعاون ، حتى في الاوساط المحافظة السورية ، ازدياد النفوذ البلشفي في صفوف الكماليين وانتقاله من خلالهم الى سورية . وقد زاد الاتفاق الكمالي ــ السوفياتي في ١٦ اذار ١٩٢١ من نشاط البلاشفة ، ليس فقط في تركيا وانما فيسورية أيضا . وجد بين العلماء المسلمين من رحب بهذا التعاون مع روسيا البلشفية . ولا ادل على ذلك مما كتبه احد كبار العلماء ، وهو الشيخ محمد رشيد رضا ، في جريدة (المنار) التي كان يصدرها في مصر في عام ١٩٢١ قائلا : « ومن آيات الله وحججه أيضا ان سخر الدولةالروسية الجديدة لمظاهرة الترك وشد ازرهم بعد ان كانت هذه الدولة على عهد القياصرة هي الخطر الاكبر على السلطنة العثمانية »(٦٢).

وقد اقلق هذا النفوذ التركي المتزايد في سورية الفرنسيين في وقت مبكر من

احتلالهم البلاد ، مما حدا بمراقب عالم بأمور المنطقة مثل المستشرق لوي ماسينيون ان يبدي دهشته من ازدياد هذا النفوذ ، وذلك في برقية له من حمص الى روبير دوكيه في بيروت ، بتاريخ ٢ كانون الاول ١٩٢٠ ، اشار فيها الى خطر تبلور النفوذ التركي الذي هو في اساس المشاعر الاسلامية والذي كان مفيدا لفرانسا في البدء ولكنه سيتحول ضدها اذا ما نفذ مصطفى كمال تهديده بمهاجمة حلب في الربيع(٦٤) . وظهرت ، بين الفينة والاخرى ، علائم تخوف من قبل الفرنسيين من ازدياد النفوذ التركي في سورية . ومن ذلك رفض السلطة الفرنسية طلب بعض مسلمي دمشق ، في آيار ١٩٢١ ، السماح لهم بجمع التبرعات لجمعية الهلال الاحمر التركية بحجة ان تركيا لم توقع بعد على معاهدة الصلح(٦٥) .

وبالرغم من التحفظات الفرنسية على نشاط الكماليين واتباعهم في سورية ، ازداد هذا النشاط ، الى حد كبير ، في اعقاب الاتفاقين بين فرانسا وتركيا في آذار وتشرين الاول ١٩٢١ . وتسرب الدعاة الاتراك من جماعة الاتحاد والترقي ، متسترين بلبوس تجار او موظفين أو ضباط عثمانيين سابقين ، الى المدن الكبرى في سورية وفلسطين ، كما تشير المخابرات البريطانية . وكان هؤلاء الدعاة ينشرون دعوتين : يقولون للذين هم من أصول تركية ويتكلمون العربية الا يقاوموا الفرنسيين بل يساعدونهم كأصدقاء ، ويقولون للعرب انتظروا قليلا لانه بعد ان اصبح الفرنسيون أصدقاءنا وغيروا سياستهم السابقة فسيفعلون مثل ذلك بالنسبة لكم . ويهيبون بالجميع لمقاومة بريطانيا العدو المشترك الذي يبتلع الامم . والجدير بالذكر ان بريطانيا آنذاك كانت تحتل استانبول وتدعم الاحتلال اليوناني في الاناضول . ويعلق تقرير المخابرات البريطانية على ازدياد النفوذ التركي هذا بان الفرنسيين غير قادرين على الاحتفاظ باستمرار بخمسين الف جندي في سورية لدعم سيطرتهم عليها ، ولذلك لن يتمكنوا من مقاومة الوجود التركي المسيطر حتى في دوائر الدولة . ودليل ذلك ان قائد الدرك في دمشق ، وحيد بك ، هو تركي من جماعة الاتحاد والترقي ، كما ان حقي بك العظم رئيس دولة دمشق معروف بولائه لتركيا ، وكذلك مدير الشرطة حمدي الجلاد الذي كان يعمل لحساب جمال باشا . وفي حلب كان معظم الموظفين الكبار من المتعاطفين مع الاتراك (٦٦) . وقد رحبت حلب اكثر من غيرها بالاتفاق الفرنسي ـ التركي بسبب تضرر تجارتها من اغلاق سوق الاناضول التقليدي في وجهها . ونشط الهدوء على الحدود تجارة حلب وقصدها تجار الاناضول لشراء منتجاتها(٦٧) .

وقد تسرب النفوذ التركي أيضا من خلال جمعية سرية للكماليين تدعى استقبال ، بدأ التحدث على وجودها في تموز ١٩٢١ . وكان المركز الرئيسي لهذه الجمعية في سورية في حلب ، ولها فرع في دمشق ، وهي على اتصال دائم بمسؤول تركي يدعى نهاد باشا

في ماردين . وكان اكثر اعضاء الجمعية نفوذا في دمشق حسب تسلسل اهميتهم : يحيى حياتي ، الذي كان ضابطا في الجيش التركي ثم التحق بالجيش العربي الشريفي، محيي الدين مملوك ، وهو ضابط سابق ويشغل آنذاك رئيس معتمدية الدرك ، بديع بكداش ، ضابط في الدرك ، الضابط سليم (؟) ، وحيد بك قائد الدرك ، وهو شقيق يحيى حياتي ، ووجيه الايوبي ، وهو ضابط سابق في الجيش العثماني . ويجمع بين هؤلاء انهم كانوا ضباطا سابقين في الجيش التركي ثم التحقوا بجيش الامير فيصل . ويليهم في الاهمية عثمان الشرابي ، وهو تاجر ، وعبد الله المهايني من الميدان ، وجلال باقي ، ثم والده باقي افندي ، والشريف تقي الدين (؟) نقيب الاشراف السابق ، ونسيب البكري ، مستشار الامير فيصل سابقا ، وشاكر بك الحنبلي ، متصرف دمشق . واقتصر عمل فرع الجمعية في دمشق على الدعاية للكماليين . وكانت الجمعية ككل معنية بمساعدة الموظفين السابقين في العهد التركي في العودة الى الوظيفة . وذكر ان الرئيس العام لجمعية استقبال هو التركي كمال بك ، ابن علي رضا بك ، وانه زار دمشق في ايلول ١٩٢١ قادما من انقرة . ولا يعلم فيما اذا كان المقر الرئيسي لهذه الجمعية هو انقرة(٦٨) .

وازدادت مع الزمن اعداد السوريين المجندين للقضية الكمالية . ونذكر في دمشق الاشخاص التالية اسماؤهم الذين كانوا يجمعون المال للكماليين في تشرين الاول ١٩٢١ ، وهم : سعيد عبيد ، سعد دمشقية ، محيي الدين جمعة ، وجميعهم من التجار ، ثم حقي زكريا من الشرطة(٦٩) . كما ذكرت ، في الشهر نفسه ، اسماء عدد من الكماليين الناشطين في دمشق ، وهم : مصطفى (؟) ، وكان ضابط احتياط في الجيش التركي ، كول أغاسي عرفان افندي ، وهو ضابط سابق في الجيش التركي ، ابراهيم حقي ، وهو الاخر ضابط سابق في الجيش التركي ، وجميعهم من اصل عربي . والى جانب هؤلاء ذكر الضابط زكي الحلبي ، وكان قائدا للشرطة في عهد فيصل ، وضابط المدفعية عبد الفتاح ، الذي عمل في وزارة الحربية في عهد فيصل . ودأب هذان الضابطان على تجنيد الاعضاء للجمعيات الكمالية السرية في دمشق(٧٠) .

وشاع في دمشق ، في تشرين الاول ١٩٢١ ، امر رسالة بعث بها هندي من برلين ، عبر انقرة ومرعش ، الى هندي في دمشق يدعى رمضان محمد او رمضان بن محمد . وكان هذا يمتهن الكحالة ، ويحمل التابعية البريطانية ، ومسجلا في القنصلية البريطانية بدمشق . وهو عضو في فرع دمشق لجمعية دولية تسمى الجمعية الاسلامية . وتتحدث الرسالة التي كتبت بالعربية عن اطماع الدول الغربية لابتلاع الامم الشرقية بعامة ، والعالم الاسلامي بخاصة ، وان هذه الدول قد زادت في شدة استبدادها ، وهدفها القضاء المبرم على جميع امم الشرق . لذا ، تقول الرسالة ، اتصل « عقلاء الامم

الشرقية » ، من سائر الاديان والاجناس ، ببعضهم ، وقرروا تاسيس جمعية عمومية شرقية غايتها خلاص الشرق من اسر الغرب . وانضم الى هذه الجمعية الشرقية كثير من احرار الامم الغربية . واجمع عقلاء الامة الاسلامية في الشرق على تايد هذه الجمعية وتشكيل فرع اسلامي لها مستقل في ذاته يتفق معها في المبدأ ، وهو تخليص الشرق من الغرب ، وينفرد عنها في شؤون خصوصية ، وهي ضم جميع العناصر الاسلامية بعضها الى بعض ، والاهتمام بترقية شؤون المسلمين . وقد تأسست هذه الفرقة في برلين تحت اسم « الجمعية الاسلامية » ، واعضاؤها من اعاظم الرجال من سائر الاقطار الاسلامية . وتشكلت شعبة عسكرية مخصوصة لهذه الجمعية برئاسة انور . وقد اتسعت هذه الحركة واتفقت مع الفرق الانقلابية بين المسلمين . وتعمل الجمعية الاسلامية في مصر وانقرة وغيرها . وهي متفقة مع موسكو وايرلندا وغيرهما ، لنجدتها بالسلاح والمال والقوة ، من غير ان يكون هناك اقل اتفاق للقبول بالمبدأ البلشفي ». وتذكر الرسالة انه سيعقد بعد قليل مؤتمر عام ثان في برلين للجمعية الاسلامية . وتضيف ان حكومة انقرة ستعقد الصلح طبق رغائبها ، ولكن الامة التركية لم تنته وظيفتها لان القيام سيكون عاما في سائر الاقطار الاسلامية والشرقية . ولا يمكن تحرير البلاد الا بحرب العصابات . وتطلب الرسالة جوابا عليها ، وعندئذ تعلم الجمعية فروعها بعنوانها في برلين وروما وغيرها من المراكز . وقد اعطيت نسخة من الرسالة الى ثروت بك ، وكان سابقا في خدمة الهاشميين . ووصلت هذه النسخة الى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اعطاها بدوره الى القنصل البريطاني بدمشق . وحصل على نسخة اخرى حسن افندي الزنبركجي ، مخبر القنصل . واعطيت هذه النسخة الى علي رضا باشا الركابي الذي اخبر القنصل بها . وكان الزنبركجي عضوا في الجمعية ثم انسحب منها لانها تعمل ضد الهاشميين . وضم فرع الجمعية الاسلامية بدمشق الاسماء التالية : الشيخ عبد القادر الاسكندراني ، مدرس السنانية ، وهو رئيس الفرع ، وزكي الحلبي ، وعبد الفتاح ومحمود كول اغاسي ، وسليم طبنج ، وكلهم ضباط سابقون في الجيش التركي ، بالاضافة الى راجي افندي ، وهو كاتب رئيسي في المحكمة الجزائية بدمشق وشوكت العائدي ، شقيق منيف العائدي ، وهو ضابط سابق لدى الامير عبد الله طرده الامير ، ورمضان محمد . وقد حاولت الجمعية استمالة الامير عبد الله للانضمام اليها ولكن الامير اعتقل موفدها وارسله الى مصر(٧١) .

ويبدو ان الجمعية الاسلامية هذه كانت تعمل بصورة وثيقة مع الكماليين ،بدليل ان احد اعضائها البارزين وهو رمضان محمد الهندي تلقى رسالة منهم ، بطريق مرعش ،في اوائل كانون الاول ١٩٢١ ، تشير الى تفهم الكماليين لانزعاج الدمشقيين من توقيع الاتفاقية بينهم وبين الفرنسيين . والمقصود طبعا اتفاقية فرانكلين ــ بويون

المعقودة في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ .وتوضح الرسالة ان الحقيقة هي ان الاتفاقية تعطي الاتراك السيادة على سورية (في الواقع تعطيهم فقط امتيازات في لواء الاسكندرونة) وان دور فرانسا كدولة منتدبة يقتصر على الامور المالية والادارية . وتضيف الرسالة ان الكماليين عندما ينهون صراعهم مع اليونانيين فسيوجهون قواتهم باتجاه سورية (٧٢). ويلاحظ ان نشاط الجمعية الاسلامية وتأكيدها على جمع المسلمين ومعاداة الاوربيين احرج موقف الكماليين ، اثر عقدهم الاتفاقية مع فرانسا ، مما اقتضى ارسالهم هذه الرسالة لاشاعة الاطمئنان ولابداء استعدادهم بالتوجه الى سورية ضد الفرنسيين في احسن الظن .

وجرت محاولة اخرى في دمشق للتهوين من امر اتفاقية تركيا مع فرانسا ولامتصاص نقمة الجمعية الاسلامية وغيرها . فقد تحدث الامير سعيد الجزائري ، في احتفال دعا اليه في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢١ بمناسبة المولد النبوي ، وشارك فيه المسلمون والمسيحيون ، على وجوب عدم النظر للمسيحيين على انهم كفار لان القران الكريم اعترف بموسى وعيسى . ورغم ان هذا الكلام ينسجم مع سلوك جده الاكبر الامير عبد القادر الجزائري ، الذي دافع عن المسيحيين في دمشق ، فقد فسر كلام الامير سعيد في تلك الفترة بالذات ان القصد منه عدم وجود اعتراض ديني على الصداقة الكاملة بين المسلمين وفرانسا ، والهدف من ذلك الدفاع عن الاتفاقية التركية ــ الفرنسية .ومن شأن هذا التصريح أيضا ان يوازن موقف الداعين الى تحقيق الجامعة الاسلامية . وحتى لو كان كلام الامير سعيد عفويا ، فمن شانه ان يوظف لهذه الاهداف (٧٣) .

واتضحت ، فيما بعد ، نوايا الامير سعيد من تاييده لتركيا لانه ، بعد ان عجز عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخير من دعم الاتراك.
عجر عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخبر من دعم الاتراك.
ويذكر كيف ان الامير سعيدا قد تراس حكومة مؤقتة في دمشق دامت ثلاثة ايام ، بين انسحاب الاتراك منها في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ودخول الجيش العربي اليها في الاول من تشرين الاول(٧٤) .وغدا الامير سعيد من انشط الدعاة للكماليين . وذكر القنصل البريطاني في دمشق ، في تقرير له بتاريخ ١٩ حزيران ١٩٢٢ ، وبكثير من التحفظ لان المعلومات نقلت اليه من اشخاص معادين للنشاط التركي ، ان الامير سعيدا تراس جمعية تدعو للكماليين في دمشق ، وان هدفه ان يصبح اميرا على سورية بمساعدة الاتراك . وقيل ان الامير التركي صباح الدين ، الذي أيد الحركة التحررية الكمالية، كان يدعم الكماليين في دمشق . وذكر مصدر موثوق للقنصل ان المؤيدين لتركيا في دمشق ارسلوا مصطفى فخري وداود مارديني ومحمود الخبمي الى انقرة للحصول على المال للاستمرار في الدعاية للكماليين(٧٥) .

ومن المرموقين دينيا في دمشق الذين عملوا للكماليين ابان قتالهم للفرنسيين وقبل فصلهم السلطنة عن الخلافة ثم الغاء هذه الاخيرة ، الشيخ الكتاني ، ولعله السيد مكي.. وكان مغربي الاصل ، وفي دمشق من فضله على الشيخ بدر الدين الحسني. وقد زاره فيصل ابان حكمه ، وطلب منه مصطفى كمال الشخوص اليه ، ووافق الفرنسيون على سفره . وبعد عودته عمل في الدعاية للكماليين .وقيل ان جميل الالشي ، الذي كان يتردد على الشيخ الكتاني ، عمل هو الاخر في الدعاية للكماليين(٧٦) .

ويبدو ان اتفاقية تركيا مع فرانسا سرعان ما تناساها بعض السوريين على الاقل، وبخاصة دعاة الكماليين في سورية .وازداد نشاط هؤلاء الى درجة كبيرة .وبرز في هذا الميدان في دمشق ، في حزيران ١٩٢٢ ، كل من سعد الله نامق من حلب ، وأمين بك جركس ، وغالب النائلي ، الكاتب الرئيسي في ديوان حاكم دمشق حقي بك العظم، والشيخ عبد الجليل الدرة . وقد وصف هؤلاء بانهم يبذلون جهدا كبيرا في نشر الدعاية التركية في سورية ، وكسبوا الى صفهم انور البكري ، قريب نسيب البكري ، ونشروا بيانا حثوا فيه العرب على عدم نسيان اصدقائهم القدامى الاتراك ، ودعوا للاعداد لثورة على الفرنسيين .وتضمن البيان وعدا من الاتراك بارسال كمية من الاسلحة في وقت قريب الى السوريين المؤيدين لهم .

وكان عدد من هؤلاء المؤيدين ناشطا آنذاك في جمعية عرفت بجمعية تخليص الشرق الادنى ، دعت في دمشق الى الثورة على الفرنسيين وتأييد الاتراك . وذكر ان برنامج الجمعية اتي به من انقرة الى دمشق على يد شخص يدعى محمد محيي الدين بك الذي كانت له علاقة بالبنك الزراعي في انقرة . وقيل ان هذه الجمعية جزء من حركة تعاون فرنسي ـ تركي هدفه تحقيق اتحاد اسلامي تحت رعاية فرانسا.. ويدعو برنامج الجمعية الى الحكم الذاتي والاستقلال ، ويشجب تدخل الدول الاوربية ، مثل فرانسا وبريطانيا وامريكا ، في سورية بشكل خاص وفي مصر وفلسطين وغيرها من البلاد الشرقية ، ويقول بالتعاون مع الشعوب الشرقية تحت شعار الشرق للشرقيين، ويذكر ان الاجانب قتلوا الاقتصاد الوطني الذي يجب تشجيعه . ويؤكد البيان للسوريين ان اربع عشرة دولة شرقية تؤيدهم . ولهذه الاهداف تشكلت هذه الجمعية في سورية ، وسترفع تقاريرها الى مقر الجمعية الرئيسي .ولا يذكر البيان مكان هذا المقر .

وضمت جمعية تخليص الشرق الادنى في عضويتها كلا من : اديب تقي الدين ، عبد الجليل الدرة ، عبد الحميد العطار ، عبد المحسن الاسطواني ، انور البكري ، سليم الملقي ، محمد البكري ، حمدي الجلاد ، صادق التميمي ، سليم الجيرودي،

محمد حسين ميركردي ، ابناء عبد الرحمن باشا اليوسف ، عطا العجلاني ، الشيخ محمد المجتهد ، صادق الميداني ، ابو الخير الفرا ، توفيق المنيني ،محمد الكزبري ، موسى كاظم ، جلال باقي ، حلمي عزيز ، داود مارديني ، محمود عابد ، ومعظم اسرة العابد وآل السكري ، عارف القدسي وعزت الخجا(٧٧) . وشكلت هذه الاسر ، الى جانب الضباط السابقين في الجيش التركي ، دعامة النفوذ التركي في سورية ، وذلك نظرا للامتيازات التيتمتعت بها سابقا والتي طمعت بالحصول عليها من جديد . كما ان فرنسا كانت تؤيد بعضهم .ومع ذلك شكل هؤلاء ، بتوجههم نحو تركيا ، اقلية سياسية بالمقارنة مع الفئات التي تعاملت مع الفرنسيين ، والجماعات الاكثر عددا التي قاومت الحكم الفرنسي (٧٨) .

ومما شجع على ازدياد نشاط الكماليين في سورية تحسن العلاقات بشكل مطرد آنذاك بين فرنسا وتركيا ، حتى انه ذكر ان الكماليين مارسوا ضغطا على فرانسا لتعيين صبحي بركات ، الذي عرف بنشأته وبميوله وبلغته التركية ،وبتسميته فيما بعد عضوا في البرلمان التركي ، رئيسا للاتحاد السوري في ٢٩ حزيران ١٩٢٢(٧٩) وطبيعي ان فرانسا ، هي الاخرى ، كانت راضية عنه لتخليه عن قيادة الثورة ضدها في منطقة انطاكية واعلانه الولاء لها .

وكانت فرانسا تمد تركيا بالعتاد الحربي ، بما في ذلك الطائرات ، لاستخدامه ضد المحتلين اليونانيين في غربي الاناضول . ويشحن العتاد من بيروت وطرابلس اما مباشرة الى ميناء مرسين او الى ميناء الاسكندرونة ومنه الى كيليكيا . وهدفت فرانسا من هذه المساعدة الى اقامة توازن مع النفوذ البريطاني فيالمنطقة(٨٠) .

ولم تخفف مساعدة فرانسا لتركيا من معارضة السوريين للانتداب الفرنسي. واستقبلت انتصارات تركيا على اليونانيين في الاناضول بمظاهر الفرح في دمشق وبالتظاهرات والاحتفالات في حلب . واطلق على مصطفى كمال لقب سيف الاسلام. وابرزت انتصاراته لان الوطنيين السوريين كانوايقاسون بدورهم منمقاومة الفرنسيين لهم(٨١) .واقيمت الصلوات في المساجد بهذه المناسبة . وذكر ان الاحتفالات اقيمت كل يوم في مسجد من مساجد حلب على نفقة دائرة الاوقاف(٨٢) . وارسل مصطفى كمال برقية الى مفتي دمشق يعلن فيها انتصاره على اليونانيين ويطلب اليه اقامة الصلوات في الجوامع لنصرة قضية الاسلام . واقيمت الصلوات في عدة جوامع في دمشق مساء ٢٢ ايلول .وارسلت برقية من بعض الشيوخ والاعيان الدمشقيين يهنؤون فيها مصطفى كمال. وفي بيروت جمعت عشرة الاف ليرة ذهبية وارسلت الى الكماليين (٨٣) . ويعلق القنصل البريطاني في بيروت على مظاهر الفرح هذه بان السكان

سروا فعلا بانتصارات مصطفى كمال على اليونانيين وتحديه الدول الاوربية وتناسوا موقف مصطفى كمال من الخليفة العثماني الذي جرد من صلاحياته كسلطان . ولكن السوريين لم ينسو بعد الماضي، وبخاصة تجنيد الاتراك لهم وارسال الالاف منهم الى جبهة اليمن حيث قتلوا(٨٤) . وخشيت العناصر غير الموالية لتركيا من اعادة احتلال تركيا لشمالي سورية على الاقل ،وربما للبلاد بكاملها . ومما ساعد على هذا التخوف ان بريطانيا والشريفيين في الاردن والحجاز كانوا منشغلين آنذاك بالتوسع الوهابي وحشده القوات على حدود المنطقتين . وزاد في الامر ان قائد الدرك في دمشق عرض في ٢٢ ايلول ١٩٢٢ على حوالي الفي ضابط تركي سابق يقيمون في دمشق التوظيف في لبنان الكبير . وبدا للناس ان القصد من ذلك اعادة تدريب هؤلاء الضباط لصالح الاتراك .

ونشط الكماليون في مجال توزيع المنشورات في سورية ، كما عملت بعض الصحف لصالحهم . وابرز هذه الصحف جريدة « فتى العرب » ، ذات التوجه الاسلامي التي عرف عنها موالاتها للكماليين(٨٥) . ولم يغب عن ذهن المراقبين في دمشق تساهل الفرنسيين تجاه توزيع المنشورات المؤيدة للكماليين وشدتهم بالنسبة لموزعي المنشورات الوطنية الذين صدرت الاحكام بسجنهم ، كما ذكرت تفاصيلها جريدة « الف باء » بتاريخ ٢٢ ايلول ١٩٢٢ و ٢ تشرين الاول ١٩٢٢ و ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢ . حكم على موزعي المنشورات الوطنية ،بموجب هذه الاحكام ، بالسجن مددا راوحت من سنة الى خمس سنوات .

وكانت اكثر المنشورات التركية رواجا صور مصطفى كمال ، وتحمل احداها ، التي وزعها دعاته في دمشق ، العبارات التالية بالعربية ، في الاعلى : وما النصر الا من عند الله ، وفي الجانب الايمن : حب الوطن من الايمان ، وفي الطرف الايسر : الوطن فوق كل شيء ، وفي الاسفل : محرك العواطف العثمانية والقائد العام للجيوش الوطنية بطل الاناضول دولة المشير الغازي مصطفى كمال باشا . ويلي ذلك اسم دار النشر وهي مكتبة الامل ، بيروت ، شارع المعرض . ووزعت ايضا صورة اكبر لمصطفى كمال تحمل كتابة تركية(٨٦) .

ووزعت المنشورات الدعائية التركية في دمشق اما مجانا او بسعر اقل بكثير من سعر التكلفة . ويدل بيعها على رواجها ، كما ان تقاضي سعر رمزي عنها يضفي عليها الاحترام . وتظهر احدى الصور التي بيعت في دمشق انور باشا يقدم خريطة تركيا الى مصطفى كمال باشا . وكتب بالعربية على هذه الصورة : البطل انور باشا يهدي خريطة تركيا الى الغازي مصطفى كمال باشا عقب انتصار الجيش العثماني . ولفت

انتباه الناس في هذه الصورة ان سورية تظهر على الخريطة باللون الاحمر وانور باشا يشير اليها باصبعه . وتظهر صورة اخرى الشيخ السنوسي ، الذي كان يقاتل في الاناضول الى جانب الكماليين، ومصطفى كمال باشا وصلاح الدين الايوبي وهم يحيطون بالقرآن الكريم . وكان الطلب شديدا على هذه الصورة ، وباعها الاولاد في الشوارع بسعر بخس . ومثلت صورتان اخريان حرية النساء في ظل الحكم التركي، وبيعتا في مجموعات كتب على غلافها بالفرنسية : جميلات شرقيات ، وبالتركية: هدايا استانبول وكان لهذه الصور رواج كبير بين النساء السوريات بسبب الازياء التي ظهرت فيها(٨٧).

وقد وصفت الدعاية التركية في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٢ بانها ناجحة . ووضعت مبالغ كبيرة من المال بتصرفها . وكانت بعض الطبقات المحافظة والدنيا تؤيدها علنا . وقام بالترويج لها في الغالب شبان من اصول تركية ومحلية. واثار هذا التاييد خشية الطبقات العليا من اقطاعيين وبورجوازيين ومثقفين وطنيين الذين عارضوا النفوذ التركي . كما ان الجمع بين الدعاية الكمالية والدعاية البلشفية من قبل البعض اثار غائلة بعض المحافظين ، وكذلك حفيظة بريطانيا خشية تسرب ذلك الى فلسطين والعراق . لذا قرر القنصل البريطاني بدمشق التشدد في منح الكماليين والبلشفيين سمات الدخول الى مناطق الانتداب البريطاني .

وجرت محاولة آنذاك لانشاء حزب تركي بلشفي في سورية . واعتقل الفرنسيون كلا من مصطفى فخري وراجي افندي القباني ، لذهابهما الى انقرة وتفارضهما مع الاتراك لهذا الغرض ، وكذلك لذهابهما الى بيروت لمقابلة محيي الدين باشا حاكم اضنة وكيليكيا وتبادل الراي معه حول انشاء هذا الحزب . وقد اعطاهما مائتي ليرة تركية ذهبية لانشاء الحزب ، ووعد ان يحصل لهما على ٢٥٫٠٠٠ ليرة لهذا الغرض. وقد اعترف راجي افندي القباني بهذه الوقائع امام محكمة عسكرية في دمشق بينما نفى زميله ذلك (٨٨) .

وطبيعي ان الكماليين لم يكونوا يعملون في فراغ ، لان الحركة الوطنية في سورية ضد الفرنسيين كانت مسيطرة على الساحة المحلية ، سواء في المدن أم في الارياف ، ويمثلها في المدن نخبة من الوطنيين تدعمهم تنظيمات سياسية وتحركات شعبية . وكان من ابرز هذه التنظيمات في السنتين الاوليين من الانتداب الفرنسي جمعية القبضة الحديدية . وتخرج معالجة هذه التنظيمات عن نطاق بحثنا .

وحدث في اواخر عام ١٩٢٢ تحول كبير في العلاقات الفرنسية ـ التركية ، بسبب حشد تركيا قواتها على حدودها الجنوبية وتهديدها باحتلال منطقتي الموصل والاسكندرونة وغيرهما من المناطق بحجة تسوية الحدود . وقد قرب هذا الخطر

المشترك بين بريطانيا وفرانسا ، وبرزت مشكلة الحدود بشكل عنيف منذئذ . وعادت تركيا الى دعم الثوار السوريين اللاجئين اليها في شن هجماتهم عبر الحدود ضد الفرنسيين في سورية . ووجدت لجان كمالية متطرفة في عنتاب وكلس واورفه ،كانت على اتصال بالعناصر الموالية للكماليين في حلب وجوارها . كما كانت تقدم الدعم لمجموعات الثوار السوريين في جبل الزاوية وعلى العاصي . وكان ابرز هؤلاءالمتطرفين الشيخ السنوسي ومركزهاورفه(٨٩) . وتأثرت الحالة الاقتصادية في حلب الى حد كبير من جراء استئناف هجمات الثوار الاتراك والسوريين عبر الحدود وتهديد قطاع الطرق للطريق التجاري بين حلب والاسكندرونة .

وانعكس هذا التطور في العلاقات الفرنسية ـ التركية على نشاط الكماليين في سورية ، اذ اخذت فرانسا في ملاحقتهم في اوائل عام ١٩٢٣ . ونشرت جريدة « فتى العرب » الدمشقية بتاريخ ٦ شباط ١٩٢٣ بيانا اذاعه الكولونيل بتشون ، مراقب الامن العام في لبنان الكبير ، الى رجال الامن العام هذا نصه : لقد علمت للمرة الثالثة ان بعضهم يبيع كتبا ورسوما قصد بث الدعوة الكمالية ، واتصل بي ان احد الباعة كان يعرض في شارع اللنبي خريطة سورية والعلم العثماني مرفوع فوقها على حلب وانطاكية وحماه فلذلك انبه الى ضرورة منع هذه الامور ومصادرة كل خريطة او رسم او كتاب من هذا الصنف(٩٠) . وفي حلب ، في الفترة نفسها ، اوقف الفرنسيون بيع كمية من صور مصطفى كمال التي كان يعرضها اصحاب المحلات في واجهات محلاتهم(٩١) .

وضرب الفرنسيون بقوة ضد جمعية ثورية تركية اتخذت اسم الحزب الثوري الوطني ، وكانت تعمل في حلب . ووزع هذا الحزب ، قبيل زيارة الجنرال ويغان المفوض السامي الفرنسي لمدينة حلب ، منشورا في مختلف انحاء المدينة ، كما بعث برسالة مؤرخة في ٢٧ ايار ١٩٢٣ ، ضمنها نسخة من المنشور ، الى القنصل البريطاني في حلب . ويقول القنصل ان لغة الرسالة العربية ركيكة وتظهر صياغة تركية . وجاء فيها ان رسالة وصلت الحزب الثوري من عنتاب تعلم بالوصول الى اتفاق بين حكومتكم (أي بريطانيا) وحكومتنا التركية . ولهذا فان حزبنا الوطني الحلبي ، الذي يرتبط مباشرة بالمجلس الكبير في انقرة ، يشكركم على هذا الاتفاق . وتضيف الرسالة ان الحزب الثوري امر بان يشرح الى سكان حلب مهمة الجنرال ويغان ، ولهذا اصدر الحزب المنشور وفقا للاوامر التي تلقاها من حزب الدفاع التركي . وتطلب الرسالة من القنصل المساعدة المادية والمعنوية ومنح الحماية الادبية لبعض الاشخاص اذا ماقبل ان يلتقي ومندوب الحزب . وتمضي الرسالة الى القول ان هدف الحزب طرد الفرنسيين وان تحركاته مبنية على تحركات الجيش التركي وحزب الدفاع . وتحمل الرسالة في النهاية اربعة احرف بمثابة التوقيع . ويبدأ المنشور باسم الله ثم يهيب

بالعرب ان يفيقوا من سباتهم . ويندد بمساوىء الفرنسيين ويقول ان الجيش الكمالي على اهبة الاستعداد للسير الى سورية ، ويطلب من السكان دعمهم له . ويشير الى ان الضباط الاتراك السابقين التحقوا بالجيش الكمالي واقسموا على دخول حلب رافعين العلم المقدس ، وعلى السكان ان يدعموهم . ثم يذكر كيف ان الفرنسيين بعد ان دعموا الاتراك قاموا ضدهم الان ، في حين ان انكلترا ، عدوتهم وحليفة امريكا ، قد عقلت وتفهمت الاتراك .

وقد اعتقل الفرنسيون اعضاء هذا الحزب الشوري ، وحاكموهم امام محكمة عسكرية ، وحكموا بتاريخ ٩ ايلول ١٩٢٣ على عدد منهم بالسجن مددا راوحت بين خمس سنوات وعشرين سنة ، مع مصادرة اموالهم ونفي بعضهم . والذين حكم عليهم هم : بهجت بك ، علي اسحق ، محمد سليمان المعروف بابي سليم ، سليم الوراق ، الحاج احمد ابو قدرو المصري ، حمدي بك ، محمد صبري ، عبدو ابن قدري ، صفو المصري ، فتاح البيطار ، طاهر بن عبد القادر ، مصطفى بن علي الخربوطلي ، محمد صبري سليمان ، وهو مأمور في الشرطة ، وتوفيق حسن بك الشامي . وقد اطلق سراح الحاج احمد ابو قدرو المصري وطاهر بن عبد القادر وتوفيق حسن بك الشامي لان الحكم ضدهم لم يكن بالاجماع . كما انحي باللائمة ، اثناء المحاكمة ، على مدير شرطة حلب ، عزيز بك خياطة ، وهو من اصل عراقي ، لقوله بانه لا يعرف شيئا عن وجود هذا الحزب ، ثم طرد من الخدمة وامر بمغادرة حلب الى بغداد (٩٢) .

وبالاضافة الى محاولة الفرنسيين قمع الحركة المؤيدة للكماليين ، قام هؤلاء ، من ناحيتهم ، باغضاب عدد كبير من مؤيديهم داخل تركيا وخارجها حين الغوا السلطنة وابقوا على الخلافة في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢ . ففي حلب مثلا ، حيث كان النشاط الموالي للكماليين قويا ، استقبل الغاء السلطنة وتجريد الخليفة من اية سلطة مدنية بالوجوم ، وبخاصة في اوساط رجال الدين ، الذين اعتبروا ذلك العمل خطيئة سياسية كبرى (٩٣) . ومع ذلك ، لم يشن الرأي العام المتدين هجوما سافرا على الكماليين بسبب ذلك . وكانت « المنار » تعبر عن رأي الكثيرين حين قالت ان فصل السلطنة عن الخلافة والغاء الاولى هو خطيئة يجب الا تتخذ عذرا لاضعاف صمود الكماليين ضد الاستعماريين . فالكماليون يستحقون الدعم ، ويؤمل ان يعيدوا الاعتبار الى الخليفة في المستقبل (٩٤) . وكتب محمد جميل بيهم ، وهو مؤرخ لبناني ، في مجلة « العرفان » انبيروتية انه بالرغم من تصدي مصطفى كمال ومؤيديه للدين ، فهم ليسوا اعداء الاسلام (٩٥) . وعلقت « العرفان » التي استعرضت تاريخ الخلافة فيما بعد على الغائها بقولها : « فما هي باول قارورة كسرت في الاسلام » (٩٦) . وحين الغى الكماليون الخلافة في ٣ اذار ١٩٢٤ اصيب النشاط الموالي للاتراك في سورية بضربة كبرى (٩٧) .

واغتاظ الفرنسيون حين اعلن الشريف حسين خليفة ، لان ذلك سيثير الاضطرابات عليهم في سورية ، فقاموا باعداد عريضة لتوقيعها من علماء دمشق ضد خلافة الملك حسين (٩٨) .

والسؤال الذي يطرح نفسه بشأن ازدياد الشعور المؤيد لتركيا الكمالية في سورية هو:
الى اي مدى يعبر هذا الشعور عن رغبة حقيقية وعامة في العودة الى الحكم التركي ؟..
لقد أعجب السوريون ، كما أعجب غيرهم ، وبخاصة الشعوب التي كانت تناضل ضد الاستعمار الاوربي ، ببطولة مصطفى كمال وطرده الدول الاوربية من الاناضول لان السوريين انفسهم كانوا يرزحون تحت الحكم الاوربي. كما انهم قدروا مساعدة الكماليين للثورات السورية الاولى ، قبل أن يتحولوا عن دعمها اثر اتفاقهم مع فرنسا . ولم يغب عن زعماء الثورات السورية مغزى تحول تركيا عن دعمهم ، حين تعارضت مصلحتها مع مصلحتهم ، لذلك الحوا على الانتماء القومي بأكثر من الرابطة الدينية وهم المتدينون، كما راينا في أمثلة ابراهيم هنانو ويوسف السعدون وغيرهما .

وقد قوّم احد المراقبين الغربيين في دمشق ، في ١٢ شباط ١٩٢٣ ، موقف السوريين من تركيا فقال بأنهم لا يرغبون بعودة الحكم التركي ، واذا كانوا قد أثاروا شعورا مواليا لتركيا فهدفهم تهديد الفرنسيين والانكليز لاعطائهم التنازلات ، واذا أبدوا العودة الى امبراطورية تركية فليتخلصوا من الانتداب وليس حبا بالامبراطورية. وعلق مراقب آخر في بيروت ، في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٣ ، بأن انتصارات مصطفى كمال على اليونان والدول الغربية جعلت المسلمين يتناسون تجريده الخلافة من السلطنة والغاء هذه الاخيرة . ولكن العرب ما زالوا يذكرون تجنيد الاتراك لهم وموتهم في حروب الامبراطورية (٩٩) . وذكرت تعليقات غربية أخرى من حلب ، في ١٢ شباط و ٣١ أيار ١٩٢٣ ، ان مؤيدي تركيا يمنون انفسهم بان الاتراك سيمنحونهم مقدارا من الحكم الذاتي اكبر مما يمكن أن يمنحهم اياه الانتداب الفرنسي . كما أن الشعور الموالي لتركيا بين سكان حلب خارج اطار الاتراك او من هم من أصل تركي هو ردة فعل ضد الفرنسيين وضد الاوضاع الاقتصادية السيئة لمدينة حلب في عهدهم بسبب فصل هذه المدينة عن اسواقها التقليدية في الاناضول ، وحتى عن بقية المدن السورية ، حين جعلت فرانسا ولاية حلب دولة قائمة بذاتها . وحتى المسيحيين في حلب ، الذين تضرروا كالمسلمين من سوء الوضع الاقتصادي في ظل فرانسا، كانوا يحنون الى وحدة اقتصادية مع الاناضول في ظل الاتراك ، رغم خوفهم من تدفق اللاجئين المسيحيين ، بما فيهم الارمن ، الى حلب من الاناضول(١٠٠) .

قضايا الحدود :

اثارت قضايا الحدود ، بين سورية وتركيا ، كثيرا من الحساسيات في العلاقات بين البلدين . وكانت منطقة الاسكندرونة في طليعة هذه القضايا . وكانت فترة الحكم العربي الفيصلي هادئة بالنسبة لحدود سورية الشمالية لان كلا من الحكومتين ، التركية والعربية الفيصلية ، كانتا منشغلتين بمقاومة الفرنسيين . ولكن الامير فيصل ابدى تخوفه من التحالف البلشفي - التركي ، وشكى الى اللنبي في حزيران ١٩٢٠ من الخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية(١٠١) .

وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية اصدر الجنرال غورو قرارا بتشكيل حكومة مستقلة في ولاية حلب ، اعتبارا من اول ايلول ١٩٢٠ ،تكون عاصمتها حلب . والحق لواء الاسكندرونة الذي كان تابعا للمنطقة الغربية الساحلية الموضوعة من قبل الحلفاء تحت النفوذ الفرنسي ، بحكومة حلب بدءا من ذلك التاريخ ، مع احتفاظه باستقلاله الاداري بموجب القرار الفرنسي رقم ٣١٩ تاريخ ٣١ آب ١٩٢٠ . وعهد باللواء الى متصرف مرتبط بحاكم حلب(١٠٢) .

ثم اصدر غورو تنظيما مؤقتا لدولة حلب نشرته جريدة « حلب » الرسمية بتاريخ ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ . وتقرر ان تشتمل حدودها الادارية على ثلاثة صناجق حلب والاسكندرونة ودير الزور(١٠٣) . وكانت دولة حلب واحدة من اربع دويلات اوجدها الفرنسيون في سورية انذاك ، والثلاث الاخرى هي : دمشق ، بلاد العلويين، ولبنان الكبير .

وفي اتفاقية الهدنة التي وقعتها فرانسا وتركيا في لندن في ١١ آذار ١٩٢١ ، حددت الحدود الشمالية لسورية بانها تبدأ من نقطة على الساحل تبعد حوالي ١٥ ميلا شمالي الاسكندرونة ، وتمر في ميدان اكبس ، ومنها باتجاه الجنوب الشرقي نحو كلس ، ثم شرقا على طول الخط الحديدي حتى نصيبين . واعطي الفرنسيون حق تشغيل الخط بين باياس وميدان اكبس لتامين المواصلات بين حلب والاسكندرونة . وفي اواخر أيار ١٩٢١ ابلغ الاتراك الجنرال غورو ان هذا الاتفاق ليس في صالحهم وطالبوا بمناطق كبرى جنوبي الحدود تشمل الاسكندرونة وحلب . واتبع الاتراك ذلك بتحريك ثلاث فرق عسكرية يبلغ عدد افرادها ١٢,٠٠٠ رجل الى منطقة الحدود . ورافق ذلك ارسال وفود تركية الى الشمال الشرقي من حلب ، والى الغرب من الخط الحديدي بين حلب وحماة ، والى الشرق منه بين حماه وحمص لاثارة المشاكل على الفرنسيين . وخشيت فرانسا من ان تستخدم روسيا البلشفية ، صديقة تركيا هذا التحرك التركي من اجل مصالحها(١٠٤) . وكانت روسيا تمد الكماليين بالسلاح

والعتاد بهدف تشديد قبضتهما معا على جمهورية ارمينيا التي سبق لتركيا ، بموجب معاهدة سيفر، في ١٠ آب ١٩٢٠ ، ان اعترفت بوجودها. وازالة جمهورية أرمينيا يسهل الاتصال بين روسيا وتركيا .

وعمدت فرانسا بفعل عوامل متعددة ، منها عدم احراز أي تقدم عسكري في كيليكيا ضد الكماليين، وتعرضها لخسائر كبيرة في حربها مع الثوار السوريين ـ الامر الذي اثار معارضة داخلية في فرانسا ـ وخشيتها من ازدياد النفوذ البريطاني المؤيد للغزو اليوناني في الاناضول والمسيطر في استانبول ، وانعكاس ذلك على الوجود الفرنسي في سورية ، ومحاولتها الحد من التسرب البلشفي الى تركيا ، عمدت الى توقيع اتفاقية شاملة مع حكومة مصطفى كمال في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ ، عرفت باتفاقية فرانكلين ـ بويون ، وهو اسم المفاوض الفرنسي الذي وقعها .واستاء الحلفاء من هذه الاتفاقية واعتبروها خرقا لمعاهدة سيفر . ولكن الواقع ان الاتفاقية اطلقت يد الكماليين في التفرغ لقتال اليونانيين واحراج موقف الانكليز(١٠٥) . وادت الاتفاقية ، من ناحية اخرى ، الى خوف الارمن والمسيحيين من عاقبة انسحاب الفرنسيين من كيليكيا ، بأكثر مما خشوا سابقا انسحاب بريطانيا الكامل منها في تشرين الثاني ١٩١٩، فأخذوا يهاجرون الى حلب او مرسين ، قبل ان يبدأ الفرنسيون باخلاء كيليكيا في ٤ كانون الثاني ١٩٢٢ . وأدت الهجرة الى حلب الى مشاكل اجتماعية وسياسية هامة .

اعطت اتفاقية انقرة هذه للاتراك امتيازات في لواء الاسكندرونة ، التابع لدولة حلب ، أكثر من تلك التي حصلوا عليها بموجب اتفاقية ١١ اذار ١٩٢١ التي نصت على اقامة ادارة خاصة في منطقة الاسكندرونة(١٠٦) . ونص البند السابع من اتفاقية انقرة على قيام سلطة ادارية خاصة في منطقة الاسكندرونة ، وعلى تمتع السكان الاتراك فيها بتسهيلات لتطوير ثقافتهم ، وعلى الاعتراف بالتركية لغة رسمية الى جانب العربية والفرنسية(١٠٧) . وكانت الاوساط الفرنسية تعتقد ان اقامة الحكم الذاتي في لواء الاسكندرونة لن يضعف من علاقاته الاقتصادية مع حلب التي احتاجته مثلما احتاجها، في هذا المجال ، عبر القرون . والتطور الهام ، على اية حال ، هو الاعتراف برسمية اللغة التركية(١٠٨) . وقد قدر القنصل البريطاني في حلب ، في تقرير له مفصل حول لواء الاسكندرونة ، في ٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، ان نسبة الاتراك في اللواء ٣٨٪ يقابلها ٦٢٪ من العرب على اختلاف مذاهبهم (علويون ٢٨٪ ، سنة ٢٢٪ ، مسيحيون ١٢٪) (١٠٩) .

وبقي أمر اللواء من الناحية القانونية على هذا الوضع ، أي انه يتمتع بادارة خاصة مع ارتباطه بحلب ، ومن خلالها بالسلطات العليا السورية المعنية ، في ظل

الانتداب الفرنسي ، سواء كانت هذه السلطات هي دولة حلب ، أم الاتحاد السوري الذي اعلن في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ . وحين اعلنت الدولة السورية في ١ كانون الثاني ١٩٢٥ ، وضمت دولتي دمشق وحلب ، اخرج الفرنسيون اللواء من تابعيته لحلب وربطوه مباشرة برئيس الدولة السورية ، على ان يحتفظ بالادارة الخاصة به(١١٠) . وبقي أهم تطور في اللواء لصالح الاتراك هو اعتبار التركية لغة رسمية . ويذكر انه في اجتماع المجلس التمثيلي لدولة حلب احتج النواب العرب علىاستخدام بعض نواب انطاكية اللغة التركية . فتدخل المندوب الفرنسي (ركليس) وقال انه نظرا لكوناللغة التركية احدى اللغات الرسمية في اللواء ، بموجب اتفاقية انقرة ، فلا يمكن معارضة نواب تلك المنطقة من استخدامها شريطة ان تكتب سجلات المجلس الرسمية باللغة العربية فقط (١١١) .

ويبدو ان حكومة انقرة لم تكن تسيطر على الغلاة من الكماليين في مناطق الحدود. فلم تكن مثلا اللجان التركية المتطرفة في عنتاب وكلس وأورفه براضية عن الامتيازات التي منحتها فرانسا لتركيا . لذا كانت تدعم الثوار السوريين اللاجئين الى تركيا في استئناف نشاطاتهم ضد الفرنسيين في سورية . كما نظرت الى اتفاقية انقرة على انها قصاصة ورق ، واعلنت انها تتطلع الى اليوم الذي تسلم فيه حلب والاسكندرونة الى تركيا (١١٢) .

ومع ذلك كانت المساعدات العسكرية الفرنسية للكماليين ، في اعقاب اتفاقية انقرة ، تنهال عليهم باتجاه استانبول واضنة ، بطريق الاسكندرونة ، وكذلك عن طريق حلب ومنها الى الحدود التركية ــ العراقية .وكان حجم هذه المساعدات كبيرا اذا ما قيس بتفاصيل العتاد الذي نقله الفرنسيون للاتراك بين آذار وآب ١٩٢٢(١١٣) . وكانت بعثة تركية قد وصلت بيروت ، برئاسة محيي الدين باشا ، فيصيف عام ١٩٢٢، للتباحث مع الفرنسيين في عقد معاهدة جمركية مع سورية . ولكن هدف البعثة الاساسي كان اجراء محادثات عسكرية لاستمرار الدعم الفرنسي للاتراك . وبالمقابل اشتد العداء بين الكماليين وبريطانيا ، بسبب دعمها اليونانيين في حربهم مع تركيا ،الى درجة جعلت احدى صحف بيروت تصف الحرب بين اليونانيين والكماليين انها حرب بين بريطانيا وفرانسا .

وبعد ان هزم الكماليون اليونانيين واستعادوا منهم ازمير في ٩ ايلول ١٩٢٢ ، وقعوا مع الحلفاء ، وعلى راسهم بريطانيا ، هدنة مودانيا في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢ وبموجبها استعادت تركيا سيادتها على استانبول والمضائق وشرقي تراقية . ثم وقعت تركيا معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ التياعترفت فيها الدول الكبرى بسيادةتركيا

على الاناضول وبالغاء نظام الامتيازات الاجنبية . واكدت هذه المعاهدة ما جاء في اتفاقية انقرة بين تركيا وفرانسا في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ من بقاء لـواء الاسكندرونة ضمن الاراضي السورية . وبقي امر مطالبة تركيا بالموصل معلقا في معاهدة لوزان ، واتفق انه اذا لم يتم التوصل الى حل خلال سنة تحال الى تحكيم عصبة الامم .

كان الحصول على الموصل في مقدمة اهتمامات تركيا آنذاك . ويذكر ان الموصل كانت ضمن منطقة النفوذ الفرنسي بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، ولكن الفرنسيين تخلوا عنها للانكليز في كانون الاول ١٩١٨ مقابل حصة من بترول الموصل . وكانت تركيا تطالب بالموصل بحجة ان الانكليز احتلوها في ٣ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وذلك بعد اربعة ايام من انتهاء الحرب مع تركيا واعلان هدنة مودرس . واثار هذا الاحتلال مشكلة اخرى مع الاكراد . ولم ينقطع الاتراك ، ابان حربهم مع اليونان ، من ايلاء قضايا الحدود الجنوبية اهتمامهم . ولكنهم لم يكونوا على استعداد لحل هذه القضايا بالسلاح نظرا لانهماكهم في حروب الاناضول ولانصرافهم للوضع الداخلي. ومع ذلك ، كانوا يمـدون الشيخ السنوسي في اورفه بالمال لشراء الدعم لهم في العراق(١١٤) . كما انهم اشتروا بالمال دعم زعيمين بدويين من قبائل العنزة يسيطران في منطقة دير الزور ـ اورفه ويتحكمان بالطريق بين حلب والعراق ، وهما حاجم ومجحم بن مهيد(١١٥) .

وبعد ان انتصر الاتراك على اليونانيين وجهـوا قوات كبيرة ، اسموها جيش الشرق ، نحو الحدود مع العراق ، كان بعض عتادها فرنسيا نقل بالخط الحديدي من ميناء طرابلس الى حلب ، ومنها الى جرابلس حيث نقل في الفرات ، وبعدها بالخط الحديدي الى الشرق (١١٦) . واشيع آنذاك ، في ايلول١٩٢٢ ، انه اذا ما استعادت تركيا الموصل فان فرانسا ستتخلى لها عن شمال سورية طمعا بالحصول على امتيازات اكبر في بترول الموصل وفي الخطوط الحديدية ، وفي تمديد الكهرباء في كيليكيا ، وان بريطانيا ستكون مشلولة الحركة ، في هذه الجهة ، بسبب انشغالها بهجمات الوهابيين المركزة في الجنوب(١١٧) . وتفسر هذه المعطيات السياسية اشتداد الدعاية الكماليـة في سورية انذاك كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ادى ازدياد الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود السورية والعراقيـة وانتشار الشائعات بين السوريين عن قرب انسحاب الفرنسيين من المناطق الشماليـة واحتلال الاتراك الى خشية كل من فرانسا وبريطانيا من التوسع التركي ، لذا حدث تقارب بين الدولتين ، وتباعد بين فرانسا وتركيا ، واضطرت فرانسا الى ان تصدر بيانا نفت فيه انها ستتخلى عن أي جزء من سورية لتركيا . وازاء الحشود التركية على الحدود السورية توجه الجنرال ديلاموت de Lamothe ، القائد العام للقوات

الفرنسية في منطقة حلب ، الى فلسطين في شهر كانون الاول ١٩٢٢ ، حيث اجتمـع بالجنرال البريطاني تيودور Tudor . وتعطي تقارير الاستخبارات البريطانية ، المبنية على تقارير هيئة الاركان العامة الفرنسية ، بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٢٢ ، تفصيلات ضافية عن اعداد القوات التركية وانواعها واسلحتها واماكن تواجدها ، مـع خرائط تفصيلية لهذه الاماكن ، واسماء قادتها الاتراك(١١٨) .

وعقد اجتماع بين ضابط الارتباط البريطاني في بيروت والجنرال الفرنسي غودو Goudot ، رئيس اركان جيش الشرق ، تباحثا فيه بشأن تبادل المعلومات حـول الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود الشمالية . وابدى الجنرال غودو رغبته بان يتم تعاون وثيق بين الجيشين البريطاني والفرنسي كما كان عليه الحال في الحرب العامة . وقيل انه اذا هاجم الاتراك الموصل فانهم سيهاجمون ايضا شمال شرقي سورية ، وان الجنرال غودو مدرك تماما انه اذا تخلى الانكليز عن الموصل لتركيا فلن يكون باستطاعة الفرنسيين التمسك بالاسكندرونـة وحلب ، والعكس صحيح ايضـا . لذا كـان الفرنسيون آنذاك يعارضون بشدة التخلي عن أي جزء من الاراضي السورية . وليعيق الفرنسيون نقل الجنود الاتراك الى الحدود السورية طلبت السلطات العسكريـة الفرنسية من شركة فرنسية (كانت ستمنح امتياز اصلاح وتشغيل خط حديـد بغداد) الامتناع عن اصلاح الجزء المعطل من الخط في جبال الامانوس بفعل احـداث ١٩٢٠ – ١٩٢١ (١١٩) .

وفي تقرير للملحق العسكري البريطاني في باريس ، ارفق برسالة السـفير البريطاني فيها بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩٢٢ ، ذكر انه اجتمع برئيس دائرة الاستخبارات العسكرية الفرنسية وعلم منه انه بنتيجة الضائقة الاقتصادية في فرنسا فقد خفضت جيش الشرق من ٣٥ الف الى ٢٦,٥٠٠ جندي ، بما فيهم اعداد الفرقـة السوريـة المقدرة بـ ٦,٠٠٠ جندي ، وذلك اعتبارا من أول كانون الثاني ١٩٢٣ ، شريطة ان تبقى حدود سورية واوضاع الامن فيها هادئة على ما هي عليه الان ، وعلاقات فرنسا مـع تركيا ودية . اما اذا ساءت هذه العلاقات فسيزاد عدد الجيش . واضاف المسؤول الفرنسي ان بلاده حين وجدت ان قدرة جيش الشرق لن تمكنه من مقاومة الكماليين في كيليكيا في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، وتحت الحاح الضائقة الاقتصادية ، قررت الانسحاب من المناطق التركية بموجب اتفاقية انقرة . وباستتباب السـلام مع الاتراك تقـرر تخفيض جيش الشرق الى اعداده الحالية . وحين سئل المسؤول الفرنسي عن التخلي عن مناطق في سورية لتركيا نفى ذلك بشدة وقال ان فرنسا مؤتمنة على سورية مـن قبل عصبة الامم . ونبه الى ضرورة عدم تخلي بريطانيا عن الموصل لتركيا لان ذلك يجعل من الصعب على فرنسا عدم تسليم الاسكندرونة ، والعكس صحيح . ورحبت

السلطات الفرنسية المدنية والعسكرية في سورية بهذا الموقف الفرنسي في العاصمة من تركيا(١٢٠) ، وشددت من قبضتها ضد ازدياد النفوذ التركي والدعاية الكمالية في سورية كما سبق القول .

وفي الجانب التركي ، جرت مناقشات في المجلس الكبير في انقرة في كانون الاول ١٩٢٢ حول الحدود الجنوبية لتركيا ، حددت فيها المخططات التركية من قضايا الحدود . وشنت الصحف في كيليكيا حملة تطالب بمناطق الاسكندرونة وانطاكية . وذكرت هذه الصحف ان الحدود التي رسمتها اتفاقية انقرة غير منطقية لانها تترك، على حد قولها ، نصف مليون تركي في سورية . واتهمت فرانسا بعدم اعترافها بالمطالب التركية ، وبايجاد الزاس - لورين في سورية . وردت الصحف السورية بان ارقام السكان التي يوردها الاتراك خيالية ، وان عدد سكان لواء الاسكندرونة ٢١٢٫٠٠٠ نسمة منهم ٨٧الف تركي وتركماني والباقون هم عرب(١٢١) .

وازاء هذا الموقف التركي ازداد التقارب الفرنسي - الانكليزي ، وقام الجنرال تيودور بزيارة دمشق في ١١ نيسان ١٩٢٣ كمرافق رسمي لفريق رياضي وفي الواقع للتباحث مع الضباط الفرنسيين حول تنسيق الجهود العسكرية على الحدود الشمالية واثر مغادرته دمشق توجهت تعزيزات فرنسية الى الحدود الشمالية(١٢٢).

وسمح الاتراك لمجموعات الثوار السوريين اللاجئين في اراضيهم باجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين في شمال سورية .واشتدت هذه الهجمات بدءا من صيف عام ١٩٢٣ واستمرت في عام ١٩٢٤ . وهذا ما تؤكده ايضا مذكرات هؤلاء الثوار . وقام عطيل اسقاطي ورفاقه من المجاهدين الثوار بعمليات ضد الفرنسيين في منطقتي انطاكية وجبل الزاوية ،كما قام مصطفى الحاج حسين ونجيب عويد ونجيب البيطار بعمليات اخرى في منطقة ادلب . وهاجم يوسف السعدون صندوق مالية مملحة الجبول(١٢٣). واشارت الصحف التركية ، الواردة الى حلب ، الى مناطق الاضطرابات هذه بانها « الجبهة » والى الثوار السوريين بانهم « اخوة وطن » يحاربون في سبيل الاستقلال والوحدة مع تركيا(١٢٤) . وبازدياد العداء بين تركيا وفرانسا ، اشتدت الدعوة الى الجامعة الاسلامية في سورية ، كما سبق القول ، وظهرت ملصقات في حلب في حزيران ١٩٢٤ تتحدث احداها عن المومسات وشرائهن العطور الاجنبية والامراض التي يسببنها وتهيب بالناس على اختلاف مذهبهم ان يلبسوا الملابس البسيطة(١٢٧) .

وانقسمت الصحافة السورية فيما يتعلق بتأزم الوضع على الحدود . وقد نقلت صحيفة « فتى العرب » الدمشقية ، الموالية لتركيا ، في عددها بتاريخ ١١ ايار ١٩٢٤

اقوال الصحف التركية واقترحت ضرورة اقامة حدود منطقية بين سورية وتركيا . واستعمال كلمة « منطقية » فيه الكثير من الغموض ويحتمل اكثر من تفسير . اما صحيفة « التقدم » الحلبية ، وهي من ابرز الصحف المستقلة ، فترى ان لا تعلق اهمية كبيرة على المطالب التركية في سورية لان الانتداب قائم على سلطة الدول وان فرانسا قادرة على حماية البلاد(١٢٦) . وفي الجلسة الثالثة لمجلس الاتحاد السوري ، كما اوردت جريدة « الف باء » الدمشقية بعددها رقم ١١١٩ وتاريخ ١٨ ايار ١٩٢٤، وافق المجلس على ارسال برقية الى الجنرال ويغان يبين له فيها اساليب الاتراك آنذاك ، وهي اشبه باساليبهم في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، للاستيلاء على اراضي سورية ، ويحثه ، بموجب ميثاق الانتداب ، ان يدافع عن حدود سورية وعن اراضيها وشعبها (١٢٧) .

ثم نشبت ثورة كردية كبرى في شباط ١٩٢٥ في المناطق الشرقية من الاناضول بزعامة شيخ الطريقة النقشبندية . وكان الاكراد يحاولون اقامة دولة خاصة بهم . وادعى قادة الثورة انهم ناقمون على علمانية الكماليين والغائهم الخلافة . وشكت تركيا ان اثارة هذه المشكلة تم بتحريض من بريطانيا لالهائها عن المطالبة بالموصل . ونقلت تركيا اكثر من ٣٥٫٠٠٠ جندي عبر سورية ، بطريق الخط الحديدي المار في كيليكيا وشمال سورية . وتعاون الفرنسيون من جديد مع الاتراك باعطائهم التسهيلات اللازمة لنقل الجنود والعتاد ، وحتى بتزويدهم بالطائرات . وقضى الاتراك على الثورة في نيسان ١٩٢٥ .

وكان هذا الدعم الفرنسي لتركيا مؤقتا املاه خطر ثورة الاكراد من ناحية ونذر قيام الثورة السورية الكبرى من ناحية اخرى . واضطرت فرانسا الى اجراء تنقلات بين قواتها على الحدود الشمالية وسحبت الجنود المراكشيين من حلب ووجهتهم الى الجنوب واحلت مكانهم جنودا من مدغشقر . وساءت العلاقات الفرنسية ــ البريطانية آنذاك بسبب اتهام فرانسابريطانيا بتشجيع الثورة ضدها فيسورية . وكانتبريطانيا قبل ذلك قد حاولت التقرب من تركيا وعرضت عليها مساعدتها فيسوريةمقابلالتخلي عن الموصل . وقد نشرت صحيفة « اوم ليبر » الفرنسية Homme Libre بعددها بتاريخ ٢٧ ايار ١٩٢٤ مقالا بعنوان « مؤامرة انكليزية ــ تركية ضد فرانسا في سورية » ضمنتها برقية من استانبول تقول ان الحكومة البريطانية تعرض مساعدة تركيا في سورية والبلقان مقابل موافقة تركيا على القبول بوجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بالموصل(١٢٨) .

واثارت تركيا من جديد قضية الحدود بينها وبين سورية . وكانت لجنة سورية

برئاسة الكولونيل ماي Mailles قد تشكلت قبل اربع سنوات ، بموجب المادة الثامنة من الاتفاقية الفرنسية ـ التركية في انقرة ، ولكنها لم تقم باكثر من عقد الاجتماعات . وتوجه الكولونيل ماي الان الى انقرة بشان قضية الحدود وقيل انه احرز بعض التقدم .وقام فرانكلين ـ بويون هو الاخر بزيارة الى انقرة لهذا الفرض . وعينت تركيا احد ضباطها الاحتياط وهو طلعت بك قنصلا لها في حلب (١٢٩) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة السورية في اوجها برزت مشكلة اخرى بين الاتراك وسورية حول حق حلب بحصة من مياه نهر قويق الذي ينبع من الاناضول وتشكل مياهه المصدر الرئيسي لري بساتين حلب . وكان الاتراك قد حولوا مياه النهر عن حلب .وسبق ان تقرر بموجب اتفاق فرنسي ـ تركي ان تحصل حلب على حصة من مياه هذا النهر مقابل حصة اخرى لتركيا . ولم تفد زيارة لجنة رسمية من حلب الى كلس للتباحث في هذا الامر (١٣٠) .

واتجهت الانظار في هذه الاثناء الى قضية الموصل والقرار الذي ستتخذه بشانها عصبة الامم . وكانت معاهدة لوزان في ١٩٢٣ قد اقرت بقاء الموصل تحت الاحتلال البريطاني الى ان يتم التوصل الى اتفاق بشانها .واذا لم يتم الاتفاق خلال سنة فستعرض القضية على عصبة الامم للتحكيم . وبالفعل رفعت قضية الموصل الى العصبة في عام ١٩٢٥ . وعينت لجنة دولية لمعالجتها . وقامت تركيا بنقل قوات عسكرية كبيرة الى جبهة الموصل بواسطة الخط الحديدي في شمال سورية . وكانت فرانسا آنذاك منشغلة بالثورة السورية ضدها . واحتجت بريطانيا لدى فرانسا لسماحها بمرور القوات التركية في الاراضي السورية (١٣١) .

ومما يدل على ترابط الاحداث في المنطقة كلها ما نشرته صحيفة سان فيل Sans Fil الباريسية الواسعة الاطلاع حول قضايا الشرق الادنى ، في عددها الصادر بتاريخ ١٨ ايلول ١٩٢٥ ، بان الوضع في سورية مرتبط بقضية الموصل التي ستملي على تركيا ما ستتخذه بشأن القضية السورية . فاذا جاء قرار لجنة التحكيم في جنيف لصالح ضم الموصل الى تركيا فالثورة السورية ستسير ببطء ، أي ان تركيا لن تدعمها واذا كان الامر عكس ذلك فسيكون رد الفعل التركي موازيا لما ستتخذه في الموصل . واضافت الصحيفة ان عشرين الف مقاتل سوري مسلحين ومنظمين في لجان موزعة على انحاء البلاد ، بادارة لجنة سورية ثورية تقيم خارجها ، سيشاركون في الثورة ضد فرانسا (١٣٢) .

جاء تقرير لجنة التحكيم التي شكلتها عصبة الامم للنظر في قضية الموصل لصالح

بريطانيا . وبناء على هذا التقرير وافق مجلس عصبة الامم في ١٦ كانون الاول ١٩٢٥ على اعطاء الموصل للعراق شريطة ان يستمر الانتداب البريطاني على العراق لمدة خمس وعشرين سنة . واحتجت تركيا بان قرار المجلس كان لارضاء بريطانيا لا للتحكيم في الخلاف . وردت بان عقدت في اليوم التالي ، في ١٧ كانون الاول ، اتفاقية جديدة من الصداقة وعدم الاعتداء مع الاتحاد السوفياتي.

وطرأ تحول في موقف تركيا من الثوار السوريين اللاجئين اليها فبعد ان مانعت في تايد هؤلاء للثورة السورية الكبرى عند قيامها سمحت لهم ، بفعل هذه التطورات ، في اجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين(١٣٣) . ونشرت صحيفتان في بيروت هما: «لاسيري La Syrie » ، وهي صحيفة شبه رسمية تصدر بالفرنسية ، وصحيفة « لسان الحال » التي تنطق بلسان الماسونيين الاحرار من العرب ، مقالين متشابهين بتاريخ ١٧ كانون الاول ١٩٢٥ . ويشير المقالان الى محاولة لاقامة تحالف بين الثوار في جنوب سورية والاتراك لمضايقة الفرنسيين في شمال سورية وفي وسطها ، في منطقة حماة ــ حمص (١٣٤) .

وقد أرسل القائمون بالثورة السورية مبعوثين لتنظيم الثوار في المنطقة الشمالية ونشر الثورة فيها ضد فرانسا .وذكرت الصحف ان المؤتمر السوري ــ الفلسطيني كلف يحيى بك حياتي ، وهو من دمشق ومعروف بميوله للكماليين ،بتعبئة ثوار الشمال والاتصال بتركيا . واشيع ان فرانسا القت القبض على مبعوثيه في الشمال في اوائل كانون الاول ١٩٢٥ .وذكر ان يحيى بك حياتي سافر الى انقرة والتقى مع مصطفى كمال والسفير الروسي فيها . ولم تتوافر معلومات حول النتائج التي اقترنت بها محادثاته(١٣٥) .

وتوجه المفوض السامي الفرنسي الجديد هنري دي جوفنيل الى حلب في ١٠ كانون الاول ١٩٢٥ ، بعد ايام من وصوله الى بيروت ، ليحول دون انضمام المنطقة الشمالية الى الثورة السورية . ووصل الى حلب في الوقت نفسه رئيس الدولة السورية صبحي بركات للمهمة ذاتها . وبعد ذلك بايام استقال صبحي بركات من منصبه في ٢١ كانون الاول احتجاجا على السياسية الفرنسية . واستقال كذلك في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٦ حاكم ولاية حلب نوري باشا الملاح احتجاجا على قمع الفرنسيين التظاهرات الوطنية فيها(١٣٦) .

وكانت الحكومة الكمالية ، في هذه الاثناء ، مهتمة بقضايا الاصلاح الداخلي وباكتشاف مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال في ١٥ حزيران ١٩٢٦(١٣٧) ، لذا اقتصر عملها،

بالنسبة للثورة السورية ، على تشجيع الثوار السوريين اللاجئين اليها في العمل ضد فرانسا . ويروي يوسف السعدون في مذكراته تفاصيل الهجمات التي قام بها ورفاقه في الجهاد ، مثل نجيب عويد ومصطفى الحاج حسين وعقيل اسقاطي ، عبر الحدود السورية في المناطق الشمالية . ويقول السعدون انه ارسل اكثر من كتاب الى زعماء الثورة للحصول على الخرطوش ولم يتلق جوابا ، ولو فعلوا ، كما قال ، لقطع علاقته وثواره بالاتراك الذين كانوا يلحون عليهم للتخلي عن نشاطهم وعودتهم . وعبثا حاول الاتصال بكبار الاقطاعيين في المنطقة لمده بالمعونة الضرورية . واضطر هؤلاء الثوار ، تحت ضغط الفرنسيين ، الى العودة الى تركيا في ٢٨ نيسان ١٩٢٦ . وهكذا انتهت سلسلة من الثورات الهامة في شمال سورية ، بدأت عام ١٩١٨ ، ولم تتمكن الان بسبب ضعفها وانقطاع الدعم عنها من توحيد جهودها مع الثورة السورية الكبرى(١٣٨) .

وعادت المفاوضات من جديد بين فرانسا وتركيا لتحديد الحدود . وسافر الى انقرة لهذه الغاية المفوض السامي الفرنسي دي جوفنيل ، وتوصل الطرفان الى توقيع اتفاقية بينهما في انقرة في ٣٠ ايار ١٩٢٦ ، وقعها عن فرانسا سفيرها في انقرة البير سارو A. Sarraut ، وعن تركيا وزير خارجيتها توفيق رشدي بك . وجاء في عنوان الاتفاقية انها اتفاقية صداقة وحسن جوار تركي ـ سوري . كما جاء في مقدمتها انها مبنية على اتفاقية انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ . وقد وافقت فرانسا على الاتفاقية ونشرتها جريدتها الرسمية في ٢٧ آب ١٩٢٦ . وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية انقرة الثانية ، وقد نصت على تشكيل لجنة فرنسية ـ تركية لتخطيط الحدود على اساس ما ورد في اتفاقية انقرة الاولى وما اتفق عليه بموجب البروتوكولات الملحقة بالاتفاقية الجديدة . وبموجب البروتوكول رقم ١ الملحق بالاتفاقية والذي سبق ان وقع عليه دي جوفنيل وتوفيق رشدي بك في انقرة في ١٨ شباط ١٩٢٦ ، حول تحديد الحدود ، اعتمدت اتفاقية انقرة الاولى ولكن ادخلت عليها بعض التعديلات لصالح تركيا بحيث امتدت الحدود داخل الاراضي السورية لبضع كيلو مترات في بعض المناطق . وتبدأ الحدود من البحر جنوبي مصب نهر باياس بكيلو متر واحد ، كما انها تمتد جنوبا بمقدار سبعة كيلو مترات عندمدينة كلس . وجرت مثل هذه التعديلات الطفيفة على نقاط اخرى من الحدود (١٣٩) .

وقد استاء السوريون من هذه التعديلات كما استاؤوا اصلا من استبعادهم من المشاركة في المفاوضات التي ادت الى توقيع اتفاقية الحدود هذه والتي ناقشت امور بلادهم(١٤٠) . وفي رسالة رفعها احسان الجابري والامير شكيب ارسلان ، بصفتهما مندوبين عن المؤتمر السوري ـ الفلسطيني والاحزاب المطالبة بالاستقلال السوري ، الى رئيس مجلس عصبة الامم واعضائه في جنيف ، بتاريخ ١٥ آذار ١٩٢٦ ، احتجا على

عقد فرانسا وتركيا الاتفاقيات على حساب الارض السورية وكانها ارض الجمهورية الفرنسية ، وطالبا بان تشرك سورية في كل الاتفاقيات التي تتعلق بها (١٤١) .

اما لواء الاسكندرونة فقد سبق ان انفك ارتباطه بدولة حلب بموجب المرسوم التنظيمي الذي اصدره الجنرال ويغان برقم ٢٩٨٠ وتاريخ ٥ كانون الاول ١٩٢٤ ، والحق بدولة سورية ، التي تشكلت من دولتي حلب ودمشق ، اعتبارا من اول كانون الثاني ١٩٢٥ . واتخذ مجلس اللواء التمثيلي قرارا في ٢٠ اذار ١٩٢٦ باعلان استقلاله عن دولة سورية وتشكيله دولة مستقلة ، وطالب المفوض السامي الفرنسي بالموافقة على ذلك . وخشيت سورية ان يكون ذلك مقدمة لضم اللواء الى تركيا . ولكن هذا المجلس عاد وعدل عن قراره باغلبية تسعة اصوات مقابل صوت واحد ، وذلك بعد اقتناعه بحجج مندوبي رئيس دولة سورية الداماد احمد نامي وهما : يوسف الحكيم وزير العدل وشاكر نعمت الشعباني وزير المالية . وبقي اللواء محتفظا باستقلاله الاداري(١٤٢) .

وبالرغم من كل هذه التسويات كانت قضايا الحدود تثار بين الحين والاخر واللجنة المشتركة الفرنسية ــ التركية تنعقد هي الاخرى بين الحين والاخر . وعين لرئاسة اللجنة جنرال دانمركي زار حلب وانقرة في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، ثم استقال بسبب صعوبة الوصول الى حل المشاكل المعلقة . وشكلت لجنة اخرى في اذار من العام التالي(١٤٣) .

وجرت محاولات ، في هذه الاثناء ، لتبادل الرعايا بين البلدين بموجب اتفاقية انقرة الثانية وملحقاتها . وقدر عدد السوريين في تركيا في عام ١٩٢٧ ، بالفين ، والاتراك في سورية بخمسة عشر الفا ، وذلك بعد ان اعطوا حق اختيار الجنسية التي يرغبون بها (١٤٤) .

وبهذا نكون قد استعرضنا مرحلة حافلة بالتطورات في العلاقات السورية ــ التركية من خلال الاوضاع الدولية المستجدة في المنطقة .

الهوامشــــ

(١) انظر الترجمة الانكليزية لهذه الرسائل في :
Foreign Office dispatches (FO) , 371,3384 E 6758, Director of Military Intelligence , 15 October 1918 .

(٢) يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ط ٢ ، بيروت ،١٩٨٠، ص١٥-١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٨، ٥٨، ١١٤،١٢٣ - ١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ . وانظر نص الخطاب الكامل في : ساطع الحصري ، يوم ميســـلون ، بيروت ، ١٩٤٧ .

(٦) كان يطلق هذا اللقب ، عند نشأة الامارة العثمانية ، على امارات التركمان الغزاة في الاناضول ، ومنها امارة عثمان ، وذلك منذ القرن الحادي عشر ، لان هذه الامارات كانت تغزو اعداء الدين .

(٧) للحصول على تفاصيل وافية حول هذه التطورات انظر :
B.Lewis , **The Emergence of Modern Turkey,** 2 nd ed.,Pb., OUP 1966, PP. 238 - 264 ; G.Lenczowski, **The Middle East in World Affairs** , 4 th ed . Pb ., Cornell , 1981 , PP . 98-107 .

(٨) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٧ ، ص ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٣ .

(٩) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٩ (بعض سجلات المحاكم الاخرى مدرجة تحت عنوان المحاكم التجارية).

(١٠) انظر نص الكتاب والتواقيع في :
FO, 371,4181 E 88766, C'Ple , 28 May 1919 .

(١١) انظر النص الكامل للاتفاقية بالفرنسية وتقرير المخابرات البريطانية حولها في :
FO, 371, 4233 E 6779 , I.C. 537, (C'Ple) 3 August 1919 .
(Traité Secret entre les Gouvernements Turc et Arabe Signé par Emir Faycal et Moustafa Kémal le 16 Juin 1919 à Alep) .

(١٢) FO, 371 , 4182 E 6778 , B.I. 4963, (C'ple) 16 August 1919 (Report dated 24. 7.19 , titled Turkish - Arab Pan - Islamic Activities-)-.

(١٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب : الدكتورة خيرية قاسمية ، الحكومة العربيـة في دمشق بـين ١٩١٨ - ١٩٢٠ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ ، ص١٥٤ وبخاصة الهامش ١ وانظر تفاصيل اخرى في :
Zeine N.Zeine , **The Struggle for Arab Independence** , Beirut, 1960 , PP, 147, n.2, 148.

(١٤) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ٧٤ ، انظر نص الخطاب في الحصرى : ص ٢١٣ ــ ٢١٧ .

(١٥) National Archives (Washington)(NAW), Records of the Department of State , M 722 , roll No. 8 , Dispatch number 463 , Aleppo . 28 February 1920 .

(١٦) FO , 371 , 4233 E 6778 (Translation of a Proclamation issued by the Mustapha Kemal Party in Aleppo about 9/10/19) .

(١٧) FO , 371 , 4186 E 6749 , Damascus , 15 October 1919 .
NAW,M 722, r. 8. No . 498 , Aleppo, 1 May 1920 .

(١٩) NAW,M 722, r.8, Aleppo, 14 June 1920, C'ple, 30 June 1920.

(٢٠) NAW ,M 722, r.8, No. 520, Aleppo, 17 June 1920.

(٢١) الحصري ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، ١٦٥ ــ ١٧٨ ، الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي،١٧٩ــ١٨٠ .

(٢٢) FO , 371 , 5036 E 7277/2/44 , Cairo, 23 June 1920 .

(٢٣) NAW , M 722 , r . 8. No. 526, Aleppo, 3 July 1920 .

(٢٤) NAW, M 722, r. 8, No. 598, Aleppo , 17 December , 1920.

(٢٥) NAW, M 722, r.8, No. 600, Aleppo, 20 December , 1920 .
FO , 371, 6453 E 854/117. 89, Beirut, 30 December 1920.

(٢٦) انظر نص الاتفاقية في :
Ministére des Affaires Etrangères (AE),Quai d'Orsay Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, Paris, vol. 35, pp. 182-182, E. 313. 1., Londres, 11 mars 1921 .

(٢٧) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٦٨ ، سورية والانتداب الفرنسي، بيروت ، ١٩٨٣ ،ص ٨٦ ، ١٢٧ .

(٢٨) انظر تفاصيل ذلك في :ادهم آل الجندي ،تاريخ الثورات السورية فيعهد الانتداب الفرنسي ، دمشق ١٩٦٠، ص ١٢ ، ١٣٠ ، يوسف السعدون ، مذكرات يوسف السعدون عن ثورة هنانو ، دارالوثائق التاريخية ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢١ ، ص٤ ــ ٥،٦ ــ ١١ (مكرر) ، ابراهيم الشـفوري ، مذكرات ابراهيم الشفوري عن ثورة هنانو ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢٢،ص ٦ــ٧ .

(٢٩) FO, 371, 5035 E 4459/2/44, Cairo, 20 April 1920 .

(٣٠) الجندي ، ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٦٤ ــ ٦٦ ، ١٣٩ ، السعدون ، ص١١ ، الشفوري ، ص ٢ ، الحكيـــم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٦٨ .

(٣٢) FO, 371, 5039 E 10316, Cairo, 12 August 1920 (including dispatch from American Consular Service in charge of British interests,Aleppo, 30 July 1920) .

(٣٣) الشفوري ، ص ١٠ــ١١ ، الجندي ، ص ٧٤ .

(٣٤) السعدون ، ص ١٣

(٣٥) الشفوري ، ص ١٠ - ١١ ، الجندي ، ص ٧١ .

(٣٦) الشفوري ، ص ١٢-١٣ ، الجندي ، ص ٧٤ .

(٣٧) الشفوري ، ص ٤٢ .

(٣٨) الجندي ، ص ٧٥ ، ٧٩ - ٨٠ .

(٣٩) السعدون ، ص٣٦ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ١٢-١٣

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٣٥، الشفوري ص ٤٢ - ٤٣ ، الجندي ص ٩٠-٩١ .

(٤٣) الجندي ، ص ٣٩-٤٠ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الشفوري ، ص ٢٦-٢٧ ، ٣١ ، ٣٣، السعدون ، ص ٢٢، ٢٧، ٣٢ .

(٤٥) NAW, M722, r. 8, No. 634 , Aleppo , 31 March 1921.

(٤٦) السعدون ، ص ٤٥ - ٦١ ، الشفوري ، ص ٤١ ، الجندي ، ص ٥١.
وانظر ايضا هامش ٢٦ .

(٤٧) ص، ٤١ .

(٤٨) FO, 371 , 6454 E 5715/117/89 , Beirut, 3 May 1921 .

(٤٩) AE , Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 117 , Beyrouth, 5 juin 1922 .

(٥٠) FO , 371, 3558 E 1085, Paris , 7 November 1925 .

(٥١) الشفوري ، ص ٣٦-٣٩ ، السعدون ، ص ٣٠ .

(٥٢) الشفوري ، ص ٢١-٤٢ ، الجندي ، ص ٤٩- ٥٠.

(٥٣) الجندي ، ص ١٢٥

(٥٤) ص ٤١ .

(٥٥) FO, 371, 6455 E 3362/117/80 , Beirut , 1 August 1921 , 7845 E 597 /274/89, Colonial Office to Foreign Office , 16 January 1922; AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 36, P. 162 .

(٥٦) AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 36, P.161 .

(٥٧) الشفوري ، ص ٣٦ - ٣٩ ، السعدون ، ص ٣٠، غالب العياشي ، الايضاحات السياسية، بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١٤ .

(٥٨) الجندي ، ص ٤٠-٤٣ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٤-٥٧. انظر تفاصيل ذلك في :
FO, 371, 945 E 9810/117/89, Paris, 29 August 1921 (**Le Temps**, Paris, 26 August) , E 11026/117/89, Beirut, 24 September 1921, E 11482/117/89, Beirut, 5 October 1921 ; AE, Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban , vol. 40, p. 138, Beyrouth, 5 juin 1922.

(٦٠) المصدر الفرنسي السابق ، وانظر ايضا :
FO, 371 , 7847, p.69 (Translation of French Report on the situation in Syria and Cilicia, 26 th May to 10 th June 1922) .

(٦١) الشفودي ، ص ٤٤-٤٥

(٦٢) السعدون ، ص ٤٥ - ٤٧ .

(٦٣) « المنار » مجلد ٢٢، جزء ١٠ (١٣٤٠/١٩٢١) ، ص ٧٤٢ .
وانظر ايضا :
FO, 371, 4653 E 3013/117/89, Beirut, 21 February 1921

(٦٤) AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 35, p.138, IV annexe, Télégramme à M. R. de Caix, HCF , Beyrouth, Homs, 2 décembre 1920.

(٦٥) FO, 371, 6455 E 6280/117/89, Damascus, 18 May 1921 .

(٦٦) FO, 371, 6454 E 6280/117/89, secret Intelligence Service Report, 25 May 1921.

(٦٧) FO, 371, 6455 E 9105/117/89, Aleppo, 23 July 1921 .

(٦٨) FO, 371, 6455 E 9296/117/89, Damascus, 29 July 1921, 6456 E 9657 /117/89, Damascus, 9 August 1921 , 6457 E 11532/ 117 / 89 , Damascus, 27 September 1921.

(٦٩) FO, 371, 6463 E 11983/11978/89, Damascus, 17 October 1921.

(٧٠) FO, 371, 6463 E 12243/11978/89, Damascus, 24 October 1921.

(٧١) FO, 371, 6462 E 12485/11978/89, E 14239/11978/89, Damascus, 9 December 1921.

(٧٢) FO, 371, 6463 E 14236/11978/89, Damascus, 13 December 1921.

(٧٣) FO, 371, E 13741/13741/89, Damascus, 24 November 1921.

(٧٤) الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص ١٩-٢٠ .

(٧٥) FO, 371, 7847 E 6605, Damascus , 19 June 1922.

(٧٦) FO, 371, 9056 E 2857/2857/89, Damascus, 1 March 1923.

(٧٧) **FO, 371, 7847 E 6857,** 274/ 89, Damascus , 27 June 1922;
NAW , M722, r.11, Damascus 14 August 1922.

(٧٨) NAW, M722, r 8, No. 284, Damascus, 29 September 1922.

(٧٩) FO, 371, 7849 E 14041/274/89, Damascus, 30 November 1922.

(٨٠) NAW, M722, r.8, No. 780, Aleppo, 3 March 1922, No. 844, Aleppo, 28 August 1922 ; FO , 371 , 7848 E 9298/274/ 89 , War Office , 14 September 1922.

(٨١) NAW , M 722, r.8,Telegram, Beirut, 30 September 1922,Damascus, 29 September 1922, No. 854, Aleppo, 29 September 1922, No. 802, Beirut, 10 October 1922.

(٨٢) FO, 371, 7848 E 10963/274/89, Aleppo, 27 September 1922.

(٨٣) FO, 371, 7848 E 10967/274/89, Damascus, 23 September 1922.

(٨٤) FO, 371, 9053 E 867/867/89, Beirut, 1 January 1923 .

(٨٥) FO, 371, 7846 E 2765/274/89, Damascus, 23 February 1922, 7847 7847 5510/274/89, Damascus, 13 May 1922 .

(٨٦) NAW, M 722, r.8, No. 292, Damascus, 13 October 1922.

(٨٧) NAW, M722, r.8, No. 309, Damascus, 16 November 1922.

(٨٨) FO, 371, 7849 E 13430/274/89, Damascus , 16 November 1922.

(٨٩) FO, 371, 7847 E 5759, Beirut, 25 May 1922 , 7874 , PP. 30 - 33 (Translation of French Secret Report on the Situation inSyria and Cilicia for the Period lst to 20 th May , 1922) .

(٩٠) NAW , M 722 , r. 11 , No. 358 , Damascus, 13 February 1922 .

(٩١) FO , 371 , 9055 E 2345/2204/89 , Aleppo , 12 February 1923 .

(٩٢) FO , 371 , 9053 E 6332/867/89 , Aleppo , 31 May 1923 , E 9385/ 867/89 , Aleppo , 5 September 1923 , E 9623/867/89 , Aleppo , 10 September 1923 .

(٩٣) FO , 371 , 7849 E 14040/274/89 , Beirut , 4 December 1922 .

(٩٣) « المنار » مجلد ٢٣، جزء ٩ (١٢٤١/١٩٢٢) ص ٧١٦ ـ ٧١٨ .

(٩٥) « العرفان » ، مجلد ٩ (١٣٤٢/١٩٢٢) ، صر ٦٢٢ـ٦٢٧.

(٩٦) المجلد ٨ (١٣٤١ ـ ١٣٤٢/١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) ، ص ١٥٨ .

(٩٧) FO , 371 , 10160 E 4178/218/89 , Aleppo , 30 April , 1924 .

(٩٨) FO , 371 , 10164 E 4171/4171/89 , Damascus , 24 April 1924 .

(٩٩) FO , 371 , 9053 E 867/867/89 , Beirut , 10 January 1923 .

(١٠٠) FO , 371 , 9055 E 2345/2204/89 , Aleppo , 12 February 1923 , 9053 E 6332/867/89 , Aleppo , 31 May 1923 .

(١٠١) FO , 371 , 5036 E 2277/2/44 , Cairo , 23 June 1920 .

(١٠٢) FO , 371 , 5040 E 12976/2/44 , Beirut , 5 October 1920 .

(١٠٣) FO , 371 , 6453 E 485/117/89 , (Cairo) , 30 December 1920 .

(١٠٤) FO , 371 , 6455 E 8309 , Enclosure 7 , 7 June 1921 .

(١٠٥) Lenczowski , P. 105 , NAW , M 722 , r. 8 , No, 715 , Aleppo , 9 November 1921 .

(١٠٦) انظر تفاصيل اتفاقية اذار في :
AE , Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban ,Vol 125, P. 182 , Londres , 11 Mars 1921.

(١٠٧) انظر حول التطورات التي ادت الى هذه الاتفاقية : افاديس سانجيان ، سنجق الاسكندرون، (مترجم) ، دمشق ، ١٩٨٠، ص١٥-٢٠.

(١٠٨) انظر تفصيلات اخرى وتعليقات حول الصنجق في :
FO , 371 , 7846 E 4800/274/89 , Beirut , 28 April 1922 (Enclosure 3 , No. 1 , P. 5 , Extract from the «Syrie» of 9 March 1922 , entitled « 1 , Autonomie du Sandjak d , Alexandrette et le Recensement»).

(١٠٩) FO , 371 , 9053 E 12159/876/89 , Aleppo , 7 November 1923 .

(١١٠) الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ، ص ١١٠ .

(١١١) FO , 371 , 9053 E 12168/867/89 , Beirut , 12 December 1922 .

(١١٢) FO , 371 , 7847 , P. 30 (Translation of French Secret Report on the Situation in Syria and Cilicia for the Period lst to 20th May, 1922).

(١١٣) FO , 371 , 7848 E 9298/274/89 , War Office, 14 September 1922 (Enclosure No.1, Report on the Situation in Syria, dated 22August 1922) , E 10961/274/89, Beirut, 3 October 1922 ; NAW , M722 , r.8, No. 780 , Aleppo , 30 March 1922.

(١١٤) NAW , M 722 , r.8, No. 780, Aleppo, 30 March 1922.

(١١٥) NAW, M 722, r.8, No. 836, Aleppo, 29 July 1922 .

(١١٦) NAW, M 722, r.8, No, 854, Aleppo, 29 Septamber 1922 .

(١١٧) NAW , M722, r.8, No. 84, Damascus, 29 September 1922.

(١١٨) NAW , M 722, r.9, Beirut , 27 December 1922 (Enclosed Order of Battle of Turkish Forces up to 6 th December 1922) .

(١١٩) NAW , M 722, r. 9, Beirut , 22 December 1922 (British Liaison Officer Report , B. L./3/35, Beyrouth) .

(١٢٠) **Ibid** ., (British Liaison Officer Report, B. L./5/2.

(١٢١) NAW, M 722, r. 9, No. 936, Beirut, 27 February 1923.

(١٢٢) NAW, M 722, r. 9, No. 12, Damascus, 20 April 1923.

(١٢٣) الشفوري، ص٤٨-٥١، السعدون ، ص ٥٧، وانظر تفاصيل اخرى هامة عن هجمات الثوارعلى الفرنسيين في :

NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923, No. 997, Aleppo 25 July 1923, No. 1003 , Aleppo , 2 August 1923, No, 3,Aleppo, 24 August 1923; Aleppo ,19 November 1923 ; FO, 371 , 9055 E, 7012, Aleppo,8 June 1923 , E 7047 , Aleppo,5 July 1923,10163 E 1834/1057 /89, Aleppo, 7 February 1924, E 2993/1057/89 , Aleppo , 24 March 1924, E 3179 1057/89, Aleppo , 27 March 1924 , E 4176/1057/ 89 , Aleppo , 23 April 1924 .

(١٢٤) NAW, M 722, r. 9, No. 197 , Aleppo , 15 May 1924 .

(١٢٥) NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923 .

(١٢٦) NAW, M 722, r. 9, No. 197, Aleppo , 15 May 1924.

(١٢٧) FO, 371, 10163 E 4674/1057/89, Damascus , 20 May 1024.

(١٢٨) FO, 371 , 1063 E 4530/1057/89 , Paris, 23 May 1924.

(١٢٩) NAW, M722, r. 9, No. 401, Aleppo, 24 April 1925, No. 438, Aleppo, 6 August 1925.

(١٣٠) NAW, M722, r.9, No. 438, Aleppo, 6 August 1925.

(١٣١) NAW, M 722, r. 9 , No. 469 , Aleppo , 24October 1925, No. 477 , Aleppo, 12 November 1925.

(١٣٢) NAW, M 722, r. 9, No. 758, Paris, 18 September 1925.

(١٣٣) انظر : السعدون ،ص ٥٨ ، والشفوري ، ص ٤٩ــ٥٠ .

(١٣٤) NAW, M722, r. 9, No. 49, Aleppo, 19 December 1925.

(١٣٥) NAW, M 722, r. 9, No. 488, Aleppo, 15 December 1925; FO, 371 , 11517 E 236/236/89, Damascus , 30 December 1925.

(١٣٦) NAW, M 722, r. 9, No. 487, Aleppo , 14 December 1925, No. 493, Aleppo, 30 December 1925, No . 300 , Damascus , 30 December 1925, No. 502, Aleppo, 13 January 1926.

(١٣٧) انظر تفاصيل ذلك في :
Lewis, PP. 268 FF.

(١٣٨) انظر تفاصيل العمليات التي قام بها السعدون ورفاقه في : السعدون ، ص ٥٨ــ٧٧ . وانظر تفاصيل اخرى في :
NAW, M 722, r. 9. No. 569 , Aleppo, 17 May 1926 ; FO, 371, 11511 E 1233, Aleppo, 10 February 1926 , Aleppo, 9 April 1926.

(١٣٩) انظر نص الاتفاقية وملحقاتها ونقاط الحدود بالتفصيل وكذلك التعليق عليها في :
FO. 371, 11519 E 3898/1189/89, Paris , 25 June 1926 ، NAW, M 722, r. 10, No. 10, Aleppo, 18 September 1926 .

(١٤٠) NAW, M722, r. 10, No. 579, Aleppo, 18 June 1926.

(١٤١) FO, 371, 11515 E 1905, pp. 121-124.

(١٤٢) NAW, M 722, r. 12, No. 66097, Paris, 26 March 1926, r. 10, No.579, Aleppo , 18 June 1926, No. 599, Aleppo, 7 August 1926.

وانظر أيضا : الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ،ص١٥٥ ، ١٦٦ .

(١٤٣) انظر حول اعمال هذه اللجان :

NAW, M 722, r. 10, No. 26, Aleppo, 19 November 1926, No. 28, Aleppo, 18 December 1926, No. 34, Aleppo, 8 February 1927, No. 47, Aleppo, 15 April 1927.

(١٤٤) NAW, M 722, r. 10, No . 34 , Aleppo , 8 February 1927, No . 47 , Aleppo , 15 April 1927 .

الحياة الفكرية في الأندلس

من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

مكتبة ضخمة قدر عدد ما حوته من الكتب باربعمائة الف مجلد ، وتمويل وتوجيه للبحث والتاليف تجلى بوضع مئات ـ ان لم نقل الاف ـ من الكتب في شتى صنوف المعرفة ، وشكل من اشكال توفير التعليم الاولي المجاني لابناء الفقراء تجسد بانشاء سبعة وعشرين مكتبا للتعليم في قرطبة .

معالم بارزة على دروب تطور الحياة الفكرية في الحضارة العربية الاسلامية ، تعكس النشاط الكبير لهذا المظهر من مظاهرها في الاندلس وازدهاره العظيم ، لاسيما في عصر الخلافة الاموية فيها .

ارتبط جل هذا النشاط والازدهار باسم الحكم المستنصر بالله ، تاسع الحكام الامويين في الاندلس وثاني خلفائهم فيها ، بين ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ (٩٦١ ـ ٩٧٦) ، وان يكن توجيه الحكم لهذا النشاط وتشجيعه له قد بدأ قبل هذا التاريخ بعقدين من السنين على الاقل ، كان خلالهما وليا للعهد .

انعكست آثار هذا النشاط في كتب التاريخ وتراجم الاعلام ، على شكل وقائع صغيرة مبثوثة ومبعثرة في هذا المصدر او ذاك ، لكنها مع ذلك تستلفت نظر القارىء .

وقد اغرت وفرتها الباحث الاسباني ملشور انطونيا في اوائل القرن الحالي بجمعها والخروج منها بصورة للنشاط الفكري في بلاط الحكم(١) ، كانت من الدقة والكمال بالدرجة التي يسمح بها المعروف والمكتشف حتى زمنه من مصادر التاريخ الاندلسي. لكن تتابع الاكتشافات وتكاثر البحوث عن الحياة الفكرية في الاندلس ، والتي تلامس حينا هذه النقطة أو تلك ، او تنير بعض جوانبها احيانا اخرى ، تستدعي البحث من جديد لرسم صورة أدق وأكمل . وسعيا للوصول الى اجابات على تساؤلات عدة تدور كلها حول اسهام الحكم في الحياة الفكرية ، مثل : دوافعه ، وهل كانت ذاتية أم موضوعية ، أم كليهما معا .. ما هو شكل اسهامه ، هل كان قاصرا على الانفاق والتمويل أم تعدى ذلك الى المشاركة والتوجيه .. ما رؤيته في هذا المجال ، هل كان مقلدا يسير على سنن سابقيه ودروب اسلافه ، أم كان مجددا يستشف حاجات دولته ومتطلبات بلده الناجمة عن مجموعة الظروف المحيطة به ، ويحاول ان ينجز ما فيه تحقيق المتطلبات وتلبية الحاجات في تلك الظروف ..

العوامل المؤثرة في تكوين الحكم الفكري :

يتضح لنا بجلاء من دراسة سيرة الحكم المستنصر ان عظمته وليدة نتاج وتفاعل بين جهد ذاتي ومناخ وبيئة محيطة، شانه في ذلك شأن كل البارزين والعظماء في التاريخ الانساني . ويمكن تحديد اطار هذه البيئة في المجال السياسي ، بان الاندلس في زمن ابيه قد توحدت بعد تجزؤ والتأم شملها بعد شتات وتمزق . كما أصبح سلطان خلفائها معترفا به من قبل ملوك وامراء الدويلات الاسبانية في الشمال ، وتحارب تحت لوائه ، في الجنوب ، قبائل زناته المغربية منافسيها من قبائل صنهاجة واسيادهم الائمة الفاطميين ، الذين أضفوا على اشخاصهم صفات قدسية تجعلهم يتبوؤن ــ حسب زعمهم ــ مرتبة سامية بين المراتب الكائنة بين البشر وخالقهم . وقد اتخذوا قاعدة لسلطانهم في المغرب الادنى، قبل انتقالهم للقاهرة التي انشئت لهم في مصر . أما في داخل الاندلس ، حيث خيم سلام نسبي ، فقد نشطت الفعاليات الاقتصادية بشتى أشكالها ، مما ساعد على تنشيط المبادلات التجارية مع الخارج الذي توسعت أطرافه وتعددت جوانبه ، فدخلت ضمن دائرة التبادل مع الاندلس دولة امالفي الايطالية(٢). اضافة للمغرب والمشرق الاسلامي . وتمخض نشاط هذه الفعاليات عن ظهور طبقة غنية في الاندلس نجد مؤشرا على درجة غناها في الهدايا الثمينة التي قدمها أفراد منها للخلفاء بلغت قيمتها مئات الالوف من الدنانير الذهبية . وقد تجاوز هؤلاء الخلفاء الفوائد غير المباشرة ، التي جنوها من نشاط الفعاليات الاقتصادية، الى الافادة المباشرة

عن طريق المشاركة فيها بواسطة ضياعهم المغلة الكثيرة ، وممارسة التجارة ، التي مكنهم مركزهم من احتكارها وجني ارباح طائلة منها .

كان لهذه الاوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية داخل الاندلس اثر ايجابي على الحياة الفكرية فيها ، اذ أنفق هؤلاء الاغنياء بسخاء على تطوير الفكر ، من خلال رعاية رجال الفكر وتشجيعهم ، واقتناء الكتب وانشاء المكتبات . واذا تصدرت العائلة الاموية المالكة في الاندلس هذه الطبقة الفنية ، فانها كانت أيضا في مقدمة المشاركين في النشاط الفكري ومشجعيه . ونلاحظ تقدما مطردا لامرائها وخلفائها في هذا المضمار، حتى اقترب من الذروة بشخصية عبد الرحمن الناصر والد الحكم (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) الذي أظهر اهتماما غير عادي بالعلم والثقافة ، فلم تمنعه المشاكل السياسية المعقدة التي واجهها ومشاغله في الحروب الكبيرة ، من تخصيص وقت يكرسه للفكر ، فنراه يجمع عددا من المثقفين لبحث ترتيب قصائد الشاعر المشرقي المشهور ابي تمام عندما جمعت له في ديوان . ويحس أحد الاطباء باهتماماته في هذا الميدان فيؤلف له كتابا عن « الأنيسون وفوائده في المعالجة »(٢) .

بهذا كان عبد الرحمن جزءاً أساسيا من البيئة المحيطة بالحكم ، والتي اسهمت في خلق توجهاته الفكرية ، لما يمثله الاب من قدوة للابناء . وزاد على ذلك اتخاذ الاجراءات المساعدة على تكوينه التكوين الفكري الراقي ،فاستمر أول الامر على اتباع التقليد الذي ساد في البلاط الاموي منذ أيام الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) والهادف الى تخصيص موارد اقتصادية مستقلة لكل من ابناء الامراء على حدة ، وتعيين شخص للاشراف على استثمارها من جهة ، وللاعتناء بتثقيف وتربية هذا الولد من جهة ثانية ، مما يعوض عن عناية الاب ، الذي قد لا تدع له مهامه السياسية وقتا كافيا للاشراف على تربية ابنائه الكثيري العدد في الغالب . وقد نقل المؤرخ الاندلسي ابن حيان عن الكاتب القبشي هذا التقليد بقوله : « كان يعجّل ـ أي الأمير محمد ـ لكل واحد من الابناء ، أول ترعرعه بقصر يسكنه وضياع تغل له وعقار بداخل البلد يجري عليه خرجه ، الى رزق هلالي ومعروف سنوي (أي مرتب شهري وآخر سنوي) يجريهما عليه تتأكد بهما ملوكيته وتتأثل نعمته ، ويختار لكل ولد منهم في وجوه الناس واولي مرواتهم وكيلا يسند بشأنه اليه ويقلده النظر في دخله وخرجه وأمر قصره وضياعه يرزقه على ذلك ما يقوم به . فلا تزال نعمة الولد تنمى بنمو سنه » . ويتابع المؤرخ ذاته اقتباسه مما يذكره الكاتب نفسه عما ادخله عبد الرحمن الناصر من تجديد في هذا المضمار ، يتعلق بزيادة المخصصات وتوسيع دائرة اشراف الوكلاء على ابنائه الاحد عشر من الذكور بقوله : « قرن الناصر لكل واحد منهم القصر بمنية (بستان) بخارج البلد في امكنة منتزهاته الحسنة واضعف لهم على ذلك

الارزاق الهلالية والمعارف السنوية واوسع لهم من الضياع المغلة والعقار الخراجية»(٤) ورغم اننا لا نعرف على وجه الدقة مقدار واردات هذه المصادر كلها بالنسبة لكل ابن ، لكن يمكن القول انها كانت ضخمة لان الاشراف عليها لم يعد مقتصرا على الوكيل بل عين فوقه كاتب يدقق في حساباته ويشاركه في الاشراف على ترتيب امر الولد لدى حذاق المعلمين .

وفرت هذه البيئة الاندلسية والعائلية سبل النضج الثقافي والرقي الفكري لابناء عبد الرحمن الناصر الاحد عشر . وهنا يبرز أثر الجهد الذاتي اذ لم يبرز منهم سوى اثنان اولهما عبد الله الذي اتسعت دائرة ثقافته لتشمل المعرفة باللغة والخبر وقرض الشعر والادب ، حيث وضع كتابا في اخباره بعنوان « العليل والقتيل في اخبار بني العباس » . واضاف الى اتساع دائرة الثقافة عمقا وتجديدا في بعض نواحيها ، فتراه عالما في مجال الفقه مستقل الرأي فيه ، اذ كان شافعيا في بلد سادته المالكية كمذهب اوحد ، واعتبرت الاسرة الحاكمة فيه نفسها حامية له خارج حدود الاندلس(٥) . من ناحية اخرى عقد هذا الامير العالم صلات وثيقة مع العلماء الاخرين ،لعل من اشهرهم احمد بن عبد البر بن يحيى الذي الف له كتاب « تاريخ الفقهاء والقضاة » ، الذي اعتبره الكتاب المعاصرون ومن تلاهم مصدرا هاما ، رغم مآخذ بعضهم عليه مردها تتبعه لمثالب الائمة . وقد اتهم الامير وصديقه بالتامر على الخليفة ، فقبض عليهما معا ولقيا مصيرا واحدا وهو القتل(٦) .

اما ثاني البارزين من الابناء فكان الحكم ، الذي سيصبح ولي عهد ابيه وتاليه على عرش الخلافة . وقد اتيح له،كأخيه ، اخذ العلم منذ نعومة اظفاره على حذاق المعلمين ، ووفر له بقاؤه على قيد الحياة ومكانته ان يتابع الاخذ عن العلماء حتى تجاوز اخاه في اتساع دائرة معارفه وتعمقه فيها . ويمكننا التعرف على الخطوط الاساسية لاتجاه ثقافته من تتبع كبار من اخذ العلم عنهم بعد تحصيله الاولي والاساسي . كان في مقدمة هؤلاء علماء بالعربية والحديث والفقه والادب ، وكلهافروع من المعارف مجمع على ضرورتها في الاندلس . لكنه لم يقتصر عليها بل اخذ عن علماء في علوم مكروهة لدى الاندلسيين، كالفلسفة ، بما حوتهانذاكمن علوم كالمنطقوالرياضيات وغيرها(٧) .ولم يتم تكوين الحكم في فترة طفولته وفتوته وشبابه الاول فقط ، بل استمر طيلة حياته تقريبا ، فنراه وهو في الثامنة والعشرين من عمره (أيسنة ٣٣٠هـ) يستقدم علماء من المشرق ، كأبي علي القالي ، ويأخذ عنهم، هذا اضافة لمن يستقدمهمن علماء المناطق الاخرى بالاندلس وعلماء قرطبة ، الذين يسمع منهم ويتدارس معهم قضايا علمية متنوعة .

جهود الحكم في النشاط الفكري :

واكبت عملية استزادة الحكم من العلم عملية تسهيل نشره وارتقائه ، عن طريق جمع كتبه وتشجيع وتمويل البحث والتاليف في شتى مناحيه ، وتوجيهه .

كانت عملية نشر العلم بين الناس سهلة نسبيا في الاندلس ، لما شاع فيها من اقبال عليه ، وخاصة لدى الطبقة الغنية التي انفقت بسخاء على اقتناء الكتب ، وعلى مؤدبي ابنائها . لكن الطبقة الفقيرة بقيت محرومة حتى من الاساسي منه، والذي يدور حول تعلم قراءة القران الكريم .. فحاول الحكم سد النقص حسب ما يورده ابن عذاري بقوله « ومن مستحسنات افعاله وطيبات اعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع وبكل ربض من ارباض قرطبة ، واجرى عليهم المرتبات .. » . وقد بلغ عدد المكاتب التي انشأها لهذه الغاية سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة حول المسجد الجامع وباقيها موزع على ارباض المدينة . وقد ذكر هذا العمل الخير احد الشعراء من خلال مدحه للحكم بقوله :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتبا لليتامى في نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها(٨)

لكن المهم والجوهري في دور الحكم الفكري كان الاسهام في تطوير وترقية الفكر عن طريق جمع كنوزه المكنونة في الكتب ، والعمل في الوقت نفسه على وضع البحوث والمؤلفات الجديدة . وتكون من مئات العاملين لدى الحكم وبتوجيهه شكل من أشكال « الاكاديمية » أو المجمع العلمي المعروف في عصرنا الحديث . كان لهذه « الاكاديمية » مقر للعمل هو قصر ملكي مطل على نهر قرطبة يدعى بدار الملك ، سمي بذلك لكونه منزلا لعدة امراء اندلسيين انتقلوا منه مباشرة لقصر الخلافة ، كان المنذر بن محمد آخرهم ، وانتقلت الدار من ورثته بالبيع لعبد الرحمن الناصر الذي حبا بها بكره الحكم ، رغم اجباره له من دون سائر اخوته على الاقامة معه في قصر الخلافة ، ثم في الزهراء مدينة الملكية . أما دار الملك هذه فقد جعلها حسب قول المؤرخ الرازي «لخاصة نشبه (النشب المال الاصيل من الناطق والصامت) ومخازن امتعته ومصاون دفاتره، ومجالس نساخه ومقابلي دواوينه ، وأحلها ثقات خدمة وأقادم كتابه .. ينتابهم فيها بالاوقات لما يتخذه له فيها ويختزن في مخازنها » . يفهم مما مر ومما يرد في ثنايا الحديث عن تراجم العاملين ، ان دار الملك كانت مقر اقامة عمل دائمة لجهاز المكتبة ، ومقرا مؤقتا للمؤلفين والباحثين ، اذ ارادوا الرجوع لمصادر المكتبة أو التمسوا اعتزال المشاغل والناس للتفرغ للتأليف .

المكتبة والجهاز العامل فيها :

اقتنى الامراء والخلفاء الامويون ، شأنهم في ذلك شأن كثير من الاندلسيين ، مكتبة كانوا يدعونها خزانة الكتب . لكنها لم تتميز عن غيرها كثيرا ، على ما يبدو ، ولم تستلفت بالتالي اهتمام الكتاب ، الذين اعتنوا بذكر كل صغيرة وكبيرةعن حياتهم . واختلف الامر زمن الحكم فتواترت الأنباء عن مكتبته وكثرت الاشارات غير المباشرة اليها كذلك ، مما يمكننا من رسم صورة غنية بالتفاصيل لها . ينقل ان حزم عن قيمها الفتى تليد : ان عدد الفهارس المحتوية لتسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط ، وان عدد كتبها بلغ اربعمائة الف مجلد(٩) .

يمكن تصديق الخبر عن ضخامة عدد المجلدات ، وتفسير هذه الضخامة من ملاحظة امور عدة ،كالعمل الدائب والسعي المستمر في عملية جمع الكتب واغناء المكتبة ، وطول المدة التي استغرقها جمعها ، وكذلك تعدد مواردها وتنوع اعمال العاملين بها . فقد ظل الحكم دائبا على جمع الكتب خلال فترة ولايته للعهد التي استمرت عدة عقود من السنين ، واثناء مدة خلافته التي بلغت نحو ستة عشر عاما . وكانت موارد الكتب متعددة ، فمنها ما ورثه عن سلفه ، كما هو الحال في نسخة الموطأ لمالك بن انس ، التي وصفت بانها بالغة الجودة وقد ورثها عن ابيه الناصر وقرأ بها ابنه هشام(١٠) ، ومنها ما كان من مكتبة اخيه بعد مقتله . اما المورد الاهم فكان الشراء من منبع ثقافة الاندلسيين ، وهو المشرق العربي الاسلامي ، حيث كان له وكلاء ينتخبون له غرائب التواليف من اشهرهم محمد بن طرخان وراق الحكم في بغداد ، وعمر بن محمد المعروف بابن الوفي ، الذي اقام بالبصرة حوالي عشرين سنة تولى خلالها ابتياع الكتب والذخائر له ، وبلغت النفقات التي جرت على يديه لهذا الفرض مائة وعشرين الف دينار(١١) . نستنتج من المثلين السابقين ان وكلاء الحكم كانوا مؤهلين لاختيار الجيد المناسب من الكتب شكلا وموضوعا ، فالكتب كانت صناعة الاول ، الذي ينعت بالوراق ، كما كان الثاني فقيها عينه الحكم إثر عودته قاضيا في مدينتين كبيرتين . ويبدو ان الوكلاء لم يكتفوا بشراء المعروض من الاسواق ، بل عملوا ايضا كهمزة وصل بين الحكم ومشاهير المؤلفين في المشرق ، من ذلك الاتصال بين الحكم وابي الفرج الاصبهاني الذي تلقى من الخليفة الاندلسي الف دينار ذهبي مع التماس لنسخة من كتابه « الاغاني » ، فارسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل ظهور الكتاب لاهل العراق او نسخه من قبل احد منهم ، والف له ايضا « انساب قومه بني أمية موشحة بمناقبهم واسماء رجالهم ، فاحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجدا وأرسل به الى قرطبة ،

وانفذ معه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد عليه الصلة الجزيلة» (١٢) . اضافة لما كان يرسله الوكلاء للحكم ، كانت اعداد غفيرة من الاندلسيين ترتاد بلدان المشرق حتى وصل بعضهم الى الهند ، طلبا للعلم وسعيا للاخذ عن مشاهير الشيوخ ، وربما اشترى بعضهم الكتب فوصلت للحكم، الذي كان اكثر رغبة باقتناء كتب الاسمعة للعلماء ، من الاندلسيين المتجولين في المشرق ، نظرا لسعة ادراكهم وتحريهم عندما يسجلون ما يسمعون، ممن ينقله بسند مباشر عن المؤلف نفسه ، كما هو حال كتاب « الكامل » للمبرد(١٣) ، الذي سمعه وسجله محمد بن ابي علاقة القرطبي من الاخفش الذي سمعه بدوره من المبرد نفسه ، وصار الكتاب للحكم الذي قال : كتاب الكامل لم يصح عنده برواية الا من قبل ابن علاقة . واقتنى الحكم من الفقيه يوسف بن محمد الهمداني (ت ٣٨٣ هـ) ،كتاب « الام » للشافعي في مائة وعشرين جزءا ، الذي سجله الفقيه بخطه ، وكان من جملة ما سمعه في المشرق خلال اقامته مدة عشر سنوات فيه اعتنى فيها اضافة لذلك بكتب الطبري المشهور من تاريخ وتفسير واختلاف الفقهاء(١٤) . واذا كان الحكم قد اهتم باقتناء الكتب من اماكن بعيدة في المشرق ، يبدو من الطبيعي أن يجمع نتاج بلده منها ، في وقت بلغ النشاط الفكري فيه ذروة لم يبلغها من قبل ، وان يضيف فيه الى الشراء نسخ ما لا يتوافر منه نسخ مطروحة للبيع. واخيرا ، لم يكن من المتيسر دائما بالنسبة لتلك العصور توافر المؤلفات ، وخاصة الكبيرة منها ، في نسخ كاملة ، بل كان الشائع بالنسبة للكثير منها ان يكون اشتاتا مبعثرة بين ايدي التلاميذ الذين يسمعونها جزئيا أو كليا عن شيوخهم وقد يسجلون كل ما يسمعون او بعضه . وكان هذا المورد الاخير موضوع ومجال عمل اكثرية افراد الجهاز العامل في المكتبة .

تمايز أفراد الجهاز العامل بمكتبة الحكم في فئتين : الوراقون والمقابلون . كانت عملية الفئة الاولى بسيطة لا تتعدى النسخ، لكن الحكم الساعي وراء جودة الكتابة ودقة المكتوب استخدم ذوي مؤهلات عالية تتعلق بالمهمة ، فلم تقتصر على حسن الخط وجماله بل تعدته الى المعرفة حتى يستطيع ضبطه ، لذلك نرى كل نساخيه من ذوي المعارف العلمية المختلفة ، فقد كان يوسف البلوطي حسن الخط والضبط ذا معرفة بالادب ، ومثله اسحاق بن محمد الذي وصف بأنه من أهل الادب والفهم . ووجد المبرزون في هذا الميدان من بلاد أخرى سوقا رائجة لهم في بلاط الحكم فقصدوه ، وصل ظفر البغدادي من بغداد وعينه الحكم رئيسا للوارقين ، ومن صقلية ورد عليه أيضا عباس بن هارون الكناني بعد اقامته في القيروان لمدة واحد وعشرين عاما ، وكان عالما بالكلام والرد على أصحاب المذاهب (١٥) .

عملت الفئة الثانية فيما سمي بخطة المقابلة ، ومهمة المشتغلين بها مقابلة النسخ المتعددة للمؤلف الواحد ، أو قطع منها لنساخين متعددين ، بغية اخراج أكمل وأصح نسخة للمؤلف ، وبهذا تكون مماثلة لعملية التحقيق في العصر الحاضر ، وقد تكون اكثر منها صعوبة في بعض الحالات . ولعل في بعض انجازات هذه الفئة ما يقدم صورة واضحة لنوعية العمل وصعوباته . فقد كان من جملتها اخراج نسخة كاملة للبارع المعجم اللغوي الكبير الذي وضعه أبو علي القالي في بلاط الحكم وأملاه على الناسخين على مدى ستة عشر عاما تخللتها فترات انقطاع . ثم حاول جمع ما كتبوا وتنقيحه ، الا أن الاجل وافاه ولم يتم له تنقيح سوى أجزاء الهمزة والعين والهاء ، في حين بقيت الاجزاء الاخرى غير منقحة وبخطوط متعددة ، منها ما كان لمحمد الفهري وعمر الجياني فكلف الاثنان باتمام العمل واخراج نسخة كاملة قدمت للحكم المستنصر . وكان القالي نفسه قد ترأس قبل ذلك فئة من المقابلين للقيام بمهمة مماثلة ولكنها اكثر صعوبة، وهي اخراج نسخة كاملة وصحيحة من معجم « العين » المنسوب للخليل بن احمد الفراهيدي.

ومن المعروف أن انتشار الكتاب كان بطيئا حتى في المشرق . فقد توفي المؤلف سنة ١٧٠ هـ . لكن الكتاب وصل الى البصرة سنة ٢٤٨ هـ عندما حمله اليها من خراسان أحد الوراقين بثمانية وأربعين جزءا . ويسجل أول دخول له الى الاندلس في نهاية القرن ذاته ، أي القرن الثالث الهجري ، على يد قاسم بن ثابت بن حزم وابيه . ومنذ ذلك الوقت كان حاملو العلم من المشرق يدخلون الاندلس منه نسخا او قطعا متفاوتة في الصحة والضبط ، مما جعل الحكم يكلف ابا علي القالي مع محمد بن الحسين وابنا سعيد بمقابلة جميع النسخ واخراج نسخة جديدة كاملة وصحيحة . ومثل هذا العمل جرى في وضع الدواوين الشعرية لشاعر مشهور ، بعد جمع قصائده المبعثرة او المحفوظة لدى اناس متعددين ، كما حصل في شعر الكاتب الاندلسي المشهور ابن عبد ربه الذي جمع بامر من الحكم في ديوان واحد مؤلف من نيف وعشرين جزءا(١٦) .

لهذا كانت المؤهلات التي يتطلبها الحكم في المقابلين اعلى من تلك المطلوبة في النساخ ،اذ يتطلب عملهم معرفة واسعة وعميقة وخاصة باللغة ، وهو أمر يتجلى بوضوح لدى تصفح اخبار من استخدمهم في هذه الخطة . فقد رأينا مثلا عليهم في ابي علي القالي ، كما نعثر على امثلة اخرى غزيرة : كاحمد المعافري الذي استكمل ثقافته في المشرق بعد الاندلس وادخل منه لبلده علما جما ، ومنهم ايضا احمد بن عبد الوهاب المعروف بابن صلى الله ، وكان فقيها شافعيا ذكيا بصيرا بالحجاج وذا حظ وافر من العربية ، وكذلك محمد بن يحيى الرياحي الذي يصفه الزبيدي بالقول « كان حاذقا بعلم العربية دقيق النظر فيها غاية في الابداع والاستنباط وكان قد طالع كتب اهل الكلام وتفنن فيها ونظر في المنطقيات فاحكمها » . ويضيف الى ذلك انه احدث تغييرا كبيرا في تعليم النحو على نطاق الاندلس كلها .

جمع العلماء

كانت قرطبة مركزا فكريا مزدهرا زاخرا بالعلماء . لكن الحكم لم يكتف بهم بل كان يستقدم العلماء الذين يبرزون في حواضر الاندلس الاخرى بعد استكمال تحصيلهم العلمي في المشرق بعد بلادهم . ثم تجاوزذلك الى البلاد الاخرى ، المجاورة منها في المغرب أو البعيدة ، مثل بلدان المشرق . استقدم من سبته محمدا بن حارث الخشني، الذي اعتبره اهلها حجة في العلم فأطاعوا قوله وشرقوا قبلة مسجدهم الجامع لانه وجد فيها تغريبا ، رغم تعدد الاجيال التي أدت صلواتها فيه وهوعلى هذا الوضع. كما تمسكوا به الى الحد الذي يقترب من الحبس . ومن اشهر مراكز المغرب الفكرية ، وهو مركز القيروان ، استقدم محمدا بن يوسف الوراق العالم الخبير بأرض المغرب وبلدانه وسكانه . كما قدم عليه محمد بن الازرق من مصر وهو صاحب معرفة بالادب والعلوم الحكمية او الفلسفية ، ومن حلب في الشام محمد بن العباس حافظ وحامل اسناد الشام . ومن العراق اكبر المراكز الفكرية في المشرق حل في حاشية الحكم محمد بن ابي بردة البغدادي الشافعي الذي لم يصل للاندلس إفهم منه بالمذهب ، على حد قول ابن الفرضي(١٨) . لكن عالما آخر طغى عليه ، وربما على سائر القادمين الآخرين، وهو اسماعيل بن القاسم ابو علي القالي ، الذي استغرقت رحلته من العراق الى الاندلس قرابة ثلاث سنوات ، نزل بعدها على شواطيء الاندلس سنة ٣٣٠هـ ليجد في استقباله وفدا من وجوه رجال الكورة التي نزل بشاطئها برفقة واليها ، ورافقوه بعد ذلك الى قرطبة تنفيذا للامر الصادر لهم من ولي العهد الحكم بن الناصر . الف القالي بتشجيع من الحكم وتوجيهه عددا كبيرا من المؤلفات ، لكن اهميته لا ترجع الى هذا الامر بقدر ما ترجع الى مقدار ما حمله من نتاج الثقافة العربية والذي يشتمل فيجملة مواضيع اخرى على مؤلفات رجال الادب واللغة الكبار ، كسيبويه وابن قتيبة ويعقوب السكيت واحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب وابي عبيد . ومن ناحية اخرى اسهم اسهاما كبيرا في الحركة الفكرية بواسطة من اخذوا عنه من التلاميذ او اولئك الذين ناقشوه من العلماء الاندلسيين في قضايا اثيرت حول ما درسه أو ألفه .

قد تختلف الاراء حول سبب قدوم هؤلاء العلماء للاندلس ، وهل قدموا بدعوة من الحكم أم سعيا وراء رزق في سوق عرفوا رواج بضاعتهم فيه .. لكن الاتفاق قائم على ان شهرتهم في الاندلس وغزارة انتاجهم فيها مرده لتقريب الحكمالمستنصر ورعايته لهم . ويبدو ان تنوع اصول ومواطن هؤلاء المقربين لم يكن وليد اعتباط او محض صدفة ، وانما كان مقصودا على الارجح لتحقيق غايات معينة ، منها ان عددا منالعلوم العربية وخاصة الدينية منها ، كانت علوم حفظ ورواية عن السلف تعود بذورها

الاولى واصولها الاساسية الى الصحابة الذين حلوا في كل قطر ، لذلك فان عالم قطر من الاقطار تعلو اسناده لتصل الى الصحابة الاول الذين نزلوا في هذا القطر . اضف الى ذلك ان العلوم كلها قد اتخذت اتجاهات متمايزة في تطورها ورقيها ، ومن شأن تعدد اقطار العلماء الوافدين ايصال هذا التنوع للاندلس . واخيرا فان بعض العلماء كانوا ذوي خبرة بأوضاع بلادهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية ، ومن السهل عليهم نقلها الى رجال الاندلس وحكامها .

كانت مؤهلات المحيطين بالحكم العلمية وسيلة ايضا لنيل الوظائف في ادارة دولته ، كالقضاء والشورى والكتابة . ويظهر ان الخدم المحيطين به ادركوا أهمية التحلي بحلية العلم لنيل حظوة اكبر لديه فانكب بعضهم على تحصيله حتى برزوا فيه ، على الرغم من ان هؤلاء كانوا من الصقالبة الذين اشتهروا بجهلهم . وقد عبر عن هذا المعنى ابن حيان في وصفه لخادمي الحكم فاتن وجؤذر « اجمع أهل الدولة انه لم يقم على راس أمير بالاندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلب كهذين الخادمين فاتن وجؤذر سعة معرفة .. خلاف ما عليه العصابة»(١٩) . لكن شهرة هؤلاء العلماء لم تكن نتاج المراكز الادارية التي شغلوها ، وانما بالمؤلفات التي درسوها او وضعوها ، وكانوا في هذا الميدان يمثلون شتى نواحي العلم والمعرفة مما يمكننا من تصنيف نشاط التأليف في بلاط المستنصر حسب التقسيم المألوف للعلوم .

علوم اللغة والادب

ابدى الحكم اهتماما بالغا باللغة تجلى في سعيه الدائب لجمع نسخة كاملة صحيحة من معجم العين كما رأينا ، كما انعكس هذا الاهتمام في الحفاوة التي اظهرها باللغوى المشرقي ابي علي القالي ، لا عند استقباله فقط وانما خلال اقامته بجواره ، اذ ينقل الحميدي عن ابن حزم قوله « وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الامور وبعد ان صارت اليه ، يبعثه على التاليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » وقد الف القالي استجابة لذلك عددا من المؤلفات المتفاوتة فيما بينها من حيث الجدة والاهمية والضخامة ، لكن ما يجمعها كونها باجمعها في اللغة والنحو .

ولعل أهم هذه المؤلفات معجم البارع ، الذي استغرق العمل فيه ستة عشر عاما تخللتها فترة انقطاع . وما انجز في هذه المدة كلها منه كان املاؤه ثم تهذيب وصياغة كتاب الهمزة والهاء والعين فقط ، وتوفي قبل انجاز التهذيب والصياغة فاكملها معاوناه ، كما مر سابقا ، وخرج في مائة مجلد . وقد تجاوز القالي ـ حسب رأي معاصريه ـ معجم العين للفراهيدي بزيادة في كلمات البارع قدرها خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة . وقد قدم هذا للزبيدي مبررا لحكمه القائل « لا اعلم احدا من العلماء

المتقدمين والمتاخرين الف مثله في الاحاطة والاستيعاب »(٢٠) .. ومن كتب القالي الهامة كتاب « الامالي » المشهور والمتداول على نطاق واسع حتى ايامنا هذه . وهو من كتب المجموعات الادبيةالتي تحوي اخبارا ولغة وادبا . ويقول عنه ابن حزم انه « مبار لكتاب الكامل الذيجمعه ابو العباس المبزد ، ولئن كان كتاب ابيالعباساكثر نحوا وخبرا، فان كتاب ابي علي لاكثر لغة وشعراً »(٢١) .

يلي ابا علي القالي في الشهرة بين المؤلفين في ميداني اللغة والنحو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، وكانت صلته بالحكم وثيقة الى حد ان كل ما ألفه كان بامر وتوجيه وتخطيط للموضوع منه ، او بمباركته في حالات اخرى . ياتي في مقدمة هذه المؤلفات اختصاره لكتاب « العين » ، وقد جاء ميسرا للاستفادة من مادة المعجم حتى فضله الناس على الاصل ، اذا صدقنا ما ينقلهصاحب المزهر من قول لابي الحسن الشاري بان الناس « قد لهجوا كثيرا بمختصر العين للزبيدي فاستعملوه وفضلوه على كتاب العين لكونه حذف مما اورده مؤلف كتاب العين من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة والابنية المختلفة ، وفضلوه على سائر ما الف على حروف المعجم من كتب اللغة »(٢٢) .

وكان للحكم أيضا دور مماثل في مؤلف آخر للزبيدي هو « طبقات النحويين واللغويين » وقد عرض من هذا الكتاب المتداول حتى ايامنا هذه الى ذكر تراجم لكل من الفئتين في مراكز الفكر المشهور بديار الاسلام بدءاً من اوائلهم وحتى أيامه على طبقاتهم . تقدمت البصرة هذه المراكز وتلتها الكوفة ثم مصر فالقيروان ، وختم كتابه بطبقات النحويين واللغويين بالاندلس .

في الكتاب الثالث للزبيدي وهو « لحن العامة » او «لحنعوام الاندلس »، يقتصر دور الحكم على المباركة فقط اذ يقول في مقدمته « وكان الذي دعانا لتأليف هذا الكتاب ما أملناه في الثقة التي اسندها الى المؤلف الامام الفاضل والخليفة العادل . . » . أما مضمون الكتاب فيأخذ بعين الاعتبار طبقة القراء التي يتوجه اليها ، هي بالطبع متعلمة وبالتالي فانه لا يحتوي على كل مايلحن به العوام اذ يمكن للمتعلم تمييزه بسهولة ولا ضرورة لتنبيهه عليه . ويقتصر ما يورده على ذلك اللحن الذي تسرب من العامة الى المثقفين مع الزمن فاستعمله جملة الكتاب وعلية الخدمة وضمنه الشعراء أشعارهم ، فهو والحالة هذهمن قبيل الخطأ الشائع الذي تتوهم صحته..وقد سبقه لهذا الموضوع عديد من المشارقة لكن فائدة كتبهم في الاندلس محدودة ، فحسب قوله « سلمت عامة الاندلس من موافقة الكثير من لحن أهل المشرق ونطقت بوجه الصواب فيه » (٢٣) .

عمل في ميدان اللغة والنحو أيضا محمد بن عبد العزيز الشهير بابن القوطية ، وان كان يدين بشهرته لعمله في مجال التاريخ والاخبار . وقد اشتهر في الميدان الاول عمل له بعنوان « شرح رسالة ادب الكاتب » معان مضمونها لايتعدى شرح مقدمة ادب الكاتب، للكاتب المشرقي المشهور ابن قتيبة .

على شاكلة ما جرى في المشرق رافق جمع كلمات اللغة في المعاجم جمع الشعر العربي ، وقام الحكم بتوجيه عملية جمع الشعر الاندلسي على وجه الخصوص . واتخذ أشكالا عدّة منها جمع أشعار شخصية أدبية مشهورة غزيرة الشعر في ديوان ، كما هو حال الكاتب والاديب والشاعر الاندلسي أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، والمتوفى سنة ٣٢٨هـ عن عمر يناهز اثنين وثمانين عاما . وقد انتج في هذا العمر الطويل الكثير من الشعر لدرجة أن مدائحه في بني أمية الحاكمين كانت من نصيب أربعة عاصرهم . ورأى ابن حزم ديوان شعره فوصفه قائلا : وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفا وعشرين جزءا (٢٤) .

واتخذ جمع الشعر بأمر الحكم شكلا ثانيا هو المختارات الشعرية ، ونرى مثلا عليها فيما وضعه له أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الحياني ، في كتابه المعروف « الحدائق » الذي عارض فيه كتاب « الزهرة » المشرقي لابي بكر محمد بن داود . وقد تجاوز كتاب الحدائق كتاب الزهرة من ناحية الحجم على الاقل اذ احتوى على اربعة أمثال ما احتواه الكتاب الثاني . ويقول ابن حزم في هذا الصدد ان « ابا بكر بن داود انما ذكر مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائتي بيت» . ثم يضيف لهذه الميزة ميزة اخرى قائلا « احسن ابو عمر الاختيار ما شاء وأجاد فبلغ الغاية وأتى الكتاب فردا في معناه »(٢٥) .

يمكننا أيضا اعتبار المؤلفات في أخبار الشعراء شكلا ثالثا من اشكال جمع الشعر وحفظه . وقد صنفت هذه الكتب لتسجيل أخبار شعراء مناطق أو كور الاندلس ، وقد رأى ابن حزم بعضها فقال بصددها « ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الاندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رأيت فيها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء » . من ناحية أخرى لم يخل بلاط الحكم المستنصر من مؤلفين في الادب كعمر بن عمير المعروف بابن الجرز والذي ألف رسالة ناقض فيها عبد الله بن المقنع (٢٦) .

العلوم الدينية

ويأتي في مقدمتها علم الحديث . وكانت كتب الصحاح للبخاري ومسلم والنسائي

والترمذي قد نقلت للاندلس، واستمر العمل بهذا العلم في المشرق على أساس دراسة الاسناد ورجالها . واسهم الاندلسيون في بلاط الحكم بشيء من هذا العمل ، فوضع محمد بن أحمد بن مفرج تبويبا لكتاب الاسماء والكنى لابي عبد الرحمن النسائي ، وظل هذا الكتاب يدرس حتى بعد قرن ونصف على الاقل في الاندلس . وقام العالم ذاته بجمع احكام رجال الحديث من الاجيال الاولى في المشرق، وجاء جمعه لفقه الحسن البصري في سبعة اسفار ، أما فقه الزهري فجمعه في كتب كثيرة ، واشتهر بين الاندلسيين في علم الحديث محمد بن معاوية من الاسرة الاموية الحاكمة ، الذي تتلمذ على النسائي وادخل سننه للاندلس . وبعد وفاته أمر الحكم يعيشا بن سعيد الوراق بتأليف كتاب عما رواه ابن الاحمر من الحديث وسماه « مسند حديث ابن الاحمر »(٢٦) . انصب الاهتمام في مجال علم الفقه على الدراسات ووضع المؤلفات عن الامام مالك ومذهبه ، خاصة وان المذهب اضحى الرسمي للدولة واصبح العمل بموجب احكامه لدى قبائل المغرب وبلدانه تعبيرا عن ولائها لخلفاء الاندلس وخروجها عن سلطان الفاطميين . تزامن ذلك مع أفول نجم آل حماد ، القضاة وذوي الثروة والنفوذ في بغداد نهائيا عام ٣٢٩ هـ ، أي عندما كان الحكم وليا للعهد ، وكانوا أصحاب اليد الطولى في بسط مسائل المذهب والمنافحة عنها . فتسلم الحكم راية حماية المذهب والمنافحة عنه ، والسعي لبثه ، وآية ذلك اكماله لمشروع بدأ به أصحابهم في بغداد ، وكان عبارة عن تأليف ديوان جامع لقول مالك بن أنس لا يشاركه فيه قول أحد من أصحابه وباختلاف الروايات عنه وذكر من رواها . وتم تأليف خمسة اجزاء حول الموضوع وقعت بيد الحكم ، فكلف بعد التشاور مع قاضيه ابن السليم والفقيهين ابي بكر المعيطي وابي عمر بن المكوى باتمام العمل وانجازه . استطاع الفقيهان انجاز العمل بعد ما أباح لهما الحكم البحث في مكتبته عن أقوال مالك حيث كانت في روايات المكيين والمدنيين والعراقيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم ، وخرج المؤلف في مائة جزء ودعي بكتاب « الاستيعاب الكبير » . وقد أعجب به الحكم فوصل كلا منهما بألف دينار ومنديل بكسوة وقدمهما الى الشورى .

عمل الفقيهان المصنفان لكتاب الاستيعاب تجاه أقوال مالك ما فعله كل من مسلم والبخاري تجاه أقوال الرسول (ص) ، وفي الاتجاه ذاته سار البحث حول الامام مالك فبدأت دراسة الرجال الذين رووا عنه ، كما كان يجري في الحديث الشريف حول دراسة سلاسل أسناده ، وقد تصدى لهذا العمل محمد بن أبي دليم القرطبي (ت ٣٥١ هـ) ، وكان قاضيا للحكم على عدة مدن ، وانجز كتاب « الطبقات فيمن روي عن مالك واتباعهم من أهل الامصار » . وظل الكتاب بعده واحدا من أكبر المصادر لمن الف وكتب عن أعلام المالكية .

وفي خضم الجدل المذهبي الذي ملأ آنذاك دنيا المغرب والاندلس خدمة لاغراض

سياسية ، دخل الاندلسيون ميدان الحجاج والمجادلة بعد طول احجام ، وألف أحد القربين للحكم الذي قدمه للشورى وهو ولي عهد ، كتبا عدة في نصرة مذهب مالك منها « كتاب الدلائل والبراهين على مذهب المدنيين » (٢٨).

التاريخ والجغرافية

نشط التأليف في هذين المجالين في بلاط الحكم ، بتوجيه وأمر منه ، وفق أنماط جرى التأليف عليها بالاندلس تقليدا للمشرق . من هذه الانماط ذلك النمط من التاريخ الوثيق الصلة بمؤلفات الرجال في علم الحديث . واذا كان الهدف في المؤلفات الاخيرة معرفة الرواة في النواحي التي تساعد على التثبت من صحة الاحاديث التي يروونها ، فان الغاية أصبحت في المؤلفات الاندلسية القريبة معرفة المشاهير والبارزين في الاندلس كلها او في حدود كورة من كورها او مدينة من مدنها . وقد تتسع نطاقها ليشمل البارزين في شتى المجالات ، او يضيق ليقتصر على البارزين في مجال واحد من مجالات النشاطات الفكرية او الادارية(٢٩) . من الامثلة على رجال الاندلس ، ما ألفه خالد بن سعد باسم « رجال الاندلس » للحكم المستنصر الذي اعتبر الكاتب مفخرة من مفاخر الاندلس في مواجهة علماء المشارقة المماثلين . أما المؤلفات عن البارزين في ناحية محددة ، فقد نالت فئة الفقهاء والقضاة الحظ الاوفر من اهتمام المؤلفين وتكريس المؤلفات . ومعذلك فقد ضاع جل هذه المؤلفات على كثرتها ولم يبق منها سوى نتف واقتباسات لدى الكتّاب المتأخرين . ولعل أشهر ما تبقى منها كان لابن حارث الخشني ، الذي استقدمه الحكم – كما مرّ – من سبته ، وألف له على ما يقال مائة ديوان (٣٠) ، يهمنا منها في هذا الصدد كتاب عن علماء افريقية ، وآخر عن قضاة قرطبة ، الذي حقق في زمنه للحكم رغبته في التعريف بقضاة الجماعة وبحاضرته وتخليد ذكرهم ، لكنه اعتبر لدى الكتاب المحدثين منبعا ثرا للمعلومات عن سائر نواحي الحياة بقرطبة ، ويعبر سانشيت البورنوث عن ذلك بقوله « ان القارىء المتمعن للكتاب يشعر وكأن أهل قرطبة الذين عاشوا قبل ألف عام قد بعثوا من القبور لانه يرى أمام ناظريه كل نواحي حياتهم : لهجات كلامهم ونظم ادارتهم وعاداتهم في البيت والسوق ومأكلهم وملابسهم »(٣١) . شكل آخر من أشكال الكتابة التاريخية ازدهر في بلاط الحكم ، تجاوز مشاهير المدن والحواضر ليبحث في كل شيء يتعلق بمنطقة من المناطق أو كورة من الكور ، كالبحث في أرضها ومنتجاتها وتاريخها ومشاهيرها . وقد يقوم نفس المؤلف بالتأليف في النمطين ، كما هو حال مطرف بن عيسى الغساني (ت٣٥٦هـ)، الذي الف كتابا في فقهاء البيرة وآخر في شعرائها ثم تجاوز هذا الاطار المحدود ليؤلف حسب قول ابن بشكوال للحكم المستنصر كتابا سماه « المعارف في أخبار كورة البيرة وأهلها وبواديها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » . وظل الكتاب مرجعا لكل من حاول

الكتابة عن المنطقة حتى اواخر أيام التاريخ الاندلسي (٣٢) . وفي الكورة المجاورة وهي كورة ريّـة وحاضرتها مدينة مالقة قام ابن مسعدة او ابن سلمـة بالتأليف في النمط نفسه بكتاب ذي أجزاء كثيرة في « أخبار ريّـة مـن بلاد الاندلس وحصونها وولاتهـا وحروبها وفقائها وشعرائها » . ثم قام بتجاوز هذا الاطار والف بناء على أمر من الحكم المستنصر كتابا شاملا لاخبار الاندلس. ويبدو مما اقتبسه المتأخرون من هـذا المؤلف الضائع انه شمل فترات تاريخ الاندلس منذ الفترة التي سبقت فتحها (٣٣) .

وفي فترة ولاية الحكم للعهد وخلال خلافته ، انتج اب وابنه من عائلة الرازي أهم مؤلفات هذه الفترة في التاريخ والجغرافيا . وتنتمي العائلة الى قبيلة كنانة العربية ، وبذلك يكون أصلها عربيا صريحا . لكنها استوطنت الري في بلاد فارس ، ومن هنـا جاءت شهرتها ونسبت الى المدينة . واتصل الداخل منها ، وهو والد المؤرخ محمد بن موسى ، بالامير الاموي في الاندلس وعمل لديه جاسوسا ، وينسب اليه تأليف كتـاب « الرايات » وهو عمل تاريخي صغير ينصب على موضوع محدد لايتجاوز القبائل العربية التي دخلت الاندلس تحت راية موسى بن نصير . وعاش احمد ابنه شبابه وبقية حياته في عصر خلافة الناصر والد الحكم (توفي ٣٤٤ هـ) ، ووضع في التاريخ والجغرافية عدة مؤلفات ، ففي الميدان الاخير وضع كتابا في طبوغرافية قرطبة ذكر فيه صفتها وخططها ومنازل العظماء بها ، على نحو ما بدأ بـه ابن أبي طاهر في أخبـار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور فيها ، كذلك ألف في الموضوع ذاته كتابا عن جغرافية الاندلس بكاملها جمع فيه النمطين المعروفين لدى العرب وهما : المسالكي والبلداني ، وقد وصفه ابن حزم بأنه « كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الاندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة وخواص كل منها وما فيه مما ليس في غيره » .

اما في التاريخ فقد وضع كتاب الفائق في « انساب مشاهير الاندلس » ويصفه ابن حزم بأنه في خمس مجلدات ضخمة (٣٤) . ووضع كتابا في التاريخ العام للاندلس بدءا من الفترة الاسطورية ، اي ما قبل الروماني فالقوطي فالاسلامي . وقد اعتمد عليـه المؤرخون الاندلسيون في العصور التالية ، وعبرت شهرته الحدود الاسلامية لتصل الى اسبانيا المسيحية فتستوحي منه المروية العامة لاسبانيا التي أمر بكتابتها بعد ثلاثـة قرون الفونسو الحكيم — مراحل التاريخ الاسباني اضافة للمعلومات التاريخية ، كما عبرت البحر الى المشرق ، واعتمد عليه ابـن الاثير فيما كتبـه عن فترته من تاريخ الاندلس . وفي القرن السابع الهجري أيضا أمر ملك البرتغال دون ديونيس بترجمتـه مـع وصف الاندلس الجغرافي ، وضاعت هذه الترجمة ، وما بقي ترجمة عنها للاسبانية باسم « مروية المسلم راسيس » cronica del moro Rasis (٣٥) واعاد بعده ابنـه عيسى للحكم المستنصر صياغة تاريخ الاندلس بشكل أكثر غنى ، وقد ادعى أن أبـاه

احمد هو مبتكر علم التاريخ بالاندلس وذلك بقوله« فغلب عليه حب الخبر والتنقير عنه، ولم يكن من شأن أهل الاندلس ، فالتقطه عمن لحقه من مشيختهم ورواتهم ودوّنه ، ووضع قواعد التاريخ بالاندلس مبتدئا ، فازلفه بالسطان واعتلت به منزلة والده ،من بعده ، وأكسبوا أهل الاندلس علما لم يكونوا يحسنونه » .

يتضح من هذا القول ان مفهوم التاريخ هنا قاصر على التاريخ العام ، الذي يرتب الحوادث على السنين خلال فترة طويلة ، ويتناول اضافة لها حديثا عن الشخصيات البارزة كالامراء والوزراء . أما تراجم الرجال والمؤلفات التي تروي حادثة والاراجيز التي تقص تاريخا ، وهي مؤلفات معروفة عند الاندلسيين منذ زمن ، فلا تعتبر تاريخا. ومع ذلك فان في حديث الابن عن أبيه مبالغة واضحة ، اذ وجد لكل من مؤلفات أبيه ما يشابهها في الفترة نفسها التي عاشها وفي البلاط الذي عاش قريبا منه ذاته ، وهو بلاط عبد الرحمن الناصر ، حيث كان ولي العهد المستنصر مهيمنا في هذا المجال . فاذا بدأنا بالانساب نرى الحكيم عبد الله بن عبيد الله (المتوفى سنة ٣٤١ هـ) ، يرفع للناصر سنة ٣٣٠ هـ كتابا ألفه في الانساب يحتوي على « ذكر الخلفاء ومن تناسل منهم في الاندلس ومن سائر قريش ومواليهم وأهل الخدمة والتصرف لهم ومشاهير العرب الداخلين الى الاندلس من المشرق من غير قريش ومواليهم ومشاهير قبائل البربر الذين احتلوا الاندلس »(٣٦) .

وعاش في بلاط الناصر ثم في بلاط ابنه ككاتب له عريب بن سعد (أو ابن زيد) . وكان عالما موسوعيا ، فهو شاعر له مؤلفات في الطب والزراعة ، كما ألف للحكم كتابا في الانواء ، نشره دوزي مع رسالة مشابهة لاسقف قرطبة تحت عنوان « تقويم سنة ٣٦١ هـ » (٣٧) . واشتهر أيضا بكتاب له في التاريخ العام على السنين وصل به تاريخ الطبري باخبار عن المشرق بين سنوات ٢٩٠ ــ ٣٢٠ هـ ، وهو مطبوع متداول في عصرنا . بهذا يبدو غير صحيح القول بأن أحمد الرازي كان المبتكر الوحيد لفن التاريخ. حتى لو أخذنا التاريخ بالمفهوم المشار اليه سابقا . ويبدو أنه ظهر في فترته لدى عديدين لتوافر العوامل الموضوعية الملائمة لظهوره ، وفي مقدمتها تراكم الى الحد الكافي في المعلومات التاريخية ، مثل المعلومات عن الرجال والحوادث بالنسبة للفترة الاسلامية من تاريخ الاندلس ، وكذلك اخبارها قبل الاسلام بنتاج ما ألفه وترجمه بعض المستعربين عن أيام القوط ومن سبقهم .

العلوم القديمة :

وهي بمفهوم العرب المسلمين تلك العلوم الداخلة ضمن اطار الفلسفة او

الحكمة ، والتي تضم ، عدا الفلسفة بمفهومنا ، مجموعة العلوم الرياضية والطبية والكيميائية . وقد سميت كذلك لاخذ العرب لها من الحضارات القديمة ، وخاصة اليونانية . كانت هذه العلوم مكروهة في الاندلس لدرجة انهم لم يتجردوا للبحث فيها الا في اواسط القرن الثالث الهجري ، وابقوا عملهم فيها في طي السرية والكتمان ، وحصل الانقلاب الكامل تجاهها في عهد الحكم حسب قول صاعد الطليطلي « ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر ، وذلك في ايام ابيه ، الى العناية بالعلوم والى ايثار اهلها واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة ... فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الاوائل وتعلم مذاهبهم » (٣٨) .

لقي العاملون في هذا المضمار لدى الحكم ما لقيه غيرهم من العلماء في المجالات الاخرى من التقريب والحظوة ، الا انه قربهم تحت ستار كونهم اطباء ، اما من لم يعرف منهم بالطب فقد ابقى نفسه على مسافة منه ، كما هو حاله مع عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، المبرز في علوم العدد والهندسة وينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ، وكان الحكم يعظمه ويؤثره ويروم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده . وقد انشأ الحكم للباقين المعروفين بالطب ديوانا يشرف على نفقاتهم كل بحسب مرتبته . ويظهر ان عطاياه لهم كانت كبيرة لدرجة ان العديدمنهم كانوا اصحاب وظائف عالية في مجالهم بالمشرق فقدموا الى موطنهم الاندلس والتحقوا بخدمة الحكم ، ومن مشاهيرهم احمد وعمر ابنا يونس الحراني، اللذان اتما تحصيلهما في العراق ثم عملا بخدمة رجال السلطان ببغداد ، ثم قدما على الحكم وبقيا في خدمته حتى الوفاة ، وقد خلف الثاني منهما ما تزيد قيمته على مائة الف دينار . تابع هؤلاء الاطباء المقربون للحكم عملهم في مجالات عملهم ، بعضهم يعمل في الفلسفة والمنطق وبعضهم الاخر في الهندسة والحساب ، كما ان ابني الحراني اقاما داخل سكنهما بمدينة الحكم الملكية الزهراء معملا صغيرا لتركيب الادوية . ويروي عن ابن جلجل انه رأى لاحمد الحراني فيه « اثني عشر صبيا صقالبة ، طباخين للاشربة صناعين للمعجونات بين يديه . وكان قد استاذن امير المؤمنين المستنصر ان يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فاتاح له ذلك» (٣٩) .

يلاحظ من تتبع اسماء المقربين للحكم في مضمار العلوم القديمة ان اغلبهم قد اكملوا علمهم في المشرق ، حيث تطورت هذه العلوم اثر ترجمة اصولها الى العربية ، ويبدو ان الحكم اراد للاندلسيين الاطلاع على الاصول القديمة من يونانية ولاتينية مباشرة وتبلور الشكل الذي اخذه هذا المسعى ، بالطريقة التي اتبعها في ترجمة كتابين ، احدهما يوناني والاخر لا تيني ، يقال انهما وردا ضمن هدية من امبراطور بيزنطة لبلاط

الخلافة في قرطبة . الكتاب اللاتيني هو « كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين» الفه باولوس اوروزيوس ، المحرف في الرواية العربية الى هيروشيشــس ، ويعرف « بانه تاريخ للروم عجيب فيه اخبار الدهور وقصص الملوك الاول وفوائد عظيمــة ». يورد ابن خلدون ان الكتاب قد ترجم للحكم المستنصر من قبل كل من قاضي نصارى قرطبة وترجمانهم فيها ، وقاسم بن اصبغ شيخ العصر . ويبدو ان الاول كان ينقـل الفكرة من اللاتينية الى العربية او العامية الاندلسية ويقوم الثاني بصياغتها صياغـة عربية سليمة .

وقد شك الباحث الايطالي ج. ليفي دي لافيدا بأن تكون القسطنطينية مصـدر المؤلف التاريخي اللاتيني ، لكن احدا لم يشك باصل الكتاب الثاني وهو لديسقوريدس اليوناني ، ويحتوي على الحشائش الطبية ، يضاف اليها حسب قول ابن جلجل «صور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ». ولم يكن هذا الكتاب مجهولا بالاندلس، اذ حوت مكتبة القصر ترجمة مشرقية له انجزت زمن المتوكل العباسي . لكن فائدتها بقيت محددة لان اسماء اعيان الحشائش في المشرق لا تطابق دائما اسماءها الاندلسية ، اضف الى ذلك ان المترجم المشرقي لم يعرف اعيان بعض النباتات فتركها على شكلهـا اليوناني ، عسى ان يتعرف عليها غيره(٤٠) . شجع الحكم عملية ترجمته من جديد ، وطلب مـن امبراطور بيزنطة ان ينفذ اقتراحه بايفاد عارف باليونانية من بلاطـه ، فاوفد الراهب نقولا الذي انضم اليه فريق اندلسي بينهم عارفون باللاتينيــة واطباء وعلمـاء نبات ولغويون . واستمر العمل به امدا توفي خلاله نقولا الراهب ، الا انه تيسر للاندلسيين عارف باليونانية من مسلمي صقلية .وانجز العمل بدرجة من الاتقـان كافيـة ، اذ استطاع العاملون التعرف على « اشخاص » الحشائش العقاقير في كتاب ديسقوريدس بمدينة قرطبة ونواحي الاندلس ، ولم يبق دون معرفة الا حوالي عشرة ادوية .

اسهام الحكم في الحياة العامية والرؤية الموجهة لسياسته فيها

لعل اول أسهام له كان التمويل وتقديم عطايا للعاملـين بلغت ضخامتها حـدا جعل بعض اعلام المشارقة يشدون الرحال اليه متحملين مشاق الرحلة الطويلة والبعد عن الاوطان . وتبع التمويل تيسير سبل العمل بتهيئة المكان المريح الملائم وتأمين المكتبة والسماح بالرجوع لوثائق دواوين ادارته . وقد لا يبـدو الحكم ضمن هـذه الحدود متميزا عن غيره من الخلفاء والسلاطين المسلمين ، اذ انهم أولو أمر في دول اسلاميـة والاسلام يحض على طلب العلم ، أضف الى ذلك ان تجمع العلماء في بلاط ما يخلق حول الحاكم هالة من العظمة ، اذ لا يخلو ان يكون بينهم شاعر او شعراء يتغنـون بامجاده ومؤرخ او مؤرخون يسجلون ما هو مشرق من احداث حكمه .

لكن الحكم تجاوز غيره بكثير من نواح عدة ، منها انفتاحه وتسامحه ، كما تجلى لنا ذلك من تقديمه للعلماء من مذاهب اخرى غير المالكيــة ، وكذلك في انفتاجــه على العلوم القديمة ، لكن هذا التسامح لم يكن مطلقا ولا يصل لحد السكوت عمن يتهم في دينه من العلماء . لذلك نراه يبعد فقيها شافعيا قد آواه في بلاطه ، عندما نمي اليــه انه على مذهب الاعتزال .

مما تميز به الحكم عن غيره ايضا انه شارك في التاليف كتابة وتخطيطا ومراجعة. كتب في الانساب والرجال ، اذ ينسب اليه ملحق لكتاب « قضاة قرطبة » للخشني ، وكذلك تعليقات كثيرة على بعض كتب مكتبته تناولت حديثا عن اطبــاء ايضا ، وتبـدو انه كان متقنا لما يكتب كثير التحري عن صحته ، اذ تتردد كثيرا لدى مؤلفين عاشوا بعد عصره وزوال حكم اسرته جملة « قرات ذلك بخط الحكم المستنصر وقوله حجة عندنا بالاندلس » . وفي حالة وضعه مخططا للؤلفات اتخذ تخطيطه اكثر من شكل ، فاحيانا يكون تحديدا دقيقا ، كما هو الحال في طبقات النحويين للزبيدي الذي يقول في مقدمته « الفت هذا الكتاب على الوجه الذي امرني به امير المؤمنين اعزه الله واقمته على الشكل الذي حده ، وامدني ابقاه الله في ذلك بعنايته وعلمه ووسعني من روايته وحفظه » . واحيانا يكون التخطيط عبارة عن تحديد الهدف والغاية فقط من الكتاب والاكتفاء بوضع الاطار العام ، كما يظهر ذلك في كتاب « قضاة قرطبة » للخشني ، الذي يقول في هذا الصدد « ان الحكم منطلقا من الرغبة في حفظ العلوم ومطالعة الاخبار وفي معرفة النسب وتقييد الآثار ، وفي الاشارة لفضائل الســلف والتقليد لمناقــب الخلف وفي التذكير بالمنسي من الانباء والاشارة للسالف من القصص وبخاصة ما كان في مصره قديما وفي عصره حديثــا وقد امر بتأليــف كتاب القضـــاة مقصورا على من قضى للخلفــاء بارض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة ولعمالهم بها من قبل» .

قام الحكم ايضا بمراجعة بعض المؤلفات على الاقل ، ومن الامثلة على ذلـك انــه لما اكتمل معجم البارع لابي علي القالي « ورفع اليه اراد ان يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجمع عليها من كتاب العين فبلغ ذلك الى خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة » . وشبيه بهذا ما حدث لمختصر العين الذي قام بــه الزبيدي « على التصنيف والترتيب اللذين حدهما له ..ارتضى عمله فيه عند تصفحه .. واوصله الى نفسه يومه هذا ففاوضه في عمله الذي برع فيه واستثار له من غوامض فنونه..» صفوة القول اذن ان النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر كان موجها من قبلــه. ويبقى المهم بالتالي تبين رؤيته الموجهة وهل كانت تقليدية ، بمعنى اعطاء قــوة دافعة فقط لمسيرة الحياة الفكرية وفق الخطوط التي كانت تسير عليها ضمن اطار تقليــد المشرق ..؟، يبدو لاول وهلة ان النشاط الفكري ظل على انتاج الانماط نفسها ، كما

يتجلى ذلك في المؤلفات اللغوية والادبية التي تختصر او تعارض تلك المؤلفات التي ظهرت في المشرق . الا ان نظرة اكثر شمولا في الاستقصاء واعمق في التامل تدل على ان ظروف الواقع الاندلسي والحاجات المنبثقة عنه كان لها تاثير كبير بحيث كونت تلبيتها الرؤية الموجهة للحكم في توجيه النشاط الفكري ببلاطه .

يمكن اجمال ظروف الواقع الاندلسي بكون الاندلس الموحدة القوية التي تبسط نفوذها على شمال اسبانيا من جهة ، كانت تواجه تحديا خطيرا من الجنوب متمثلا بالفاطميين الذين يسيطرون على جزء كبير من المغرب العربي الاسلامي ويطمحون لاخضاع ديار الاسلام كلها ، بما فيها الاندلس ، لسلطان امامهم الذي اعتبروه الامام الوحيد لها . وقد رد الاندلسيون سياسيا على هذا التحدي باعلان اميرهم خليفة اوحد لديار الاسلام ، من دون الامام الفاطمي في المغرب والخليفة العباسي في المشرق . وفي مواجهة المذهب الفاطمي دعم الخلفاء الاندلسيون المذهب المالكي وفقهاءه ، كما حاولوا ابراز مكانة قاعدتهم وهي الاندلس وجلاء تفوقها لا على المغرب فحسب بل وعلى العراق أيضا .

انبثقت الرؤية الموجهة للنشاط الفكري لدى الحكم من ضرورات تلبية حاجات الاندلس ودولة الامويين فيها . وهكذا نرى اهتماما موجها نحو تمجيد وتعظيم الامويين ، اذ يؤلف شيخه وشيخ ابيه قاسم بن اصبغ كتابا في فضائل قريش . علما ان امويي الاندلس ينعتون انفسهم بالقرشيين . كما ان الحكم يجمع اشعار الخلفاء من بني امية في كتاب ، كما يحاول ان يعلي من ذكر اسرته في الاقطار الاخرى فيكافيء من يؤلف عنهم كما هو حاله مع ابي الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني ، الذي الف في انساب قومه ومدحهم معه بقصيدة ، وكذلك هديته المالية الى ابي عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب كتاب الولاة والقضاة ، الذي الف عن اخر المروانيين مروان الجعدي . وفي الوقت نفسه سدت الحاجة لتمجيد قاعدتهم الاندلس بتلك المؤلفات الكثيرة في الجغرافيا والتاريخ ، التي اعطت صورة عن غناها بالموارد المادية والطاقات البشرية التي عكستها كتب تراجم الشعراء والاطباء والفقهاء والمحدثين . ونظرا لمكانة الاخيرين الدينية بذل الحكم جهدا شخصيا لابرازهم عند المؤلفين المشارقة . فقد الف ابو سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس المصري تاريخا لاهل الاندلس والمغرب اخذه من كتاب انفذه اليه الحكم المستنصر (٤٢) . اما التاريخ العام فيبدو في الظاهر وكانه تقليد للنمط المشرقي ولا علاقة له بتمجيد الاندلس ، لكن الاطلاع على مضمون المؤلف منه في الاندلس يبين انه يخدم الغرض خدمة وافية ، اذ يتحول هنا لتاريخ للاندلس فقط منذ العصور القديمة ، وبالتالي يعكس استمرارية حكم الامويين من جهة ويجلي عراقتها كقاعدة للملك منذ اقدم العصور . لكن الشعوبيين الاندلسيين استغلوا هذا الغرض ليدسوا في

ثنايا المكتوب ما يبين فضل اهل الاندلس القدماء على العرب المسلمين ، كما يظهر ذلك واضحا من كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية(٤٣) .

من ناحية اخرى اقتضت ضرورات الصراع مع الفاطميين الى اعتماد الاندلسيين على جملة وسائل ، منها دعم الفقهاء المالكيين والمذهب المالكي واعتبار سير القبائل المغربية بموجب احكامه علامة طاعة لهم . ولم يقتصر دعم الفقهاء على من وجد منهم في الاندلس والمغرب بل تعدى الامر ذلك الى مصر ، حيث كانت الهبات توزع عليهم بمعدل مائة دينار للواحد ، مع مضاعفتها لكبيرهم . ويصب في المجرى نفسه التشجيع الذي رأيناه من الحكم للتاليف حول اقوال مالك ورجاله .وتتضح الغاية الدعائية في الحديث عن رجال المالكية واضحة بجلاء في كتاب الخشني « علماء افريقية » الذي يبدو كتابا ذا طابع موضوعي يعرض لعلماء افريقية كلهم وعلى اختلاف مذاهبهم . لكن تفحصه بشيء من الدقة يوصل الى مكمن الدعاية فيه ، فبينما تقتصر تراجم الغالبية فيه على سطور قليلة من المطبوع نراه يخص سعيدا بن الحداد ، الفقيه المالكي الذي تحلى بالقدرة على الجدل والدفاع عن المالكية ضد الدعوة الفاطمية المعادية بعشرين صفحة ٢٥٧ ــ ٢٧٨ من هذا المطبوع . والاهم من طول الترجمة في تعيين الغاية هو مضمونها ، اذ حوت على وقائع مجادلاته مع احد كبار الدعاة الفاطميين وافحامه له ونقضه للاسس الفكرية التي يقوم عليها مذهبه ، كقضايا ترتيب كبار الصحابة في الفضل ، والامامة بالنص والامر الالهي لا باختيار الناس ، وامامة المفضول مع وجود الافضل . وبذلك يكون الخشني قد بث بين مطالعي الكتاب تسفيهالفكر الفاطميين. من الجوانب الفكرية التي شجعها الحكم تلك التي تخدم ضرورات سياسته الخارجية القائمة على فرض الهيمنة وبسط النفوذ في المغرب وشمال اسبانية . ففي المنطقة الاولى كان يحارب الفاطميين باثارة القبائل والقوى الاجتماعية في المدن ضدهم ، وتتحرك رسله عبر المغرب في كل الاتجاهات لتحقيق الغرض ، وبالتالي كان لابد له من معرفته ارضا وسكانا ، وتيسر له ذلك بمؤلفات محمد بن يوسف الوراق القيرواني الموطن ، الذي الف له « في مسالك افريقية وممالكها ديوانا ضخما وفي اخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة وكذلك الف في اخبار تاهرت ووهران وسجلماسة ونكور والبصرة تواليفا حسانا »(٤٤) . اما الشمال الاسباني فكان يعرفه عن طريق مبعوثيه المقيمين ، نظرا لصلات المنطقة مع امراء الفرنجة في غاليا ، فقد تعرف على اخبارهم وملوكهم بواسطة اسقف مدينة جرندة الحدودية بين اسبانيا وغاليا ، الذي ارسل له كتابا بهذا الصدد رأى المؤرخ المشرقي المسعودي نسخة منه بمصر (٤٥) .

ولبى حاجات التنافس مع المشرق ايضا ذلك الجانب من النشاط الفكري في بلاط الاندلس ، المتمثل اولا بانهاء التبعية الثقافية للمشرق ، ويظهر ذلك بنقل الاصول

الفقهية للفقهاء القدماء كالزهري والحسن البصري ، وفي العلوم القديمة بالاطلاع على اصولها القديمة ، لاعبر الترجمات المشرقية بها ، كما رأينا في كتاب ديسقوريدس . ولدينا العديد من المؤشرات الاخرى على رغبة الحكم لا بانهاء التبعية للمشرق فحسب بل التفوق عليه ، فعندما بلغه نبأ انسحاب احد اعضاء الوفد الذي ارسله لاستقبال ابي على القالي وامتناعه عن مرافقته لانهاكتشف له اخطاء فيرواية شعر ، لم يحاسبه الحكم على ذلك بل بارك عمله بقوله « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد اهل العراق الينا وابن رفاعة اولى بالرضا عنه من السخط » .

اصابت عدوى منافسة الاندلس للعراق في تبوؤ مركز الصدارة في ديار الاسلام للجماعات الخاضعة منا هل الذمة ، فقد كانت الجماعة اليهودية في الاندلس على سبيل المثال تتبع السلطة اليهودية المشرعة والمدبرة لشؤون اليهود في بغداد ، والتي كانت منذ ايام الساسانيين تضع القواعد والتشريعات الهادفة الى تسيير حياة جماعتها وفق احكام التلمود(٤٦) . وهكذا كان يهود الاندلس « يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت اعيادهم ليهود بغداد . وفي زمن الحكم قاماحد خدمته في الطب وهو حسداي بن اسحق اليهودي باستجلاب تاليف من المشرق وعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه» (٤٧) .

من هذا كله يمكننا القول ، انه كان لدى الحكم المستنصر رؤية واضحة في توجيهه للنشاط الفكري في بلاطه ، قائمة على جعل هذا النشاط يخدم ويلبي الحاجات المنبثقة من واقع سلطانه وسياسته الداخلية والخارجية .

الحواشـي :

(١) Melchor M.Antuna, **La Corte Literaria de al-Hakam II,** el - Escorial, 1929 .

(٢) ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، ج٥ ، تحقيق شالميتا واخرين (مدريد ١٩٧٩) ، ص ٣٢٢ .

(٣) الزبيدي ، طبقات النحويين ، (القاهرة ، ١٩٧٣) ص ٢٨٢ – ٢٨٣ . ابن الابار ، التكملـة (ط القاهرة ١٩٦٥) ج١ ، ت ٥٤٨ .

(٤) المقتبس ، تح شالميتا ، ص ١٤–١٥ .

(٥) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تح حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) ص ٢٠٦–٢٠٨ .

(٦) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، تح احمد بكير محمود (بيروت) ج٣–٤ ، ص٤٢٠–٤٢١.

(٧) طبقات النحويين ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ و ٢٨٤و٣٠٣ . ابن القرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، (ط القاهرة ١٩٥٤) ، ت ١٥٤٥ و ١٠٧٠ .

(٨) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تح بروفنسـال ، ج٢ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تح بروفنسال ، ص ١٠٠ التكملة ، ت٦٢١ .

(١٠) المقتبس ، تح عبد الرحمن الحجي ، ص ٢١٧ .

(١١) ترتيب المدارك ، ج ٣–٤ ، ص ٥٧ – ٥٧٣ .

(١٢) الحلة السيراء ، ج١ ، ص ٣٠٢ .

(١٣) ابن النديم ، الفهرست ، (ط خياط)، ص ٥٩.

(١٤) التكملة ، ج ١ ، ت ٩٨٠ . ابن الفرضي .ت ١٦٣٦ .

(١٥) المقري ، نفح الطيب ، ع محمد الدين عبد الحميد ، (القاهرة ١٩٤٩) ج٤ ، ص ١٠٨ ، تكملـة ج١،ت ٥٠٨و٩٣٦ . ابن الفرضي ، ت ٨٨٦.

(١٦) الفهرست ، ص ٤٢ – ٤٣ . الحميدي ، جذوة المقتبس ، تح محمد بن تاويت الطنجي،ت١٧٢ .ابن الفرضي ، ت ١٠٦٢.

(١٧) المصدر السابق ، ت ١٥٩، طبقات النحويين ، ص ٣١٠ – ٣١٤

(١٨) نفح الطيب ، ج٤ ، ص ١١٧ . ابن القرضي ، ت ١٤٠٤و١٤٠٢ .

(١٩) التكملة ، ج١ ، ت ٦٩٩ .

(٢٠) من مؤلفاته التي لم نورد لها ذكرا في المتن « المدود والمقصور » و « فعلت وافعلت » و « حلـي الانسان والخيل وشياتها » و « مقاتل الفرنسان » و « تفسير القصائد المعلقات » و « الامثال » . انظر ، طبقات النحويين، ص ١٨٦.

(٢١) جذوة المقتبس ، ت ٣٠٣ ، انباه الرواة ، ج ١٠٩٠١، التكملة ، ت ١١٠٤ . ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،ج١ ، ص ٧٤. ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج٧ ، ص ٢٥–٣٣.

(٢٢) المزهر ، ص ٤٤ .البير حبيب مطلق ، الحركة اللغوية في الاندلس ، ص ١٣٠.

(٢٣) المصدر السابق، ص١٤٦–١٦٥.

(٢٤) جذوة الاقتباس ، ت ١٧٢ .

(٢٥) رواية ابن حزم في « جذوة الاقتباس » ، ت ١٧٦ وفي نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٦٦ .

(٢٦) طبقات النحويين ، ص ٢٠١–٢٠٢.

(٢٧) ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه (سرقسطة ١٨٩٣) ، ص ٢١٤ ، نفح الطيب ، ج٤، ص١٦٤ جذوة الاقتباس ،ت ٩١٥ .

(٢٨) ترتيب المدارك ، ج٣-٤ ، ص ٦٣٤ - ٦٣٥ و ٤٤٠ - ٤٤١ . ٤٣٦-٤٣٧ .

(٢٩) الف محمد بن هشام المرواني كتاب ((اخبار الشعراء)) وقاسم بن سعدان كتاب ((فقهاء ريه)) وابو اسحاق الباجي ((رجل باجه)) و ((فقهاء باجه)) واحمد بن عبد البر ((فقهاء قرطبة)) والف ابن عبد البر ((فقهاء قرطبة)) والف ابن عبد البر الكشكيناني ((فقهاء وقضاة قرطبة)) .

(٣٠) من كتبه الاخرى التي الفها للحكم ((فقهاء المالكية)) و ((التعريف)) و ((المولد والوفاة)) و ((النسب)) و ((الاقتباس)) .

(٣١) J.Ribera, al-Jusani, **Historia de los Jueces de Cordoba,** PPXXII - XLIII .
C. Sanchez. Albornoz, **En Torno a los Origenes del Feudalismo** (Buenos-Aires 1977) T.II, PP 162-166.

(٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ١٣٦٧ . ابن القرضي ، ت ١٤٤٣ . ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تح عبد اللهعنان ،ج١ ، ص ٣٢٠ .

(٣٣) ابن القرضي ، ت ٢٣٨ . جذوة الاقتباس ت ٣٠٥ . نفح الطيب ، ج ٢٤، ص ١٦٦. المقتبس ،تح شالميتا ،ص٤٦ و ٢٧٤-٢٧٨ .

(٣٤) المقتبس ، تح محمود مكي ، ص ١٦٥ - ٢٦٩ . التكملة . ت ١٨٥ ، جذوة الاقتباس،ت١٧٤ .

(٣٥) Pons Poigues , **Historiadores Y Geografos Arabigo - Espanoles ,** Madrid 1898 PP. 62- 66.
C.Sanchez Albornoz , **En torno** .. PP. 115-158.

(٣٦) محمد بن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة، تح محمد بن شريفة ، ق١،ص٢١٢-٢١٣ .

(٣٧) Levi Provencal , **Historia de Espana, Mosulmana,** (Madrid 1957) , P,137-135.

(٣٨) صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص٨٤و ٨٦.

(٣٩) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ و٤٨٧ .

(٤٠) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ،ص ٣٠-٣٩.

(٤١) محمد بن حارث الخشني ، قضاة قرطبة ، نشر الحسيني ، ص ١٠ .

(٤٢) ابن الفرضي ، ص ٩-١٠ .

(٤٣) J,Ribera, **Disertaciones Y Opusculos** (Madrid 1956), T.I,PP 119-129.

(٤٤) التكملة ، ت ٩٩٦ و ١٧٧ .

(٤٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٢-٨ .

(٤٦) Michael Morony, **Iraq After the Muslim Conpuest** , Oxford 1983, PP . 306-314 .

(٤٧) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٨ .

القبائل العربية في بلاد الشام

وموقفها من حركة الفتح الإسلامي

د. محمد ضيف الله البطاينة

جامعة اليرموك

وجود العرب في بلاد الشام سابق على انتشار الاسلام فيه ، وقد استرعى ذلك اهتمام المؤرخين المعاصرين عند دراسة حركة الفتوحات الاسلامية ، وترك أثرا بينا في اثناء تعليل النصر الذي احرزه المسلمون ، وتفسير السرعة التي تمت الفتوحات فيها (١) .

وانتشار العرب بكثرة أو بقلة ، بين الداخل والساحل من بلاد الشام ، وبين البادية والحاضرة منها ، أمر له أهميته في العلاقات العربية الشامية والقوى السياسية الأخرى قبل الفتح الاسلامي للشام وبعده .

قيل كانت كلب تنزل في الجاهلية دومة الجندل ، وكان ينزل معها قوم من قضاعة وغسان ومذحج(٢) ، وغزاهم في دومة الجندل عبد الرحمن بن عوف عام ست من الهجرة(٣) .

كما نزلت كلب تبوك وأطراف الشام(٤) ، واتصلت منازلهم في هذه البلاد بتدمر،

وحمص ، والسويداء ، وبادية السماوة من حد دومة الجندل الى عين التمر ، وقيل لم يخالطهم فيها أحد(٥) ، وقراقر وسوى ، وهما من مياه كلب التي مر بها خالد بن الوليد في اثناء قدومه من العراق الى الشام(٦) .

وكانت فزارة تنزل وادي القرى وحسمى من جنوب الاردن ، وغزاها في وادي القرى زيد بن حارثة (٧) .

ونزلت بهراء شمالي منازل بلي ، وامتدت منازلها من الينبع الى ايلة(٨) ، وكانت لخم وجذام تنزل على طول الطريق الى الشام ، وامتدت منازلهم بين مدين الى تبوك فالى اذرح (٩) ، وغزاهم عمرو بن العاص في ذات السلاسل (١٠)

وغزاهم اسامة بن زيد بن حارثة عام ١١ هـ في آبل الزيت وبنى بين البلقاء وفلسطين ، واغار على منازلهم ، فاصاب في بني الضبيب من جذام ، وفي بني خليل من لخم(١١) .

ويبدو ان قوما من لخم كانوا ينزلون فلسطين ، لما رُوي ان وفداً من الداريين من لخم كان يضم تميم بن أوس واخاه نعيم بن أوس ، ويزيد بن قيس وعرفه بن مالك ، قدموا من الشام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاقطعهم الرسول (ص) حبرى وبيت عينون ومسجد ابراهيم ، فلما افتتح الشام دفع ذلك اليهم (١٢) .

ومضت سليح وتنوخ وخشين والقين وغيرها من قبائل قضاعة الى الشام ، فنزلت سليح بناحية فلسطين على بني اذينة بن سميدع من عاملة(١٣) ، وكان بنو عاملة وهم من القبائل اليمنية ، ينزلون قرب دمشق في جبل الجليل الذي يشرف على طبريا ، ويمتد الى البحر المتوسط ، وقد نسب اليهم وعرف باسم جبل عاملة(١٤) .

ونزلت تنوخ حاضر قنسرين مذ أول ما اقاموا بالشام ، واتخذت خيم الشعر لسكناها ، ثم ابتنوا به المنازل ، وكان حاضر حلب يجمع اصنافا من العرب من تنوخ واياد وغيرهم ، ونزل بنو القعقاع العبسيون الحيار التي عرفت باسمهم « حيار بني القعقاع » ، وكانت تجاور منطقة حلب(١٥) ، ويذكر البلاذري ان طليعة عياض بن غنم انتهت الى الرقة ، فاغاروا على حاضر كان حولها للعرب(١٦) .

ويروى انه لما اتى عمير بن سعد الانصاري شق الفرات الشامي ، عرض الاسلام على من هناك من بني تغلب(١٧) ، ويذكر الهمداني ان الفرات ياتي من بلد الروم شاقا

في طرف الشام على التواء الى العراق ، فغربيه ديار كلب ، وشرقيه ديار مضر(١٨) ، ومن قبائل مضر بنو كلاب قوم زفر بن عاصم الهلالي(١٩) .

وفي قول للواقدي ، ان الرسول (ص) بعث سرية الى مؤته بقيادة زيد بن حارثة، واهل موته يومئذ غسان(٢٠) . وكانت منازل غسان(٢١) ، متفرقة في بلاد الشام ، نزلوا البلقاء ، والجولان ، واليرموك ، والغوطة ، ودمشق (٢٢) ، وكان خالد بن الوليد لما ترك ميدان العراق الى الشام أغار على غسان في مرج راهط ومرج الصفر(٢٣) .

وعندما يتحدث الازدي(٢٤) عن أهل الاردن وفلسطين يذكر منهم : .. وكثير من العرب .

ولما فتح المسلمون قيسارية وجدوا بها خلقا من العرب ، وكانت فيهم شقراء وقيل شعثاء ، التي يقول فيها حسان بن ثابت :

تقول شقراء لو صحوت عن الخمر لاصبحت مثري العدد (٢٥)

ويقول ابن حوقل(٢٦) ، واما بادية الشام فانها ديار لفزارة ، ولخم ، وجذام ، وبلي وقبائل مختلفة من اليمن وربيعة ومضر . ويرد ذكر بعض القبائل العربية في الشام في الاخبار التي تتحدث عن معركة مؤتة ، فتقول ، ان المسلمين لما نزلوا معان في جنوب الاردن، بلغهم ان بيزنطة حشدت قبائل العرب من لخم ، وجذام وبلقين، وبهراء ، وبلي ، وقبائل من قضاعة وغيرها من القبائل التي كانت تنزل تلك البلاد من جنوب الشام(٢٧) .

ويذكر ابو جعفر الطبري(٢٨) هذه القبائل ثانية في اثناء خروج المسلمين لفتح بلاد الشام في خلافة ابي بكر ، ويذكر لقاء المسلمين بهم دون زيزاء ، منهم كلب وسليح، وتنوخ ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، كما يذكرهم الازدى(٢٩) في اثناء فتوح الاردن منهم ، جذام ،ولخم وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة .

بخصوص هجرة العرب من مواطنهم وانتقالهم الى الشام وغيرها من البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، يقول ابو جعفر الطبري ، وكان ناس من العرب يحدثون في قومهم الاحداث ، أو تضيق بهم المعيشة ، فيخرجون الى ريف العراق ، أو الى ما يليهم من بلاد اليمن ، او مشارف الشام(٣٠) .

ونظرة الى الوجود العربي في الشام زمن الراشدين والامويين والعباسيين ، ثم

الى الحلف الذي عقده صالح بن مرداس امير الكلابيين في شمال الشام ، وسنان بن عليان أمير الكلبيين في وسط الشام ، وحسان بن الجراح امير الطائيين في جنوب الشام عام ٤١٥ هـ لاخراج الفاطميين من الشام (٣١) ، ودلالته على مراكز القوى للقبيلة العربية وتجمعها في الشام ، نجد ان الخطوط الرئيسية لخارطة انتشار القبائل العربية في الشام قبل الفتح الاسلامي وبعده ، تنطوي على بعض نقاط الالتقاء والتشابه ، وتكاد الفوارق بين الوضعين تكون في الكثافة العددية للقبيلة التي اخذت بطونها وافخاذها تتحرك من مواضعها في داخل الجزيرة ومن تخومها الى الشام بدافع ذاتي وبترتيب اداري(٣٢) من جهة ، وبسعة المنطقة التي صارت القبائل تنزل فيها وتمتد حتى تصل الى الساحل احيانا من جهة اخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها ، كانت بلاد الشام تابعة لبيزنطة ، وكان من المعقول جدا ، ان لا تظل القبائل العربية في الشام خارجة عن تدابير بيزنطة واجراءاتها في الشام ، تلك الاجراءات التي كانت ترمي الى حماية سلطان بيزنطة في المنطقة ، وضمان الامن والاستقرار فيها لخدمة مصالحها ، سيما وقد كانت المنطقة تشهد الصراع الذي كان يحتدم بين بيزنطة وفارس ، وكان الاستيلاء على تخوم الشام واطراف شبه الجزيرة باعتبارها معابر لاهم الطرق التجارية يمثل واحدا من مظاهر هذا الصراع(٣٣)، كما كانت سلامة الطرق التجارية ، وحماية القوافل التجارية من الاعتداءات عليها ، وبخاصة اعتداءات الاعراب، بعدا آخر في سياسة هاتين الدولتين . لذلك قبلت بيزنطة القبائل العربية التي كانت تنزل الشام ، وملكت المتغلب منها عليها ، ومدتها ببعض المال سنويا(٣٤) ثم فوضت اليها حماية الحدود ، والمواضع التي يصعب حمايتها ودفع هجمات القبائل عنها ، وفي احيان كانت تشركها معها في حروبها الخارجية . ويبدو أن بيزنطة وجدت سياسة اتخاذ هذه القبائل العربية لحرب العرب المناوئين ، حلا عمليا مجديا عسكريا واقتصاديا ، وبخاصة في الدفاع عن الحدود ضد عدو مراوغ فرار(٣٥) .

فهي لما وجدت قبيلة تنوخ تغلبت على غيرها ، ملكتها على العرب بالشام ، ثم وردت سليح وغلبت تنوخ ، فملكتها بيزنطة على العرب(٣٦) ، ثم وردت غسان ،وكانت خاضعة أول الامر لسليح ، وتدفع لهم اتاوة(٣٧) ، ولكنها تغلبت عليهم فملكتها بيزنطة على عرب الشام(٣٨) ، وبخصوص تأثير بيزنطة لغسان ، ذكر ابن حبيب في المحبر قال، لما غلبت غسان سليح ، خافت بيزنطة ان يميل الغساسنة مع الفرس، فاستمالتهم ، وكتبت كتابا جاء فيه ان يساندوها وتساندهم(٣٩) ، وتكاد امارة غسان ان تكون آخر الامارات العربية التي ظهرت ببلاد الشام في فترة ما قبل الفتح الاسلامي، وجاء ظهورها عام ٥٢٩ في عهد الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير (٥٢٧م —

٥٦٥م) (٤٠) ، وقيل كان ذلك عام ٥٠٢م ، في عهد الامبراطور البيزنطي انستازيوس الاول (٤٩١م ـ ٥١٨م) . الذي وقعت في زمنه الحرب الفارسية البيزنطية ما بين ٥٠٢ ـ ٥٠٦ م (٤١)

بلغت الامارة الغسانية منزلة جيدة عند البيزنطيين ، وكان امراء غسان يحملون منذ عام ٥٣٦ م لقب « فيلارك » ، بمعنى رئيس أو شيخ القبيلة او عامل ، وانعم القيصر طيباريوس قسطنطين (٥٧٨م ـ ٥٨٢ م) عام ٥٨٠ م على الامير الغساني المنذر بـ « التاج » ، وكانوا ينعمون قبلا على عمالهم بـ « الاكاليل » (٤٢) ، وشملت سلطة الامارة الغسانية القبائل العربية الرحل ، أو شبه الرحل التي كانت تنزل دوماً ، أو في اوقات معلومة في فلسطين الثانية ، والولاية العربية ، وفينيقية لبنان ، حتى في فلسطين الثالثة ، وربما ايضا في ولايات سورية الشمالية ، أي القبائل العربية في جميع بلاد الشام ، اما في البيداء فبلغت الى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأس الأمير الغساني وسلاحه ، وقدمت الحكومة البيزنطية للامارة الغسانية الاعانات السنوية ، غير انها جعلت سلطة الامير الغساني مقيدة بسلطةالحكام المدنيين والحربيين المعينين من لدن الحكومة البيزنطية المركزية(٤٣) .

لم ينعم الغساسنة بهذه المكانة طويلا ، وتأثر وضعهم بتطور الاحوال السياسية والاقتصادية في بيزنطة ، تلك الاحوال التي أسفرت عن ضعف مركز بيزنطة في العلاقات البيزنطية الفارسية ، وفرض الاتاوات المالية على بيزنطة نتيجة خسارتها الحرب مع فارس غير مرة(٤٤) ، كما تأثر وضع الامارة الغسانية بالخلافات الدينية التي كانت تجري في بيزنطة وبخاصة بين المركز والاطراف كبلاد الشام حول طبيعة المسيح(٤٥) .

ثم لم يلبث الفرس أن قاموا بهجوم شامل على الامبراطورية البيزنطية منذ عام ٦٠٥م ، واستولوا على دمشق وطرسوس والقدس عام ٦١١م ، ثم على مصر عام ٦١٩ م ، وظلت هذه البلاد خارجة عن سلطان بيزنطة حتى عام ٦٢٨م، (٤٦) ولابد ان الفرس في هذه الفترة لم يبقوا في هذه البلاد على عمال بيزنطة ، وطبيعي ان عمال الفرس من العرب لم يشاؤوا ان يتركوا الحكم في سورية بايدي الغساسنة الذين اراقوا دماءهم وعاثوا في ديارهم(٤٧) .

ثم خرج الفرس عام ٦٢٨ م وقيل عام ٦٢٩م من بلاد الشام ، وعادت بلاد الشام الى سلطان بيزنطة ، فما الذي جرى في مجال العلاقات العربية البيزنطية في بلاد الشام .

ذكر نولدكه ان المصادر السورية والبيزنطية انقطعت عن رواية اخبار الامارة

الغسانية منذ نهاية القرن السادس الميلادي(٤٨) ، وأما ميرسون(٤٩) ، فذكر ان بيزنطة بعد عودتها الى سورية اعتمدت في جنوب فلسطين على القبائل البدوية في تلك المنطقة في حفظ الأمن على مداخلها وطرقها مقابل مبالغ مالية معينة ، وأقامت في جنوب البحر الميت خطا دفاعيا اعتمدت فيه على الجند من حرس الصحراء ، وكان القائد البيزنطي في فلسطين يجمعهم لرد اعتداءات أهل البادية ، واما بخصوص الحدود الشرقية مع فارس ، فذكر ميرسون ان جستنيان كان قد اعتمد على الغساسنة في حمايتها ، مثلما اعتمدت فارس على المناذرة ، ولكنه لا يذكر بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام شيئا عن الترتيبات التي أتخذتها في هذه المنطقة ، وبخاصة فيما يتعلق بالامارة الغسانية ، وعندما تعرض اسماعيل الخالدي(٥٠) لسقوط الامارة الغسانية ، كان اعتماده في تتبع الاخبار المتعلقة بزوال هذه الامارة على المصادر العربية وذكر ، اعتمادا على ذلك ، ان جبلة بن الايهم كان آخر امراء الغساسنة ، وان معركة اليرموك كانت نهاية الامارة الغسانية .

وورود غسان وجذام وبلقين وغيرها في المصادر العربية ، يعني القبائل التي كانت تسكن بلاد الشام عند الفتح الاسلامي ، وورود بعض الاسماء مثل جبلة بن الايهم وغيره كامراء ، يعني شيوخ هذه القبائل ورؤساءها ، وأما الشواهد التاريخية فلا تدل بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام ، على قيام اسرة مالكة غسانية ، أو غير غسانية يتمتع اميرها بما كان الامير الغساني الحارث او المنذر مثلا يتمتع به ، من بسطة في النفوذ والسلطان

ويبدو ان الاطاحة بالاسرة اللخمية نظيرة الاسرة الغسانية . اضافة الى الحرب البيزنطية الفارسية التي ادت الى هزيمة الفرس.وكسيرتهم في عقر دارهم ، كانت سببا الى عدم اقامة امارة غسانية ثانية، وان الامبراطورالبيزنطي هرقل (٦١٠م-٦٤١م) لم ير ذلك ضرورة ملحة ، واكتفى بالتعامل مع رؤساء القبائل المختلفة كجزء من خطته في حفظ الأمن على حدود الامبراطورية ، وتأمين سلامة الطرق والمعابر التجارية .

وهكذا لم تؤد العلاقة العربية البيزنطية الى توحيد موقف الجانبين ، وتدعيم جبهة مشتركة بينهما ، بل شهدت أواخر القرن السادس الميلادي والثلث الاول من القرن السابع الميلادي ، حالة ارتخاء وفتور وعداء احيانا ، ثم مباينة واضحة بين الجانبين (٥٢) .

وفي الجانب الآخر ، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد في بداية القرن السابع الميلادي ، ظهور الدعوة الاسلامية في مكة ، ثم قيام الدولة الاسلامية من بعد في المدينة،

وصارت المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية موضع اهتمام الرسـول (ص) منذ السنة الخامسة للهجرة، وصارت قبائل قضاعة من سليح وبلي وكلب وعذره وبهراء، وغيرها من القبائل العربية التي تنزل هذه المنطقة وامتدادها نحو تخوم الشام وداخله طرفا في العلاقات الاسلامية ، فقد بعث الرسول (ص) زيد بن حارثة في جيش الى جذام من السنة السادسة للهجرة ، وبعث من السنة نفسها عبد الرحمـن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، وقاد الجيش بنفسه عام سبعة للهجرة الى خيبر وما حولها ؛ وارسل عمرو بن العاص في الجيش عام ثمانية للهجرة الى ارض بلي وعذرة من بـلاد قضاعة ، ذلك ان ام العاص بن وائـل كانت امرأة قضاعية من بلي ، وبعث من السنة نفسها عمرو بن كعب الغفاري الى ذات اطلاع بناحية البلقاء من الشام ، كما ارسل زيد بن حارثة الى مؤتة ، ثم قاد الجيش في السنة التاسعة للجهرة بنفسه الى تبـوك ودومة الجندل وايلة ومقنا واذرح وجرباء والبلاد الاخرى من حولها(٥٤) .

والى جانب ذلك ، وجه رسله بالكتب الى الملوك والامراء من اهل البلاد المجاورة، فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر الروم(٥٥) ، وشجاع بن وهب الاسدي الـى الحارث بن ابي شمر الغساني ، وقال ابن هشام ، بعثه الى جبلة بن الايهم الغساني وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام(٥٦) .

وفي ظني ان دعوة الناس الى الاسـلام لم تكن وقفا على الجهـود الدبلوماسية فحسـب ، بل كانت البعوث العسكرية مجـالا آخر من مجـالات التبادل والاتصـال الفكري ، واعطت الدبلوماسية والجهود العسكرية معا نتائج ملموسة في هذا الجانب، فعندما بعث الرسول (ص) عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، قال له : ان أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فاسلم القوم وتزوج عبد الرحمن بن عوف تماضر بنت الاصبغ الكلبي ، ولما مات الرسول (ص) كان عامله على كلب امرؤ القيس بن الاصبغ الكلبي ، ولما قيل ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول (ص) بقي امرؤ القيس على دينه ، وكان عامله على القين عمرو بن الحكم ، وعامله على سعد هذيم ، معاوية الوائلي(٥٧) .

ونجح الرسول (ص) في عقد معاهدات مع أهل ايلة ، وجرباء ومقنا ، وتعهـد اصحاب هذه البلاد بدفع الجزية ، وان يقروا المسلمين اذا مروا بهم ، وان لا يكونوا عيونا أو ادلاء عليهم(٥٨) .

وقيل اسلم اكيدر دومة الجندل(٥٩) ، وجاء وفد من كلب ، فكتب الرسول(ص) لهم كتابا ولاهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب (٦٠) .

وقدم على رسول الله (ص) رفاعة بن زيد الجذامي ، فاهدى لرسول الله (ص) غلاما ، واسلم ، وكتب له الرسول (ص) كتابا الى قومه يدعوهم فيه الى الاسلام فاسلموا(٦١) .

واسلم فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ، وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب في منطقة معان وما حولها من بلاد الشام ، وارسل للرسول هدية بغلة بيضاء ولما علم الروم اسلامه طلبوه ، وارادوه على الرجوع عن الاسلام ، فلما ابى ضربوا عنقه(٦٢) .

ووفد الى الرسول (ص) عدي بن حاتم الطائي، وكان فرّ الى الشام ، فاكرمه الرسول ، واحسن وفادته ، واسلم عدي ، واسلم قومه ، وولاه الرسول صدقات قومه وانقلب بغضه للرسول حبا وايمانا ، ولما ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول ومنع الزكاة ، روي ان عدي بن حاتم قال لقومه : « والذي نفس عدي بيده ، لا أخيس بها ابدا ، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج لوفيت بها فان ابيتم قاتلتكم ». فانقاد له قومه ودفعوا زكاة اموالهم ، فسار عدي بها الى ابي بكر(٦٣) .

ووفد على رسول الله (ص) بنو الدار بن هانىء من الشام(٦٤) ، كما وفد عليه وفد من غسان ثلاثة اسلموا ، وعادوا الى قومهم في الشام(٦٥) .

ويبدو ان هذه النتائج وفرت للدعوة الاسلامية مناخا حسنا ، وجعلت مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الاولى من الحركة الاسلامية ، جعلتها باتجاه التطلعات الاسلامية واغراضها ، وتركتها وسط تيار الاسلام المتوثب نحو بلاد الشام ، اذ ليس من قبيل المصادفة ، ان تصير قبائل طي وقضاعة وغيرها من القبائل العربية التي كانت تسرب اليها البعوث الاسلامية بالامس ، ان تصير مددا للجيوش الاسلامية السائرة الى بلاد الشام عام ١٢ هـ/ ٦٣٣م في خلافة ابي بكر(٦٦) .

وقل الشيء نفسه بخصوص القبائل العربية التي كانت تنزل ارض مؤاب من بلاد الشام . قال ابو جعفر الطبري ، استنفرت الروم القبائل العربية ، ونفر اليهم من بهراء ، وكلب ، وسليح ، وتنوخ ، ولخم ، وجذام ، وغسان من دون زيزاء بثلاث. فسار اليهم خالد بن سعيد بالمسلمين، فلما دنا منهم ، تفرقوا واعروا منزلهم ، فنزله خالد ، ودخل عامة من كان تجمع له في الاسلام(٦٧) ، مع ان هذه القبائل هي القبائل التي ذكرتها الروايات العربية شريكا للروم في مأساة مؤتة زمن النبي (ص) .

وقاتلت لخم وجذام في معركة اليرموك مع المسلمين ، وقيل ان الذين استنفرهم هرقل من مستعربة الشام ، ما لوا وقائدهم جبلة بن الايهم ،الى جانب المسلمين(٦٨) .

وفي معركة فحل قاتلت لخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة ، والقين ، وقبائل من قضاعة الى جانب المسلمين ، وذكر ابو طيبة القيني قال ، حضر قومي بنو القين يوم فحل ، وحضرتها لخم ، وغسان ، وعاملة ، وقضاعة مع المسلمين ، فكان من هذه القبائل هناك جمع عظيم قوي بهم المسلمون على عدوهم(٦٩) ، ولما بلغ المسلمون ارض قنسرين وما حولها من شمال الشام ، دخل اكثر من كان هناك من العرب وغالبيتهم من تنوخ في الاسلام ، ومن لم يسلم صالح على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك الا قليلا منهم ، وكانوا مع المسلمين على الروم (٧٠) .

واما ما ورد من اخبار عن وقوف بعض العرب ممن كان لهم نية في النصرانية الى جانب الروم(٧١) ، فهي اخبار تصف حالات فردية ، وتنطبق على القلة ، اكثر مما تصف حالات عامة ، وجماعية ، او تنطبق على الكثرة ، وفضلا عن ان هذه الاخبار جاءت مجردة ،وعامة،ولاتذكر قبائل عربية بعينها ، فان الروايات التي تحدثت عن موقف عرب الشام من حركة الفتح الاسلامي ، ذكرت انحياز القبائل العربية الى جانب المسلمين ، وسمت هذه القبائل باسمائها ، وورود لفظ « القبيلة » في هذه الروايات، ينسجم مع طبيعة الحياة العربية التي كان يحكمها الاطار القبلي ، ويلعب الدور الاساس في علاقاتها الخارجية .

وهكذا لما اثار المسلمون تفكير الناس في الشام ، انتفعوا برابطة القربى مع القبائل العربية فيها(٧٢) . وعملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين ، والمشاركة في طرد البيزنطيين(٧٣) ، ولم يكن ايقاظ الفكر محصورا في عرب الشام فحسب ، بل نجد غيرهم من أهل الشام يبرز في ظلال الظروف المستجدة « غرباء وبلديين »(٧٤) ، ويبحث مع المسلمين امر مواطنتهم بعيدا عن المداخلات البيزنطية ، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عربا وغير عرب في موقفهم من الحركة الاسلامية من جهة وبيزنطة من جهة اخرى، ما ورد عن خالد بن الوليد ان قال في العراق : ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب! او عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! (٧٥) .

الحواشـــي :

(١) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج١ ، ص٢٤٨ . عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص ١٥ – ١٦ . فيليب حتى ، تاريـــخ العرب (مطول) ج١ ، ص ١٩٤–١٩٥ .

(٢) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ١٨٠. (مخطوط) .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ، ص ١٣١ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٢٥ .

(٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ، ص ٣١٦.

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٢٤ . ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ص ٤١ ، الهمداني، صفةجزيرة العرب ، ص ٢٧٢ .

(٦) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٣١ .

(٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٧٧ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٣٥ ، الهمداني، صفة جزيرةالعرب ، ص ٢٧٢ .

(٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ، ص ٣١٧ .

(٩) الهمداني ، صفة ، ص٢٧١ – ٢٧٢ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ٤٢١–٤٢٤ .

(١٠) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٥٧٣ (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٧.

(١١) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج٣ ،ص ٢٤٣ . البكري ، معجم ما استعجم ، ج١ ،ص١٠١.

(١٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٣ / ٣٦٨ ، البلازدي ، فتوح البلدان ،ج١ ، ص١٥٣ . ابـن عساعر ،تهذيب تاريخ دمشـق ، ج٣ ، ص ٣٥٣.

(١٣) البكري ، معجم ،ج١ ، ص ٢٣ .

(١٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ص ٣٢٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٣٢٤ – ٣٢٩ الهمداني ، صفة ،ص ٢٧٢ .

(١٥) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٤ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ،ج١،ص ١٦٢ ، ج٢ ، ص ٤٢ .انساب الاشراف ، ص ٥٧٣ (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف، ص ٢٤٧ .

(١٦) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٢٠٥ .

(١٧) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٢١٦.

(١٨) الهمداني ، صفة ، ص ٢٧٥ .

(١٩) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٧٣ .

(٢٠) الواقدي ، كتاب المغازي ، ص ٤٠١ .

(٢١) غسان من بطون الازد ، وكانوا ينزلون على ماء بالقرب من اليمن يدعى غسان واليه نسبوا .

(٢٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٦ ، تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٥٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص٣٢٤ ، ٣٢٩ . الهمذاني / صفة ، ص ٢٧٤ ، ٣٣١ - ٣٣٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٢٠ . البلاذري / انساب الاشراف ، ، ص ١٨٠ (مخطوط) ابو جعفر الطبري ،ج٣ ، ص٤٠٧، ٥٧٠ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٠٨ - ١٠٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١ ، ص ٣١٩ . شيخو ، اداب النصرانية ، ج٢ ، ص ٣٤٦ .

(٢٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص٤٠٧ . البلاذري / فتوح ، ج١ ، ص ١٦٨ .

(٢٤) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٢٥) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٦٨ .

(٢٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٦ .

(٢٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٧ .

(٢٨) المصدر نفسه، ج٢ ، ص ٣٨٩ .

(٢٩) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٣٠) ابو جعفر الطبري / تاريخ ، ج١ ، ص٦٠٩ ، ج٢ ، ص٤٣.

(٣١) انظر : تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي ص ٢٤٤ .

(٣٢) للتدليل على ذلك ، نذكر ان ابا عبيدة رتّب في انطاكية وبالس جماعة من المسلمين ، واسكن قوما من العرب ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس، ويذكر البلاذري ان كان في صور والسواحل جند من العرب ،ثم نزع اليها أهل بلدان شتى ونزلوها، وشحن معاوية بن ابي سفيان في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان السواحل بالمقاتلة ، وفعل مثل ذلك في اثناء خلافته ، واهتم بتعمير السواحل وشحنها بالناس الخلفاء من بعد ، عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وابو جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، والمعتصم وغيرهم .
انظر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج٤ ، ص ١٦١ .

(٣٣) احمد الشريف ، قريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة نشرت في مجلة كلية الاداب والتربية ، الكويت ، العدد الاول حزيران ١٩٧٢ ، ص١٢٠ .

(٣٤) انظر جواد على ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج٢ ، ص ٤٠-٤٢ ، ٦٠١-٦٠٤ .

(٣٥)
Trimingham: **Christianity among the Arabes** p. 180.
Mayerson, Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine A.D. 633 - 634 PP. 188-189 .

(٣٦) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٧٨ .

(٣٧) ذكر الفيروز بادي ، ان غسان كانت تؤدي كل سنة الى ملك سليح دينارين عن كل رجل ، وكان المتولي لامر الاتاوة رجلا اسمه سبطة بن المنذر السليحي ، فجاء سبطة يسأل يوما رجلا من غسان اسمه جذع ، الدينارين ، فدخل جذع منزله ، وخرج مشتملا سيفه ، وضرب به سبطة حتى قتله وقال : خذ من جذع ما اعطاك» الفيروزبادي ، القاموس المحيط، مادة جذع .

(٣٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣٩) ابن حبيب البغدادي / المحبر ص ٣٧١ .

(٤٠) نولدكة / امراء غسان ص ٩- ١١ .

(٤١) انظر :

Kawar Irfan, Article: Ghassan and Byzantium: A New terminus aqueo. Islam , 1958, vol. 33 P . 235 .

وانظـــر :

Ismail R.Khalidi , Article : The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins, Rise and Fall, Muslim World 1956, vol 46 , P197 .

وانظر ، نولدكة ، امراء غسان ، ص ٤

(٤٢) ذكر بروكوبيوس ان جستنيان رقى الامير الغساني الحارث بن جبلة الى رتبة « ملك » ، وبسط سلطته فوق قبائل عربية متعددة ليتخذه خصما قويا في وجه المنذر ملك عرب الفرس ، ويقـــول نولدكة بصدد لقب «ملك» ، لكن لقب « ملك » هو لقب القيصر فقط ، ومثل اطلاق هــذا اللقب على امراء غسان هو من صنيـــع الناس في الشرق ، اذ لم يكونوا يدققـــون في معنى هــذه الالقاب ودرجاتها ، فكانوا يطلقون على من كانت له سلطة كسلطة بني غسان لقب « ملك » ، ويذكـــر نولدكة ، ان المؤرخ ثيوفانس ذكر عام ٥٦١ م لقبا رسميا للحارث الغساني هـــو «الحارث البطريـــق رئيس القبيلة » ، واضاف نولدكة ان الامير الغساني كان يحمل منذ عام ٥٢٦ م اسم « فيلارك ».
انظر : نولدكة ، امراء غسان ، ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ .

(٤٣) نولدكة ، ص ١٦ ، ١٧ . وانظر :

Ismail Khalidi . Article : The Arad Kingdom of Ghassan
Moslem World , 1956, vol 46 pp 199-203 .

(٤٤) كانت الحرب بين بيزنطة وفارس واحدا من معالـــم السياسة الخارجيـــة لبيزنطة ، وفي عهـــد جستنيان (٥٢٧م – ٥٦٥م) ، حركت سياسته التوسعية الدولة الفارسية فيعهد كسرىانوشروان الى مهاجمة الاراضي البيزنطية في سورية واسيا الصغرى عام ٥٣٩م ، واضطر جستنيان بسبـب ذلك الى توقيع معاهدة مع فارس لمدة خمسين سنة ، ودفع جزية سنوية أثقل من تلك التي كانت تؤديها بيزنطة لفارس من قبل ، ونقضت الاتفاقية في عهد الامبراطور البيزنطي جستين ، واندلعت الحرب ثانية بين فارس وبيزنطة ، واستمرت في عهود من تلاه من الاباطرة البيزنطية ، ثم جاءالزحف الفارسي الشامل من بعد على اسيا الصغرى وسوريا ومصر عام ٦١١م ، وقد كلفت هذه الحروب وغيرها من الحروب في الجبهات المختلفة الامبراطورية البيزنطية مبالغ طائلـــة ، وادت الى حـــدوث ازمة اقتصادية خطيرة في داخل الامبراطورية البيزنطية ، وكان من بعض نتائجهـــا ان بيزنطة كانت تتاخر في دفع الاعانات السنوية للامارة الغسانية أحيانا ، وتوقفها أحيانا أخرى ، كما اتهم الامير الغساني المنذر بن الحارث بن جبلة بالخيانة والتواطؤ مع العدو ، مما كان لذلك اثره في زعزعـــة العلاقات الغسانية البيزنطية وانعكاساته على موقف بيزنطة من الامارات الغسانية ، وتصدع الامارة الغسانية في نهاية القرن السادس الميلادي.
انظر : اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٨٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، تعريب د. مصطفى بدر ، دار الفكر العربي ١٩٥٣ .

وانظر : نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٦٠ ، تعريب د. حسين مؤنس ، و د. محمود زايد ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، طبعة ثانية ١٩٥٧ .
وانظر :الباز العريني،الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١ م ، دار النهضية المصرية ١٩٨٢ ، ص٦٨ ، ٧٠، ٧٥، ٧٦، ٧٩ ،١٠٥، ١١٣ ، ١١٩ . نولدكة ، امراء غسان ، ص ٢٩ ـ ٣٤

انظر : Vasiliev, A : **The Byzantine Empie,** Madison 1982 .

وانظر : Arthur E.R. Boak, William Sinnegen
History of Rome to A.D. 565 p : 495 .
Fifth edition New York , London 1964 - 1965

(٤٥) قيل ان الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير وخلفاءه من بعده ، كانوا يتخذون الارثوذكسية مذهبا رسميا للدولة ، ويعملون على ربط رعايا الدولة بكيان الكنيسة الرسمي ، وكان امراء الغساسنة من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة المناوىء للمذهب الرسمي للدولة ، وعقدوا تحت رعايتهم بعض المجامع الدينية ، وتولوا الدفاع عن اتباع هذا المذهب الذين تعرضوا لاضهاد الدولة، وقيل ان هذا الخلاف الديني كان من اسباب غضب بيزنطة على الامارة الغساسية ، وزعزعة العلاقات بين الجانبين .
انظر : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٧ . نولدكة ، امراء غسان ص٢١ـ٣٣ .

(٤٦) البازالعريني ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ .
وانظر : Philip Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine A.D.633.634 vol.xv 1965 pp : 190 - 192 .

(٤٧) نولدكة ، امراء غسان ، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٤٨) نولدكة ، امراء غسان ، ص٣٥ . وانظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،ج٢، ص ٤١٨.

(٤٩) انظر : Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine pp : 189 - 192

(٥٠) انظـر : Ismail R. Khalidi : Article :
The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins , Rise and Fall pp: 205-206.

(٥١) قيل ان كسرى ابرويز أطاح بالاسرة اللخمية ، وازال ملكهم اواخر القرن السادس الميلادي ،واحل محلهم اياس بن قبيصة الطائي في الحيرة ، ثم اخذ الفرس زمام الامور من اياس وفوضوها الى حاكم فارسي ، من اجل ذلك انظر :
ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ١٠٩ـ١١٠ .
ابو جعفر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ص١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ .
حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ٩٦
ابن حبيب ، المحبر ، المكتب التجاري ، بيروت ، ص٣٦٠ .

(٥٢) كان معن تعرض للحديث عن فتح بلاد الشام والعلاقات العربيــة البيزنطية قبيل الفتــح الاسلامي وفي اثنائه :

De Goeje , Wright, Wellhausen , Kremer , Muir , Caetani , Weil , Caussin , Mayerson and others.

وقد اكد هؤلاء على المال ، والمعونات السنوية ، اساسا في العلاقات العربية البيزنطيــة ، ورأوا اعتمادا على ما ذكره ثيوفانس وغيره ، ان القبائل العربية حولت وجهتها عن بيزنطة ، حين أوقفت الاخيرة المعونة المالية السنوية التي كانت تدفعها لهذه القبائل من أجل ذلك انظر :

Mayerson : Article: The First Muslim Attacks on Southern Palestine pp : 156 - 159 .

وانظر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus In The Hands of The Saracens , Beirut, March 30 ,1928.See the preface pp.XI-XII

وفي حين ذكر بعض الباحثين ، ان الخلافات الدينية والخلافات المذهبية بــين الامارة الغسانية وحكومة بيزنطة ، كانت من اسباب الجفاء بين الجانبين ، نجد اكثر الباحثين لا يقيم وزنــا لنصرانية القبائل العربية في التأثيرعلى العلاقة بين الجانبين :

يقول ولفنسون : « اني اعتقد ان النصرانية لم تتغلب فيوقت ماعلى النفوس العربية» .

انظر : ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، القاهرة ، ص٣٧

ويذكر ريتشارد بل : يمكن القول بعدم وجود وازع ديني عند هذه القبائل .

انظر : R. Bell, **The Origins of Islam In Its Christian Environment.** p17 The guning lectures , Edinburgh Univ. Frank Cass and Co.Lld. , 1968.

ويذكر ترتون وسير وليم ميور : «ان تديّن القبائل العربية بالنصرانية كان اسميا » .

انظر : A.S.Triton, The **Caliphs and their Non - Muslim Subjects:** p:76 Frank Cass and CO.LTD., 1970

Sir william Muir , **The Caliphate : Its Rise , Decline and fall** . p:48 Beirut, Khayats , 1963 .

ومهما يكن اختلاف هؤلاء الباحثين ، فانهم مجمعــون على ان المباينة كانت الحالة القائمــة بين الجانبين ، وان كل جانب ظل محتفظا بشكله في الغالب ، ولم تخدم الظروف بغض النظر عمن كان مسؤولا عن ذلك، اتجاه الاندماج بقدر ما خدمت اتجاه الاستقلال بين الطرفين .

(٥٣) ذكر المسعودي في التنبيه والاشراف قال : « ثم غزوته (ص) دومة الجندل ، وهي أول غزواتــه للروم ، وبين دومة الجندلوبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشر ليلة ، وقيــل ثلاث عشرة ، وكان صاحبها اكيدر من طاعة هرقل ملك الروم ، وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم، وتفرق أهل دومة الجندل ، ولم يجد الرسول (ص) بها أحدا ، وكان ذلك في السنة الخامســة للهجــرة .

انظر : المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٣٠ .

(٥٤) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص ٦٤٢ ، ج٣ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٣٧ .

(٥٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ص ٢٥٤ .

(٥٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .
خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٧٩.

(٥٧) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٢٤٣ .

(٥٨) انظر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٧١ ـ ٧٢ . ابن هشام ، السيرة ، ج٤ص ١٦٩. الشافعي، الام ، ج٤ ، ص ١٩٢ .

(٥٩) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ٧٣.

(٦٠) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ص ٢٢٥ .

(٦١) ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) كتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد اني بعثته الى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، يدعوهم الى الله والى رسوله ، فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب الرسول ،ومن ادبر فله امان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه اجابوا واسلموا .

(٦٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ص ٣٥٥ .

(٦٢) ابن هشام ، السيرة ، ج٤، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٦٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ص ٣٥٥ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج٤ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ .
ابن سعد ، الطبقات ، ج١، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .
الكلاعي ، الاكتفاء في السير ، ص ٨٢ (مخطوط).

(٦٤) ابن هشام ،السيرة ،ج٣ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٣٢٨ .

(٦٦) ذكر الازدي ان ملحان بن زياد الطائي ،اخا عدي بن حاتم الطائي لامه ، اتى ابا بكر في نحو الف من قومه من طي من أهل شمال شبه الجزيرة العربية .

انظر : الازدي / فتوح الشام ص ٢٤ .
وذكر ابو جعفر الطبري ، ان عمرو بن العاص والوليد بن عقبة ناديا في قبائل قضاعة فتتام اليهما بشر كثير ، الحقهم ا بو بكر بجيوش الشام . انظر : الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٩٠ .

(٦٧) الطبري ، تاريخ ، ج٣ ص ٣٨٩ .

(٦٨) قيل جمع هرقل جموعا كثيرة من الروم واهل الجزيرة وارمينية ، وجعل على المقدمة جبلة بن الايهم في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وذكر البلاذري ان جبلة بن الايهم انحاز الى الانصار وقال : انتم اخوتنا وبنو ابينا واظهر الاسلام .

انظر : البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ ـ الطبري ، تاريخ ، ج٣ ،ص٥٧١ . اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٤١ . المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج٢ ، ص ١٤١ .

(٦٩) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١١١ ، ١٢٠ .

(٧٠) البلاذري ، فتوح ، ج١ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٥ .

(٧١) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص٤٤ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٦٩، ١٧٥ .

(٧٢) انظر: Butler : The Arab Conquest of Egypt : 152.

(٧٣) انظـر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus in The Hands of The Saracens . p3 .

(٧٤) ذكر ابن البطريق ان منصورا عامل دمشق صعد على الباب الشرقي لدمشق وكلم خالد بن الوليد ان يعطيه الامان له ، ولاهله ولمن معه ، ولاهل دمشق ، سوى الروم .
انظر :ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ١٥ . وسال اهـــل فحل المسلمين الصلح لانفسهم ، ومن كان من الروم ان يلحق بالروم انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٤٠ .

(٧٥) انظر : الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٣٦١ .

ثبت باهم مراجع البحث ومصادره

١ ـ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ـ ١٩٥٨ .

٢ ـ ابن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ـ مطبعة الاباء اليسوعيين عام ١٩٠٩م. ومعه تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي .

٣ ـ ابن حبيب البغدادي ، المحبر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت .

٤ ـ ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٥ ـ ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ومعه كتاب البلدان لليعقوبي ، ليدن ـ ابريل ١٨٩١ .

٦ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ .

٧ ـ ابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران ـ الطبعة الثانية ١٩٧٩ . دار المسيرة ـ بيروت .

٨ ـ ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، دار احياء التراث العربي ،بيروت، تحقيق الصاوي ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

٩ ـ ابن هشام ، السيرة النبوية تحقيق السقا ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠ .

١٠ ـ ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال مكتبة المثنى ، بغداد .

١١ ـ احمد الشريف ، قريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة ـ مجلة كلية الاداب والتربية ـ الكويت العدد الاول ١٩٧٢.

١٢ ـ الازدي ، تاريخ فتوح الشام تحقيق عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠ .

١٣ ـ اسد رستم ، الروم وصلاتهم ، دار المكشوف ، الطبعة الاولى ١٩٥٥ بيروت .

١٤ ـ الاصطخري الكرخي ، المسالك والممالك تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال ـ دار العلم ١٩٦١ .

١٥ ـ الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء .

١٦ ـ السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية دار النهضة المصرية ١٩٨٢ .

١٧ ـ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، ، تعريب الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربي .

١٨ ـ البكري / معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا،الطبعة الاولى ١٩٤٥م. عالم الكتب ـ بيروت .

١٩ ـ البلاذري / فتوح البلدان تحقيق الدكتور صلا حالدين المنجد / مكتبة النهضة المصرية . انساب الاشراف / مخطوط عاشر افندي ٥٩٧ السليمانية ـ استانبول .

٢٠ ـ جواد علي / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٦ .

٢١ ـ حتي ، فيليب / تاريخ العرب مطول، الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ـ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع .

٢٢ ـ خليفة بن خياط / تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق الدكتور اكرم العمري / مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، دار القلم دمشق .

٢٣ ـ الدوري ، عبد العزيز ، الجذور التاريخة للقومية العربية ، الطبعة الاولى ١٩٦٠ ، دار العلم للملايين .

٢٤ ـ الشافعي / كتاب الام ، مطبوعات دار الشعب / القاهرة ١٩٦٨ .

٢٥ ـ شيخو / النصرانية وآدابها ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٢٤ .

٢٦ ـ الطبري / تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف .

٢٧ ـ القلقشندي / صبح الاعشى في صناعة الانشاء نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر .

٢٨ ـ الكلاعي / الاكتفاء في السير ومغازي الخلفاء الثلاثة مخطوط ايا صوفية ٢٩٧٢ ـ السليمانية ـ استانبول .

٢٩ ـ المسعودي / مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ، التنبيه والاشراف ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت

٣٠ ـ المقدسي / البدء والتاريخ ـ طبعة ١٨٩٩ ـ باريس .

٣١ ـ نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس د . محمود زايد ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ لجنة التاليف والترجمة والنشر .

٣٢ ـ نولدكة / امراء غسان ، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ، بيروت .

٣٣ ـ الهمداني / صفة جزيرةالعرب ، نشر محمد بن بليهد ـ مطبعة السعادة بمصر .

٣٤ ـ الواقدي / كتاب المغازي ـ طبعة ١٨٥٥م .

٣٥ ـ ولفنسون / تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ القاهرة .

٣٦ ـ اليعقوبي / تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠م .

37 — Bell, R. : The Origins of Islam in Its Christian Environment The guning lectures , Edinburgh Univ . Frank Cass and Co Ltd 1968.

38 — Butler , A.J. : The Arab conquest of Egypt : the last thirty years of the Roman Dominion .
Second abition, Printed in Great Britain at Univ. Press,Oxford.

39 — Haddad , George : Article : The Fall of Damascus in the Hands of The Saracens . Beirut, March 30 , 1928 .

40 — Irfan, Kawar:Article: Ghassan and Byzantinm: a new terminus aqueo . Islam , 1958 , vol. 33 PP : 232 - 255 .

41 — Khalidi , Ismail : Article : The Arad Kingdom if Ghassan . Moslem World, 1956, vol 46 pp.199 - 203.

42 — Mayerson , Philip : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine (A.D. 633-634) Trans . Proc. Amer. Philol. ASSOC . 95 (1964) PP.155-199 .

43 — Muir, Sir William : The Caliphate : Its Rise, Decline and fall Beirut, Khayats, 1963 .

44 — R,E, Arthur Boak and William Sinnegen : History of Rome to A.D. 565

Fifth edition 1964 New York , London .

45 — Trimingham , J.S : Christianity Among the Arabs in pre-Islamic times. Longman . London and New York .

46 — Triton, A.S : The Caliphe and Non - Muslim Subjects Frank

47 — Vasiliev, A, : The Byzantine Empire , Madison , 1952.
Cass and Co. Ltd., 1970.

دور جذام في الفتوح الإسلامية

د. صالح الحمارنة
الجامعة الاردنية

ان دور جذام في الفتوح الاسلامية يماثل الى درجة بعيدة دور بقية القبائل العربية التي كانت تسكن الديار الشامية ، خاصة الاجزاء الجنوبية منها، في الفترة التي سبقت الفتح .. بيد ان لجذام خصوصيتها . وقبل ان ندخل في تفصيل ذلك يجدر بنا ان نحدد قدر المستطاع مساكن جذام ومنازلها آنذاك .

كانت جذام قبيل الفتح تنزل المناطق فيما بين الحجاز والشام ومصر وكانت جموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من أرض العرب: تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى ـ في المساحة من تبوك في الحجاز شمالا بامتداد الشمال الشرقي من وادي عربة حتى البحر الميت الى البلقاء ، حول مدينة عمان ، ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين(١) . بالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام ، وجاء في تاج العروس جذام من اليمن تنزل بجبال حسمى وراء وادي القرى*(٢) ، ومن ابرز منازل جذام مَدْين ، وكما يذكر البكري « ومدين منازل جذام ، بلد الشام معلوم تلقاء غزة»(٣) ويقول ابن خلدون .. ونزلت جذام من حدود أيله الى ينبع محاذية للساحل (٤) ، وكانت لهم رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام(٥) .

اعد هذا البحث للندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، الجامعة الاردنية ، ١٦ـ٢٢ اذار ١٩٨٥ .

* ومنطقة حسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من راس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها .

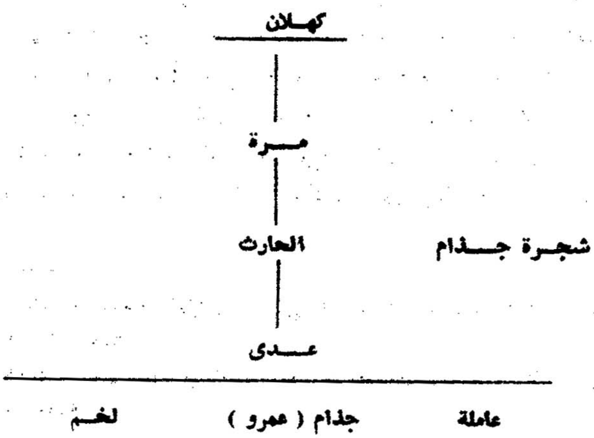
اذن فبنو جذام قد امتدت مساكنهم من شمال الحجاز ، وكان جبلهم حسمى ومن مراكزهم معان ، والبلقاء ، والى ايلة وجنوب فلسطين حتى سيناء الى حــد الفرما ، ومن خلف الفرما الى مصر ، ويقول الهمداني« .. ما تياسر نحــو البحر من بلد القبط فهو يماني»(٦) ، وتذكر المصادر كثيرا ان بني جذام ، نزلوا غزة وبعض منهــم في بيت جبرين والعريش ، وبعض ما بين طبرية من أرض الاردن الى اللجون واليامــون * ، وناحية عكا (٧) .

مما سبق نرى ان منازل جذام تقع في وسط الطرق التجارية وطرق القوافــل وطرق الحج ما بين مصر والشام والحجاز . فكانت القوافل تمر في ديارهــم ويتولى رجالها حراستها وجباية الرسوم والمكوس من التجار الذين يجتازونها (وكان عمر بن الخطاب في الجاهلية قد مر تاجرا بهم ودفــع العشر)(٨) .

يضاف الى ذلك وجود مراع لابلهم وجــذام من اكثر العرب ابــلا (٩) ، بل يبدو لنا أن أقساما منهم كانت تمارس الزراعة من سكان القرى والحواضر الكثيرة ..

بنو جذام في الواقع تكــون مؤتلف قبائل ، وحسب تعبير ابن خلــدون « بطن متسع له شعوب كثيرة »(١٠) وجذام هي المهيمنة .واما العرب الــذين كانوا في معادن الخصب .. للمراعي والعيش .. مثــل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعــة واياد، فأختلفت انسابهم وتداخلت شعوبهم (١١) وهناك « بطون ثلاث يقال لهــم الاحلاف من جميع قبائل العرب من كنده ولخم وجذام وعبد قيس » واما جذام واسمه عمــرو بن

* اليامون : قرية تقع الى الشمال الغربي من جنين على مسيرة تسع كيلــو متــرات منها . مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الاول ، الجزء الاول ، ص٧٠٩ .



عدي اخو لخم بن عدي وعاملة بن عدي (انظر الشجرة) فبطن متسع له شعوب كثيرة(١٢) .

لست هنا بصدد ذكر ما قاله النسابون من ان جذام من مضر وانهم انتقلوا الى اليمن في الايام الخالية ، لكني مع الرأي الغالب عند النسابين ان جذام من اليمانية(١٣) .

بل انني اريد ان اذهب ابعد من ذلك فأقول ـ مستطردا ـ ان جذام وهي بطون كثيرة أو بالاصح بطن متسع له شعوب كثيرة ، انما تتكون في مجموعها من مؤتلف قبائل ، سكنت نفس المواطن تقريبا ـ مع اختلافات بسيطة ـ التي سكنها من قبل المديانيون ، والادميون ـ (في جزء بسيط) وخاصة الانباط ومن جاء بعدهم أهل ثمود .. التي كانت منازلها في حسمي ، فلما هلكت ثمود انتقل ملكهم الى قوم آخرين ، آخر من نعرف منهم « جذام » الذين كانوا ينزلون في حسمي عند ظهور الاسلام ، وهم في زعم الاخباريين ابناء جذام شقيق عاملة ولخم (١٤) .

وازعم ان هذه الشعوب شعوب اروميه Autochton قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته القبائل العربية الخارجة من الجزيرة وعلى فترات ابرزها في القرن الرابع الميلادي ، فهذه الشعوب والقبائل العربية التي نزلت أرض الشام خاصة في القرنين الثالث والرابع للميلاد قد غذت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها ، ولم يخلق وجودها اي اضطراب أو عداوات، اذ في حقيقة الامر انما نزلت في أرض الشعوب العروبية (السامية) القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى آلاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات ، اذن فهذه الشعوب قد تداخلت مع السكان السابقين تداخلا واسعا وسهلا بسبب الارومة الواحدة من جهة ، ومن جهة اخرى فان الديار الشامية الواسعة وقد استوعبتها فزادت بذلك قوة وفعالية ، ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار أمام العناصر الخارجية . ويكفي دليلا ذكر (مجر ذكر) أهم القصبات والمدن العربية التي اشتهرت في تلك الحقبة : مثل بصرى ، وغزة ، والبتراء ، ومعان ، وايلة والعريش ومدين (١٥) ...

قبل الفتح الاسلامي انتشرت النصرانية في البلاد الشامية انتشارا واسعا وقد كان في عداد المسيحيين الاوائل الشعوب العروبية (السامية) الاراميون وبعدهم

الانباط العرب ، وقد تأثرت بقية الشعوب العربية بابناء عمومتهم الاراميين «السريان» الذين سبقوهم الى النصرانية، وايضا بتاثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة(١٦) .

فنسمع ان الضجاعمة وهم فرع من سليح قد تنصـرت وملكت في الشام ــ في منطقة البلقاءــ قبل الغساسنة ، وجاء في الاخبار ان اسم احد امراء الضجاعمة داوود ابن الهبوبة المعروف باللثق تنصر (وتنصر من نفس العائلة اناس قبله) وذلك في اواخر القرن الثاني للميلاد(١٧) ، ويذكر المسعودي « وكانت قضاعة بن مالك بن حمـير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فمدوهم بعـد ان دخلوا النصرانية عـلى من حول الشام من العرب »(١٨) وان القبائل الكبيرة مثل جذام ولخم وعذره وبهراء وقسم كبير من كلب وطي ، وغيرها، هذه القبائل جميعها قد تنصرت وبدوافع عـدة ، في حين ان القبائل التي تقع في الجنوب منها مثـل : سليم ومزينـة وجهينـة وبلي بقيت في الغالب الاعم حتى مجيء الاسلام على وثنيتها وحيث ان جذام كانت في عداد كبرى هذه القبائل ومن اقواها ، وذلك بسبب من مؤتلفها القبلي الكبير ، فقـد أصبحت في مصاف القبائل العربية المشهورة أمثال كنده ، وغســان ، وكلب ، وما ان أخـذت الغزوات الاسلامية تزداد وتندفع في اتجاهها نحو الشمال ــ نحو الشام ــ عندهـا وجدت بيزنطة في جذام القوة التي يمكن ان تقف في مواجهة العرب المسلمين ، خاصـة وان ملك الغساسنة قد ذهب اثر الحروب الفارسية الساسانية ولم يقم حكم أو دولة قوية تكون حاجزا وقائيا أمام شعوب الجزيرة العربية كما في السابق(١٩) .

مع تصاعد قوة الاسلام وانتشاره في الجزيرة وخارجها ، نستطيع ان نقسم دور جذام في الفتوح الى ثلاثة اقسام ، أو ادوار ، تبقى متداخلة لتداخـل الاحداث التي تأخذ بعضها ببعض :

الدور الاول : زمن الرسول الكريم وفي عهد ابي بكر الصديق .

الدور الثاني : في خلافة عمر بن الخطاب .

والدور الثالث: مابعد خلافة عمر بن الخطاب حتى قيام الدولة الاموية.

ويمكن ان نصف دور جذام أيام الرسول وابي بكر بالنسبة للفتوح بانه دور سلبي وذو طابع معاد ــ في الغالب ــ للمسلمين ، مع الاستثناءات التي سنشير اليها .

أما دورها ايام عمر بن الخطاب فكان دورا ايجابيا على العموم وتبرز ايجابيتـه بشكل خاص بعد معركة اليرموك وتصل ذروة ايجابيته بالمشاركة الفعالـة لجذام في فتـح مصر .

اما بعد خلافة عمر ووقوع الفتنة ، فتأخذ جذام مكانها الكبير في طليعة أهل الشام المناصرين لبني امية والذابين عن حكمهم ، فكان لدور كلب وجذام والقبائل اليمانية ــ الشامية عموما الاثر الحاسم في تمكين معاوية بن ابي سفيان من الخلافة ونقلها لولده يزيد ، ثم في ترسيخ البيت الاموي أيام مروان بن الحكم وولده عبد الملك ، وساهمت جذام مساهمة فعالة في كل الاحداث التي تمت آنذاك ويكفي ان نذكر دور روح بن زنباع الجذامي زعيم الجذاميين خاصة واليمانية عامة ووقوفه بجانب مروان وولده عبد الملك ، ودور يمانية الشام في الفتوحات الكبرى التي تمت فيما بعد، خاصة ايام الوليد بن عبد الملك .

دعنا الان نرجع الى مصادرنا التاريخية التي تعالج السيرة النبوية ، والمغازي والفتوحات الكبرى .. نستعين بها على تفهم الوضع ولو بشكل شمولي .

ان اول شيء يجب الالتفات اليه هو ان جذام لم تكن وحدة موحدة في تصرفاتها امام الاحداث سواء أيام الرسول او بعدها ، وكما قلنا فان غالبية جذام كانت مواقفها أيام الرسول ضد المسلمين غير أن افرادا منها ومعهم بطون صغيرة من قومهم انتقلت الى صف الرسول مع الاسلام فمثلا : تذكر المصادر ان رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي قدم على رسول الله في هدنة الحديبية قبل خيبر وأسلم واهدى رسول الله غلاما ، وكتب له الرسول كتابا الى قومه وفي الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، اني بعثته الى قومه عامة ومن دخل معهم ، يدعوهم الى الله والى رسوله ، فمن اقبل فمن حزب الله وحزب رسوله ومن ادبر فله أمان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا واسلموا(٢٠) .

ولكن الامور لا تمضي بهذا الوضوح ، فتحدثنا المصادر ان قوما من جذام اعتدوا على مبعوث رسول الله دحية بن خليفة الكلبي ، في طريق عودته من الديار الشامية ــ في تجارة له وفي نفس الوقت في مهمة للرسول ــ وان رسول الله قد أرسل الصحابي زيد بن حارثة ــ وهو أيضا بالاصل من كلب ــ لتأديب المعتدين وقد شمل هذا التأديب أصحاب رفاعة بن زيد الضبيبي الجذامي ، وتفصيل ذلك في النص التالي : ان رفاعة بن زيد لما قدم من عند رسول الله بكتابه يدعوهم (قومه) الى الاسلام ، فاستجابوا له ، ولم يلبث ان أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر الروم ــ ربما من عند عظيم بصرى ــ حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له ، حتى اذا كان بواد من أوديتها ، يقال له شنار اغار على دحية الهنيد بن عوض وابنه عوض بن الهنيد الضليعيان ــ والضليع بطن من جذام ــ فأصابا كل شيء كان معه ، فبلغ ذلك نفرا من بني الضبيب ، قوم رفاعة ممن كان أسلم وأجاب . فنفروا الى الهنيد وابنه .. حتى لقوهم فاقتتلوا .. فاستنفذوا ما كان في يد الهنيد وابنه فردوه على دحية .

وتمضي الرواية « فسار دحية حتى قدم على رسول الله واخبره .. فبعث الرسول زيد بن حارثة وذلك ان الذي هاج غـزوة زيد جذاما ، وبعث معـه جيشا ، واقبـل جيش زيد من ناحية الاولاج فأغار بالفضافض (موقع) من قبل الحرة وجمعوا ماوجدوا من مال واناس ، وقتلوا الهنيد وابنه (فيمن قتل) . ويبدو من سياق الروايات ان بعضا من قوم رفاعة بن زيد اصيبـوا بأذى كبير اذ اخذوا يصيحـون في وجـه جيش زيد بن حارثة « انا قوم مسلمون » وتمضي الروايات فتقول :ان جماعـة من قـوم ضبيب ــ من جذام جاءوا رفاعة حيث يقيم بظهر الحرة على بئر ــ هناك ــ وهو لا يعلم بما جرى ــ فقالوا له : انك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام يجررن أسارى ، قـد غرها كتابك الذي جئت به ، فدعا رفاعة بن زيد بجمل له ، فجعل يشكل عليه رحله وهو يقول : « هل انت حي او تنادي حيا » ثم غدا رفاعة بن زيد الى المدينة فدخل على رسول الله واشتكى امره ، فامر رسول الله علي بن ابي طالب فرد للقوم اموالهـم وانصفهم ، واطلق لهم رجالهم(٢١) .

وسرية اخرى قامت بغزوة عرفت بغزوة ذات السلاسل ، والسلاسل ماءلجذام ، بعث هذه السرية رسول الله لمحاربـة قضاعـة (بمختلف فروعها) وذلك حين بلـغ الرسول ان جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون ان يدفعوا عن أطراف المدينـة فدعـا رسول الله عمرو بن العاص وعقد له لواء ابيض ، وجعل معه راية سـوداء وبعثه في ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار ــ فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ــ والمصادر تشير انه لم يحدث صدام ، اذ حـين اقبل المسلمون وحملوا عليهم (أي على قضاعة) هربـوا في البلاد وتفرقوا . وتعرف هـذه الغزوة « بجيش ذات السلاسل » (٢٢) .

أجل ان هذه الغزوات من الناحية الحربية ليسـت بذات بـال ، فما هي الا مناوشات طفيفة خفيفة ولكن ارى ان مدلولها كبير وكبير جدا فهي :

اولا : تدلنا على ان اقساما من جذام واختها لخم وغيرها من قبائل قضاعة قـد وفدوا على رسول الله معلنين اسلامهم واسـلام البطون التي تتبعهـم ، وهذا لـه اهمية بالغة اذ انه المقدمة لاسلام عرب الشام ، ويبدو لنا ان اسلام هذه البطـون لم يكن ضئيلا ويدل عليه ان الرسول الكريم قد عين من قبله رجلا هو من ابرز الصحابة ومن كبار قادة المسلمين عمرو بن العاص عينه على صدقات **جذام ولخم** « كان رسول الله ولاه (عمرو بن العاص) صدقات سعدهزيم وعذرة ومن نصها من جذام وحدس (بطن من لخم)(٢٣) . وجدير بالذكر انه في نفس الفترة عين الرسول عبـد الرحمن بن عوف على صدقات كلب وهذه اشارة الى ان قسما من هذه القبيلة الكبيرة قد اسلم »(٢٤).

ثانيا : ان هذه المناوشات قد بعثت القلق في قلوب الروم وقلق مع الروم كبار رجال القبائل العربية المتنفذة في الشام وشمال الحجاز والموالية للروم جميعهم باتوا يخافون من تصاعد قوة المسلمين* لذا أخذوا يدنون بغاراتهم من المدينة ، ويعتدون على التجار الذين يسيرون بتجارتهم ما بين المدينة ودومة الجندل والبلاد الشامية .. فكما اعتمدوا على دحية بن خليفة الكلبي اعتدوا كذلك على غيره من التجار ، ويؤيد ذلك المسعودي في كتابه التنبيه والأشراف حيث يقول : « وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبد الله الكندي يدين بالنصرانية وهو في طاعة هرقل ملك الروم وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم » وليسوا بنو جذام الذي يسكنون على الطرق التجارية بمنأى عن كل هذا(٢٦) .

وثالثا : فان الامر الخطير الذي كانت الروم تخافه هو نقل اخبارها للمسلمين عن طريق التجار الذين يأتون المدينة من الانباط وغيرهم من أعوان المسلمين ، فيذكرابن عساكر ذلك فيقول « كانت .. الانباط يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق)والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط . ويؤكد هذا المعنى الواقدي في المغازي » .لذا فالروم في ضيق وفي خوف من تواصل التجارة ما بين البلدان المجاورة والمسلمين في المدينة . فالروم وحلفاؤهم لايريدون لهذا الشريان الحيوي الاستمرار والتدفق ، بجانب ان الروم منزعجة من هؤلاء الانباط وغيرهم من العرب الذين يفدون على المدينة للتجارة ، وهم ينقلون بنفس الوقت اخبار الشام في كل يوم للرسول واصحابه ، فوق كل هذا فاعداد الذين يسلمون منهم ومن غيرهم في ازدياد مضطرد .

قد تكون معركة مؤته قد وقعت قبل شهر واحد من غزوة ذات السلاسل من السنة نفسها (٨هـ / ٦٢٩م) ، لكن طبيعة هذه المعركة واستعداد الرسول والمسلمين لها يختلف اختلافا جذريا عن سابقتها .

لقد اصبحت معركة مؤته من المعارك المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي وذكراها حية في اذهان ووجدان كل العرب والمسلمين** . والامر الذي ننشده في بحثنا

* وذكر الواقدي : « ان دومة الجندل وايلة وتيماء قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد اسلمت له »(٢٥) .

** وحتى هذه الايام فان سكان شرق الاردن ، وخاصة في الجنوب من البلاد يروون قصصا شعبية يتداولها الناس فيما بينهم من مشاهدة مناظر القتال ، وسماع اصوات صهيل الخيول وصليل السيوف في ايام معدودة من السنة ـ في موضع مؤتة ـ بل يتحدث الناس عن سماع التكبيرة والحث على القتال والترحيب بالاستشهاد ولقاء وجه الخالق .

في حيثيات وقائع هذه المعركة هو دور جذام فيها ، والذي جاء واضحا ان جـذام في غالبيتها قد وقفت بجانب الروم وضـد المسـلمين فيها . فقد جـاء عنـد الطبري : « فبلغ الناس ان هرقل قد نزل مآب من ارض البلقاء في **مائة الف من الروم** ، وانضمت اليه المستعربة عن لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف منهم »(٢٧) .

ويبدو لنا ان دور جذام في هذه المعركة كان كبيرا وذلك للاسباب التالية :

اولا : لقد جرت المعركة في ديار جذام ومؤتلفها ، فكما قلنا مساكن جذام تمتـد من تبوك الى جبال حسمى في شمال الحجاز الى الشمال الشرقي ، فالى وادي عربة وحتى البحر الميت الى البلقاء (٢٨) ، ومن ايله شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل .

ثانيا : سبق وان حصل في البلاد الشامية خراب كثير ودمار واسع بسبب الحرب الطويلة التي وقعت ما بين الفرس الساسانيين وبين الروم البيزنطيين فالفرس عنـد احتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١م ، دمروا البلاد وقتلوا العباد وانتشر بين الناس الجوع والهلع واحتلوا كبرى مدن الشام مثل انطاكية وحلب ودمشـق والقدس ، وهدموا الكنائس وابادوا كثيرا من القرى ومن جملة ما ابادوا ملك غسان . فلما تـم النصر للروم ، واخذوا يتهيأون لتنظيم سورية واعادة السيطرة عليها عـام ٦٢٩ أو ٦٣٠ ، بعد ان تضعضع نفوذهم كثيرا حتى ان سيطرتهم لم تتعد البحر الميت في حـين كانت في السابق تمتد حتى ايلة(٢٩) . .

ولسد هذا الفراغ جاء الروم بجذام وقلدوها الرئاسة بشخص فـروة الجذامي في معان وما حولها (وسنأتي بالحديث عنه فيما بعد) الذي اصبح عاملا للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب (٣٠) .

ثالثا : لا حاجة بنا ان نستغرب عدم ذكر غسان بين المستعربة التي جاءت لقتال المسلمين في مؤتة ، فلم يذكرها الواقدي ولا الطبري ولا كثير غيرهما ، واكتفت المصادر ذاتها بالقول ان قاتل رسول رسول الله (الحارث بن عمير الازدي) الى ملك بصرى هو شرحبيـل بن عمرو الغساني . واخلص من كل ما تقـدم بالقـول **ان دور جـذام ومؤتلفها كان كبيرا في معركة مؤتة**(٣١) . **فكانت هي الركيزة والمعول** .

اما بالنسبة للمسلمين فبالرغم من أن المعركة لم تحقـق نتائج عسـكرية وراح ضحيتها ثلاثة من ابرز شهداء المسلمين (زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رواحة) ، مع هذا يبدوا انه لم يكن في الطرفين كثير من القتلى . وتفسير ماتذكره المصادر عن الاعداد الغفيرة للجيشين (مائة الف جيش الـروم) وجيشـ المسـلمين

(ثلاثة آلاف)(٣٢) ، قد يعود ذلك الى أن البلاد السورية ما زالت تعيش آثار الحرب الفارسية البيزنطية وفي جنوب سورية بالذات . نستشف من المصادر **ان الفريقين المتحاربين جلهم من العرب** ، فعرب الشام بدعم من الروم تحارب ضد العرب المسلمين ، لوقف تصاعد قوة الرسول والمسلمين .

وتذهب بعض الكتابات التاريخية الى القول من أن احد اهداف المسلمين من غزوة مؤته هو الوصول الى السيوف المشرفية الشهيرة ، التي يعتقد انها كانت تصنع في مؤتة ونواحيها ، او في قرية مشارف الشامية القريبة . وفي معجم البلدان « السيوف المشرفية منسوبة الى مشارف ، وهي قرى من ارض العرب تدنو من الريف » ، بل ان ياقوت نفسه يحدد في حديث عن مؤتة :« ثم مضى الناس حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف » هذا النص يجعلها قرية بعينها بهذا الاسم ، كما وردت في خطط الشام لمحمد كرد علي(٣٣) . ومعلوم ان منطقة وادي عربة وعجلون وغيرهما مشهورة بمناجم الحديد وقد استغل بشكل واسع منذ الفترة الرومانية(٣٤) وقبلها . كما وانه الى الشمال من مؤتة توجد اليوم قرية اردنية باسم المشيرفة .

حملة مؤتة كانت هي الحملة الاولى والوحيدة التي جردها المسلمون نحو الشام في حياة الرسول ،وهي بذلك تؤلف الحملة الاولى في معركة تحرير البلاد الشامية من البيزنطيين الامر الذي تم بفضل الفتوحات الباهرة التي تلتها .

اما غزوة تبوك (٩ هـ) فدور جذام فيها يتضح كمايلي:

لقد ذكرنا ان اخبار بلاد الشام كانت تصل الى رسول الله في المدينة عن طريق الانباط وغيرهم ، فقدمت قادمة عام تسع للهجرة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق أصحابه لسنه ، وانه استنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وبهراء وغيرها من عرب الشام وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها ، فراى الرسول ان لم يبدأ الروم القتال بداه ، فأمر في سنة تسع للهجرة بالتجهيز لغزو الروم ، والطلب بدم جعفر ومن استشهد معه في مؤتة في السنة الفائتة .وجاء عند الطبري . « ان رسول الله امر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم .. وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد .. وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها .. الا ما كان من غزوة تبوك ،فانه بينها للناس لبعد الشقةوشدة الزمان وكثرة العدو ..ليتأهب الناس لذلك أهبته ، وامر الناس بالجهاز»(٣٥) . ويذكر محمد كرد علي انه كان معه (الرسول) (الرسول) أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى

فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، ولم ينفق احد اعظم من نفقته. كذلك فان ابا بكر انفق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله »(٣٧) .

ومع كل هذا الاستعداد والمشقة الفائقةالوصف ـ حتىسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة ـ فان المسلمين لم يلاقوا كيدا ، فعادت الحملة من تبوك دون ان تصطدم بقتال ولكنها حققت المهام التالية :

اولا : كانت غزوة تبوك تجربة كبيرة لمستقبل التعبئة النفسية والاستعداد العسكري لحروب الفتح المقبلة .

ثانيا : عقد رسول‌الله خلالها الصلح معاصحاب أهم المواقع التي تقع على الطرق التجارية ما بين الشام والبلاد الحجازية ، وأكثر هذه المواقع تمر بديار جذام ومن جاورها من القبائل .

ثالثا : ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة سيما بعد معركة مؤتة كما يقول صالح درادكة ، فلا بد اذن من ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو البلاد الشامية (٣٨) .

ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان .

واثر غزوة تبوك تم بالفعل عقد الصلح مع الحواضر التالية :

أ ـ تم الصلح مع أهل اذرح من جبال الشراه (في هذا الموقع تم فيما بعد التحكيم ما بين علي بن ابي‌طالب‌ومعاوية‌بن‌ابي سفيان وذلك عام ٣٨ هـ) (٣٩) .

ب ـ صالح الرسول أهل جرباء ـ من الشوبك أيضا واهل مقنا على مقربة من أيلة ـ كما وسبق الصلح مع دومة الجندل.

جـ ـ ثم صالح الرسول الكريم اسقف أيلة يحنه بن رؤبة . وصلح أيلة له دلالة عميقة فأيلة ـ كما هو معروف ـ مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى . وأهلها يعيرون هذا الامر جل اهتمامهم ، وحيث ان الرسول في هذا الوقت أصبح يسيطر على أهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، لذا سارع اهلها بقيادة صاحبها يحنة بن رؤبة بعقد الصلح مع الرسول وقبلوا دفع الجزية وتبادل الرسول مع اسقفها الهدايا(٤٠) .

ويبرز هنا أمر جانبي يمس دور جذام ، ذلك ان بعض المؤرخين يذهب الى القول

ان يحنه بن رؤبة اسقف ايلة هونفسهمن جذام(٤١)، ناهيك ان كثيرا من اساقفة ايلة قبله كانوا من اصل عربي(٤٢) .

د ـ يذكر الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة ان « وفدا من الداريين (من لخم) قدموا على رسول الله واسلموا » ونرجح انه في السنة نفسها اعلن فروة الجذامي اسلامه(٤٣) وفروة بن عمرو الجذامي من بني نفاثة كان ـ كما ذكرنا سابقا ـ عاملا للروم على قومه لبني النافرة من جذام ـ وعلى من حوالي معان مَنْ العرب ، ولما وقعت غزوة تبوك بعث الى رسول الله باسلامه واهداه ، وعلم قيصر الروم بذلك فسلط عليه الحارث بن شمر الغساني فاعتقله وصلبه بفلسطين . وورد ذكر فروة الجذامي عند ابن الاثير هكذا « فلما بلغ الروم اسلامه (فروة)طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفرى ـ شمال مدينة الطفيلةاليوم بفلسطين ـ . وقال ابن اسحق زعم الزهري انهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي اعظمى ومقامى(٤٤)

ويعلقدونرعلى مقتل فروة الجذامي قائلا «ربما انها مجردقصة دينية وفيالهامش يقول ربما ان فروة الجذامي قد قتل بسبب الحرب الفارسية البيزنطية »(٤٥) ويقول مصطفىالدباغ « فروةالجذامي أولعربي استشهد (من)بلاد الشام بسبب اسلامه»(٤٦).

ويحلو لصاحب الاوائل ان يطيل في وصف قصة فروة الجذامي وفي سرد الابيات الشعرية التي قيل انه قالها وهو مصلوب ويقارنها بابيات جميلة لابي تمام ولان القصة مؤثرة وهدية فروة للرسول قد اثارت على ما يبدو اهتماما ما في المدينة ، راينا اثباتها* :

---

* قال ابو الهلال العسكري :

بعث فروة بن عمرو الجذامي حين اسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثياب فيها قباء سندس مخوص بالذهب وفرس وحمار وبغلة شهباء ، فكانت أول شهباء رئيت في المدينة . وكان فروةعاملا من قبل الروم على عمان (والاصح معان) من ارض البلقاء ، فقسم رسول الله الثياب بين نسائه ، اعطى القباء مخرمة ، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع ، وبلغ ملك الروم صنيع فروة ، فاراده على الرجوع الى دينه فأبى ، فامر بصلبه ، فقال حين صلب :

الا هل اتى هندا بأن خليلها على ماء عفرى فوق احدى الرواحل
على ناقة لا يضرب الفحل امها مشذبة اطرافها بالمناجل

ومن هنا اخذ ابو تمام قوله في مصلوبين :

اسوا واصحوا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
سود الثياب كانما نسجت لهم ايدي الجنوب مدارعا من قار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

العسكري ، ابو هلال ، جـ١،ص ١٦٩ = ١٧١ ، دمشق ١٩٧٥.

وقبل ان ننتقل الى المعارك الكبرى والحاسمة والتي وقعت في الديار الشاميـة لنواصل تتبعنا لدور جذام ، يجدر بنا ان نرجع الى الوراء قليلا لنسوق ملاحظة هـي بالحقيقة مربكة ولكنها تتعلق بجذام ، او بالحرى تتعلق ببني النضير وبني قريضة من يهود يثرب حيث قيل انهما من جذام ، يذكر اليعقوبي في تاريخه ان بني النضير وهم فخذ من جذام الا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير ، فسموا بـه ، اخرجهم رسول الله من يثرب (المدينة) فتحملوا الى الشام والى خيبر (سنة٤ هـ/٦٢٦م) ونزلت في بني النضير سورة الحشر كلها(٤٧) ، وهو « الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم »(٤٨).

ويذكر اليعقوبي الامرنفسه عن بني قريضة : « بنو قريضة وهي فخذ من جذام ، ويقال ان تهود بني قريضة كان في ايام السموأل (عاديا) ، ثم نزلوا بجبـل يقال لـه قريضة فنسبوا اليه ، وقيل ان قريضة اسم جدهم . وكان بينهم وبين رسـول الله صلح فنقضوه وحالفوا قريش(٤٩) .

لا ندري هل من الممكن ان نقبل ما ذكره اليعقوبي وغيره ، ولكن ان صح ما ذهب اليه ، ففيه دليل آخر على نفوذ جذام وبعد اثرها .

ومع هـذا وبتردد زائد نسوق بعض الاشارات التي تدعـم مقولـة اليعقوبي ، تاركين الحكم فيها للقارىء الكريم :

اولا : ان اليهودية كانت دينا تبشيريا لعصور طويلة .

ثانيا : ان كثيرا من العرب قد تهودوا في فترات متباينة، فيذكر اهل الاخبار وجود اليهودية في حمير وبني الحارث بن كعب وكنده ، وتهود بني حشنة من بلي ودخولهـم تيمـاء (٥٠) .

ثالثا : ويذكر حمد الجاسر ان كثيرا ممن سكن خيبر كان من صرحاء العرب مع انهم يهـود مثل مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب جانبـا من بطولتـه وهو مــن قبيلة حمير القحطانية(٥١) .

رابعا : ان جماعة اليهود المتعصبة التي استطاعت بسبب ضعف السلوقيين ان تكون زعامة ما (المخابيون) في القرن الثاني قبل الميلاد في فلسطين وكانت لتخوفها من

الهيلينية ، قد حملت الناس في جنوب فلسطين وفي الجليل على التهود ، تحت طائلة الطرد والابـادة .. وقد تكون هذه الاعمال قد أمتدت عبر السنين فنسمع عن التهود بين سكان جنوب سورية حتى ايام هيرودس الكبير والي روما في فلسطين ، وكان هـو نفسه وأهل بيته من الادوميين ، فمشيا مع هذه النظرية نقول ان هذه الاعمال اصابت جذام أو بالحرى أصابت جزءا من الشعوب التي كانت تسكن المنطقة وذابت في وسطها واندمجت فيه واخذت تحمل اسم جذام فيما بعد من الزمن .

ليس موضوعنا في هذا البحث الكلام عن دوافع الفتح واسبابه وسـير المعارك العظمى التي جرت وانما هدفنا رصد دور جذام رغم تواضعه خلال هـذه الاعمـال العظام ، فقبيل خروج جيوش الفتح التي تشكلت في خلافة ابي بكر الصديـق وقعت كما هو معروف حروب الردة ، اثر انتقال الرسول الكريم الى رفيقة الاعلى .. فشمر ابو بكر الصديق والمسلمون لحرب المرتدين . ومن جملة هؤلاء كان بطن من جذام سبق وان اسلم وهم بنو الضبيب قد ارتدوا فيذكر الطبري انه « لما توسط اسامة (بن زيد) بلاد قضاعة بث الخيول فيهم وأمرهم ان ينهضوا من أقام على الاسلام الى مثل مـن رجع عنه ، فخرجوا هرابا حتى ارزوا (التجأوا) الى دومة واجتمعـوا الى وديعـة (الكلبي الذي ارتد بدوره) ورجعت خيول اسامة اليه ، فمضى فيها اسامة حتى أغار على الحمقتـين (موقـع) ، فاصـاب من بني خبيب مـن جذام ، ومـن لخـم ولفها من القبيلين وحازهم من آبل (موقع) وانكفأ سالما غانمـا »(٥٣) هـذه ملاحظة بسيطة سجلناها ونمشي مع سير المعارك .

قلنا ان غزوة تبوك قد مهدت الطريق لجيوش المسلمين للسير نحو الشام، وطبيعي ان الطريق الذي سلكته معظم الجيوش الاسلامية قد مرت في ديار جذام التي نحسب ان أرتالا منها قد انضمت لجيوش المسلمين بعد الاعلان عن اسلام اقسام منهم ومـن بني لخم(٥٤) .

وكما ذكرنا كان سكان الشام قد اثقلتهم الضرائب التي فرضها هرقل للتعويض عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالبلاد اثر الحرب الفارسية البيزنطية الطويلة .

ان اكثرية السكان النصارى الذين لم يسلموا بعد كانوا في خصام مذهبي شديد مع الكنيسة الرسمية الملكانية .

وقـد لاقى رجال الدين ، وكثير من الشـعب العنت والاضطهاد من الحـكام البيزنطيين نتيجة للخلافات والصراعات ما بين المذهب الكنسي السـوري (الشامي) المونوفيستي وبين الكنيسة الملكانية . فاصبح المجتمع السـوري معاديـا من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة . **وما المونوفيستية بالحقيقة الا تعبير وطني عن انفصـال**

الحضارة السامية عن الفكر الروماني الهيليني الدخيـل ، لذا اختار العرب الوقـوف بجانب اخوانهم المسلمين ، الذين جاؤوا ارض الشام والعراق لنشر الاسلام ، ولمحاربة سلطان الدولتين الاجنبيتين الكبيرتين آنئذ بيزنطة وفارس ، ولم يكن النصارى العرب في يوم من الايام على سجل الاعداء بل العكس ، والارجـح ان النصرانيـة الاراميـة ــالعربيةــ القبطية كانت حليفا للاسلام في اطار الصراع التاريخي ، الذيظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام(٥٥) .

وللموضوعية نرجع هنا الى المصادر الاجنبية نفســها التي تخبرنا عن الترحيب الذي لقيه العرب المسلمون من السكان الاصليين للبلاد السورية ، يـورد الاب قنواتي عدة نصوص تبين ترحيب السكانبالعرب وفرحهم بخلاصهممن ظلم البيزنطيين ونسجل كمثال نصا اخذه عن بطريرك انطاكية في مذكراته « ميخائيل الســوري » مترجمة الى الفرنسية والانكليزية نورد ترجمته بالعربية كمايلي « انتقام من الله ، الذي رأى شرور الروم ، الذين حيثما حكموا فحكمهم ظالم : هدموا كنائسنا وأديرتنا ، ساسونا بـلا رحمة .. حتى جاءمن الجنوباولاد اسماعيل ليتم خلاصنا منالروموعلى أيديهم »(٥٦). كل هذا يحملنا على القول ان جذام ولخم وغيرهما من القبائل العربية من الشام اسرعت وانضمت ، خاصة بعد معركة اليرموك ، الى اخوانهم العرب المســلمين واعتبروهـم محررين لهم بدليل استسلام وانسياق كثير من الحواضر والمدنللمسلمين دونما حرب، وعلى سبيل المثال مؤاب(٥٧) .

اما ما قبل اليرموك ، فنستشفمنمصادرنا ان اقساما من المتنصرة العربخاصة غسان وقفت بجانب الروم . فيذكر الطبري « سار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة **لخم وجذام** وبلقين وبلي وعاملة، وتلك من قضاعة ، بشرا كثيرا ، ومعه من أهل ارمينية مثل ذلك ،فلما نزلها اقام بها » ،وبعد ذكر الاعداد والقادة يقول « سار اليهم المسلمون وهم اربعة وعشرون الفا عليهم ابو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة ١٥ هـ » ويستمر الطبري « فاقتتل الناس قتالا شديدا حتى دخل عسكر المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف ، حتى سابقن الرجال وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم **ناس من لخم وجذام** . فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين .. وقال قائل من المسلمين حين رأى من لخم وجذام ما رأى :

القـوم لخم وجـــذام في الهـرب ونحن والـروم بمـرج نضطـرب

فان يعـودوا بعدها لا نصطحب

وما جاء عند الطبري ذكرته كثير من المصادر العربيـة الاخرى مـع اختلافات بسيطة(٥٨) .

من هذه النصوص نحكم ان اقساما من جذام كانت حتى اليرموك مع المسلمين وقسم مع الروم وعند الازدي نرى المسألة اكثر وضوحا حيث يقـول بصدد معركـة اليرموك« خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم وفيها الازد . وفيها همدان ومذحج وخثعم**وقضاعة ولخـم وجذام** وغسـان وعاملـة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن أعظم الناس من أهل‌اليمن» .. ويفسر الازدي ذلك فيقول « ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ، ولم تكن دارهـم وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق » . ويذكر في مكان ا خر « ان جذام ولخم حاربت في ميسرة المسلمين حيث انكشفوا للعدو » . من هذا النص نرى ان جذام وغيرها من قبائل العرب في الشام حاربت مع المسلمين في اليرموك ايضا (٥٩).

وبما ان معارك مثل داثن (وهي من قرى غـزة) **واجنادين** مابين الرملـة وبيت جبرين ، (وبيت جبرين سكانه من جذام كما مر معنا) ، قد وقعتا في اراضي جـذام فنحسب انجذام كانت بجانب المسلمين آنذاك (٦٠) . ونلمح ذلك بوضوح عند فتـح قيسارية حيث ارسل قائد الفتح معاوية بن ابي سفيان باثنين من بني جـذام يحملان بشرى الفتح للخليفة عمر بن الخطاب(٦١) . وقيسارية من المدن الشامية التي قاومت لانها كانت مركزا هاما للبيزنطيين ومعقلا كبيرا للهلينية في الارض الشامية .

يقول الاستاذ محمد كرد علي « ومن المحقق ان العرب المتنصرة ـ ومنهم جذام ـ في الشام عادوا بعد ان صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين واخذتهم النعرة الجنسية .. واصبحوا للمسلمين عيونا على الروم» (٦٢) .

وشاركت جذام مشاركة فعالة بالفتوح ودليلنا المادي على ذلك هو اجتماع يوم الجابية الذي وقع ١٧هـ على الارجح حيث اجتمع عمر بن الخطاب مع امراء الجيش ورؤساءالشام‌وبصحبته عدد من كبار الصحابة، وكان من دواعي‌الشهرة ان يكون‌المرءمن شهود هذا اليوم . امر عمر بان يوزع العطاء على المقاتلين في فتوح الديار الشامية .. ورؤي اول الامر استبعاد القبائل العربية من اهل الشام في العطاء ولكن هؤلاء العرب الذين شاركوا الفاتحين من الحجاز واعانوهم عارضوا هذا **الرأي فلم يؤخذ به** ، فيذكر اليعقوبي « وامر عمر بن الخطاب ـ بالجابية ـ ان تقسم الغنائم بين الناس بالسوية خلا لخم وجذام وقال : أجعل من خرج الشقة الى عدوه كمن خرج من بيته »(٦٣) .

ولكن صاحب الامـوال ساق الخبر بتفصيل اكثر وبما انتهى فعلا اليه فذكـر

« شهدت خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، قال : فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فان هذا الفيء شيء افاءه الله عليكم ، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ، ليس احد أحق به من أحد ، الا ما كان من هذين الحيين .**لخم وجذام** فاني غير قاسم لهما شيئا ، فقام رجل من لخم فقال : يا ابن الخطاب ، انشدك الله بالعدل والتسوية ، فقال : ما يريد ابن الخطاب بهذا ألا العدل والتسوية ، والله اني لاعلم ان الهجـرة لو كانت بصنعاء ما خرج اليها من لخم وجذام الا قليل . أفاجعل من تكلف السفر وابتاع الظهر بمنزلة قوم انما قاتلوا في ديارهم . فقام ابو حدير فقال : يا أمير المؤمنين ان كان الله تبارك وتعالى ساق الهجرة الينا في ديارنا **فنصرناها وصدقناها** اذاك الذي يذهب حقا ؟ فقال عمر : والله لاقسمن لكم ، ثم قسم بين الناس فاصاب كل رجـل منهـم نصف دينار ، اذا كان وحده ، واذا كانت معه امراته اعطاه دينارا(٦٤) .

ان مشاركة جذام ولخم بالعطاء يعطينا دليلا ماديا يثبت المشاركة الفعلية لهما في الفتح الامر الذي استحقتا معه المشاركة في العطاء على السواء .

في نهاية بحثنا .. لنقف عند حادث اليم أصاب المسلمين وهو طاعون عمواس ، وتقـول أكثر المصادر انه وقـع في عام ١٨ هـ . وسـمي باسم المدينـة الفلسطينيـة ــعمواســ التي تقع على الطريق الرئيسي الموصل القدس باللد .

وطاعون عمواس كان عنيفا وامتد الى مناطق واسعة ، ويذكر ياقوت في معجمـه انه راح ضحيته خمسة وعشرون الفا من المسلمين(٦٥) .

ان يحدث طاعون في الارض الشامية ــ او مناطق منها على الاقل ــ في ذلك الوقت ليس بالامر الغريب ، يذكر كونراد في دراسة له حول الطاعون انـه قد حـل بسورية طاعون جارف في أيـام جستنيان الاول عام ٥٤٢م ، وفي أواخر القرن السادس ، وفي مطلع القرن السابع للميلاد ، وقع طاعون آخر . وتشير المصادر الى ان الطاعون كأنه قد استوطن بعض الارض الشامية في الفترة الاموية وبداية الفترة العباسية(٦٦) .

ولكن السؤال : ما علاقة ذلك بدور جذام في الفتوح ؟ موضـوع بحثنـا .. انني افترض انه بسبب هذا الوباء الذي راح ضحيته تلك الالاف من الشهداء المسلمـين ، كان من بينهم قادة جيش الفتح ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاذ بن جبل واخرون ــ رضوان الله عليهم ــ ، قد احدث فراغا في القوى البشرية للمسلمين وهم في نشوة انتصاراتهم على البيزنطيين في الشام ، ويستعدون للسير لفتح مصر . وحيث ان هذا الوبـاء يصيب الحواضر وسـكان المدن أكثر مما يصيب البـوادي ،

والهضاب والواحات واطراف الصحراء حيث تعيش جذام وجموعها ، تلك الجمــوع التي كما قلنا أكثر العرب ابلا .. فهم معها خارج المدن المكتظة ، وجذام ومؤتلفها تـم انضمامها في هذا الوقت بالذات الى صفوف المسلمين . **اذن ففي الجموع الجذاميـة وجد المسلمون التعويض البشري الكبير عن كوارث الطاعون والمدد الوافر من المجاهدين للانضمام الى جيش فتح مصر** ..ودون الخوض بتفاصيل كثيرة حول فتح مصر ودور جذام في تلك الفتوح يكفي القول ان جذام ومعها لخم وبهراء وبلي وغيرهم قـد كونت عماد جيش الفتح بقيادة عمرو بن العاص ، الذي انطلق من موطن جذام جند فلسطين.

وحيث ان موضوع فتح مصر ، يخرج بنا عن نطاق حدود هذا البحث ، فيكفي ان نسوق هذه الملاحظات البسيطة نختتم بها حديثنا عن دور جذام في الفتوح :

ان أول من سكن الفسطاط هم اهل الراية وفيهم القبائل التي شاركت بالفتح منها بلي ولخم وجذام خاصة فرع وائل التي شكلت أهم الفرق(٦٧) .يقول القلقشندي « بنو جذام اول من سكن مصر من العرب جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص ، واقطعوا فيهابلادا بعضها بأيدي بنيهم الى الان » . وقال في موضع آخر « ومن اقطاعاتهم ـبني جذام ـ هربيط ، وتل بسطه ونوب وغير ذلك » . وذكر القلقشندي عدة بطون لجذام وقال « بالاسكندرية من جذام ولخم أقوام ذو عدد وعدة واهل شجاعة واقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام ولهم أيام معلومة واخبار معروفة ووقائـع في البر والبحـر مشهورة »(٦٨) .

المصادر والمراجـع :

(١) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٩ . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٢ ، دار المعارف المصرية ١٩٥٢ . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٣٧، الكتاب اللبناني بيروت . البلاذري،فتوح البدان ، ص ١٥٩،١٣٥، الطبعة الاوروبية .

(٢) الزبيدي ، تاج العروس ، حـ ٨ وايضا النويري ، نهاية الارب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ، القاهـرة . ابن منظور : لسان‌العرب، حـ ١٤ ، ص ٣٥١ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(٣) البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق السـقا ، القاهـرة جـ ٤ ص ١٢٠١ . أيضـا القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر حـ٢ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن خلدون ، العبر جـ ٢ ، ص ٣٧ ، الكتاب اللبناني : بيروت .

(٥) ابن خلدون ، العبر جـ٢ ، ص ٣٧.

(٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٥ـ ١٢٦ .

(٧) يافوت ، معجم البلدان جـ ٢ ، ص ١١٤ ، بيروت ١٩٧٩ . اليعقوبي ، بلدان ، ٣٣٠ـ٣٣٩ (مـع كتاب الاعلاق النفسية) ليدن ١٨٩١ .

(٨) الحلبي ، المناقب المزيدية ، جـ١ ، ص ٦٧،٧٠ .
هبة الله ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسا ت، عمان ١٩٨٤ .

(٩) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٤ ص ٣٥٦ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، جـ٢ ، ص ٥٣٥.

(١١) ابن خلدون ، ن.م ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(١٢) ابن خلدون ، ن.م ، جـ٢ ، ص ٥١٧ .
ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، جـ ٣ ، ص ٤٠٣ .

(١٣) ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٣٩٥ . القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ ، القاهـرة ١٩٥٦ .

(١٤) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٤ ، ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(١٥) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للامة العربية ، مركزدراسات الوحدة العربيـة ، بـيروت ١٩٨٤ . فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ١٩٦١ . شاكر مصطفى ، العرب والاسـلام وفلسطين عبر التاريخ (من كتاب القضية الفلسطينية) ، الموصل ١٩٨٣ .

انظـــر :
Trimingham, J.S., **Christianity among the Arabs in pre-Islamic Times,** Longman, London 1971 .

(١٦) صالح الحمارنة ، المسيحية في ارض الشام في اوائل الحكم الاسلامي ، (من كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) عمان ١٩٧٤ ، ص ٥٤٩ ـ ٥٥١ .

(١٧) توفيق فهـد ، ماوية وضجعم او العرب والرومان في اواخر القرن الرابع ، بحث مقدم لمؤتمـر بلاد الشام الرابع ١٥ـ٢١ تشرين اول سنة ١٩٨٣ .

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد عبد الحميد ، جـ ١ ، ص ٦١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(١٩) ترمنجهام ، ن.م ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٠) الطبري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٤٠ . ابن هشام ، السيرة جـ٢ ، ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون .

(٢١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى جـ ١ ، ص ١٣١ لجنة الثقافة القاهرة . الطبري ، تاريـخ جـ٣ ،ص ١٤٠ ـ ١٤١ . ابن الاثير ، اسد الغابة ، جـ ٢ ، ص ١٨١ . خليفة بن خياط، تاريخ ص ٨٥. ، تحقيق اكرم العمري . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ، بيروت سنة ١٩٧٩ .

(٢٢) الطبري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٨٥ . ابن سيد الناس، عيون الاثر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

(٢٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .

(٢٤) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢٥) الواقدي ،المغازي ، جـ٣ ، ص ٣١ . محمد بن عمر ، تحقيق جونس .

(٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ ، بيروت سنة ١٩٦٣ .
علي بن الحسن

(٢٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشـق تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، جـ١ ، ص ٤١٣ ، دمشـــق ١٩٥٤ . الواقدي ، كتاب المغازي ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ ، جـ ٣ ، ٩٨٩ ، القاهرة ١٩٦١ . صالح الحمارنة ، دور الانباط في الفتوح الاسلامية ، مجلة دراسات « الاردنية » المجلد السابع ، العدد ١ ، عمـان ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ ومابعدها .

(٢٧) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٧ .

(٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ . ابن خلدون ، العبر ،جـ ٢ ، ص٢٤ . جواد علـي ، المفصل جـ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٢٩)
Donner, F., **The Early Islamic Conquests,** pp,99 - 101, Newjersey 1981.
Trimingham
Anawati, G., **Factors and Effects of Arabization and Islamization in Egypt and Syria,** p.20, Otto Harrassowitz , wiesbaden 1975.

نودلكة ،امراء غسان ، ص ٤٩ـ٥٠ الترجمة العربية ، بيروت ١٩٣٣ .

(٣٠) البكري ، معجم ما استعجم ، جـ ٤ : ص ١٢٤١ القاهرة سنة ١٩٥١ . ابن الاثـير : اسـد الغابة جـ٢ ، ص١٧٨ .

(٣١) الواقدي : كتاب المغازي جـ ٢ ص ٧٥٥ ـ ٧٦٩ تحقيق جونس اكسفورد ١٩٦٦ .
الطبري : تاريخ جـ ٣ ، ص ٣٦ـ٤٢ .

(٣٢) الواقدي ، المغازي : جـ ٢ : ٧٥٥ ـ ٧٦٩ اكسفورد ١٩٦٦ .

(٣٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٤ ص ٥٣٦ طهران ١٩٦٥ الزبيدي : تاج العروس جـ٦ : ص١٥٤ دار ليبيا للنشر .ابن منظور : لسان العرب (مادة الشرق) ج ٩ : ص ١٧٤ دار صادر بيروت . ف ـ حتى : تاريخ العرب مطول ص ١٩٩ بيروت ١٩٦١ . محمد كرد علي : خطط الشـــام ٧/١ دمشق ١٩٦٩ .

(٣٤) Rothenberg,B., **Timma Valley of the Biblical Copper Mines** London, Themes and Hudeon, (1976).
Coughenour, R. , **Preliminary** Riport on the Exploration of Mugharat el Wardeh and Abu Thawab, Annual of the Department of Antiquities, XXI, 1976, Amman, Jordan.

(٣٥) الطبري : تاريخ جـ ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، دار المعارف المصريـــة . البـلاذري : فتــوح ص ٧١ . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ، ص ١٤٠ ، صادر بيروت سنة ١٩٧٩. محمد كردعلي: خطط الشامجـ١ ص ٧٤ وما بعدها ، دمشق ١٩٦٩ .

(٣٦) محمد كردعلي : ن.م جـ ١ ، ص ٧٤ .

(٣٧) الطبري : ن.م ، جـ١ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ . محمد كردعلي : ن.م ، جـ ١ ، ص ٧٤.

(٣٨) صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة ـ العقبة ـ في العصر الاسلامي ص ٦٧ـ٧٨ مجـلة دراسات تاريخية جامعة دمشق العددان ١٥، ١٦، دمشق ١٩٨٤.

(٣٩) الطبري : تاريخ، جـ٥ ، ص ١٥٨ وما بعدها .نبيه عاقل : خلافة بني امية ص ٤١ـ٤٢ دمشق١٩٧٢

(٤٠) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ . محمد كــرد علي ، خطط الشـــام ،جـ١ ، ص ٧٥.

(٤١) ابن سعد الطبقات ، جـ، ١ ص ٢٨١ دار صادر بيروت ١٩٥٧ . ابن خلدون ، العبر ، جـ١ ص٢٣٤ صالح درادكة : لمحات منتاريخايلة،ص ٧٢ .

(٤٢) لويس شيخو : النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية، جـ٢ ، ص ٤٤٨ ، بيروت ١٩٢٣ .

(٤٣) الطبري ، تاريخ، جـ ٣ ، ص ٩٧.

(٤٤) ابن الاثير ، اسد الغابــة ،جـ٢ ، ص ١٧٨ . البـكري ، معجـم ما استعجـم ، جـ ٤ ، ص ١٢٤١ القاهرة ١٩٥١ . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ دار الكتاب البناني بيروت . الزركلي ، الاعلام جـ ٥ ، ص ٩٤٥ . مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا جـ ١ قسم ١ ، ص ٧٠٨ .

(٤٥) Donner, F;, **The Early Islamic Conquests,** p.105, p. 304 .

(٤٦) مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا ، جـ ١ قسم ١ ص ٧٠٨ .

(٤٧) اليعقوبي ، تاريخ جـ٢ ، ص ٤٩ ـ ٥٢، صادر بيروت .

(٤٨) سورة الحشرة ٢ .

(٤٩) اليعقوبي ، ن.م ، جـ٢ ، ص ٥٢.

(٥٠) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٢٤ . ابن رستة ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٥ . جواد علي ، المفصـل في تاريخالعرب قبل الاسلام، جـ ٣ ،ص ٥٧٢ ـ ٦٢٩ ، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ . عبد العزيزالدوري،

اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ضمن كتاب ((القضية الفلسطينية)) ص ٧٩-١٢٠ الموصل ١٩٨٣ .

(٥١) حمد الجاسر ،في شمال غرب الجزيرة ص ٢٣٦ دار اليمامة : الرياض . ابن هشام :السيرة ،جـ٣، ص ٣٤٨ طبعة الحلبي القاهرة .

(٥٢) شاكر مصطفى ، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ ضمن كتاب « القضية الفلسطينية » ،ص ٣٢-٣٣ ، الموصل ١٩٨٣ . نقلاعن:

Josaphos, Antiquities, Book XII , eh. 15,p.4.

انجيل مرقس ٧٠/١٤ ومتى ٢ ، ١٤ . فليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان جـ١ ،ص ٢٧٣ وما بعدها بيروت ١٩٥٨ .

(٥٣) الطبري ،جـ ١ ١٧٧٩ (الاوروبية) .ابن سعد ، جـ١ ، ٧٢.

(٥٥) فكتور سحاب ، من يحمي المسيحيين العرب ، المستقبل العربي، ص ١٣٠ - ١٦١، ١٩٨٠/٨ بيروت.

(٥٦) Chronique de Michel , Le Syrien Patriarche Jacobite d'Antioche , ed . and trans . J.B., Chabot , Paris (1905) , XI,U.

من مقالة

Anawati, G., Factors and Effects ..pp;20 - 44 .

(٥٧) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ ، القاهرة ١٩٦٩.

(٥٨) الطبري، تاريخ ٣ (٥٧٠ - ٧٥١). ابن خلدون : العبر ، ٢ ، ٤٦٦ . الواقدي ، فتوح الشام ص ١٠٧ . البلاذري ، فتوح ، ص ٦٤٠ ..

(٥٩) الازدي ، فتوح الشام ، ٢١٨ ، ٢٢٧، القاهرة ١٩٦٩.

(٦٠) اليعقوبي ، بلدان ص ٣٣٠.

(٦١) اليعقوبي ، تاريخ ،٢ ، ٥١ ابيروت ١٩٦١ . البلاذري ، فتوح ١٤٧ - ١٤٨ .

(٦٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ٩١.

(٦٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،بيروت ١٩٦٠ .

(٦٤) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٧٤-٣٧٥ ، الطبعة الازهرية ،القاهرة ١٩٦٨ .

(٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤، ١٥٣ E.I. 2 طبري ، تاريخ ، جـ٤ ، ص ٥٦ ومابعدها .

(٦٦) Conrad, L.I., The paagae in Bilad al - Sham in pre - Islamic Times , (A Paper for Bilad al - Sham Conference, Amman, Oct, 1983.

(٦٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٦ الطبعة الاوروبية . المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ص ٢٩٦-٢٩٨ ،بولاق ١٢٧ هـ ، ١٨٥م .

Kubiak, W.,**Al Fustat, its Fondation and Early Urban Development,** pp. 83 - 97 , Warsau, 1982 .

(٦٨) القلقشندي ، نهاية الارب ص ٢٠٦-٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٦ .

عوامل سياسيّة واقتصاديّة في تطوّر سورية في العصر الآرامي القديم

(حتى أواخر القرن الثامن ق.م)

د. محمد حرب فرزات

جامعة دمشق

منذ الربع الاخير من الالف الثاني ق.م برزت جملة من التغيرات الاساسية على المسرح السياسي في سورية الشمالية وفي كل المشرق القديم ، نتيجة لتدخل عاملين اثنين من العوامل التي اثرت بصورة متزامنة وعميقة في تاريخ المنطقة : أولهما ، تحرك الشعوب التي عرفت باسم ((شعوب البحر)) في الوثائق المصرية الفرعونية ، وثانيهما ، تحرك الاقوام العربية القديمة من البادية العربية السورية ، بادية الشام ، نحو انحاء مختلفة من الهلال العربي الخصيب ، في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وهي الاقوام الارامية التي تربط فيما بينها لغة مشتركة ، وان اختلفت لهجاتها ، هي اللغة الآرامية الام ، التي تعد كما هو متداول عادة من ((اللغات السامية)) .

وإننا في هذا البحث سنحاول ان نلقي بعض الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المشرق العربي القديم وما آلت اليه من نتائج خطيرة ، ابرزها على الصعيدين **الديموغرافي والسياسي انتشار القبائل الآرامية واستقرار** بيوت حاكمة آرامية في أهم مدن سورية الشمالية منذ اواخر الالف الثاني ق.م ومطلع الالف الاول ، أي في العصر الذي يعرف عادة بالعصر الآرامي القديم . وتعتبر هذه التحركات البدوية العربية من حيث نتائجها هذه ، المباشرة والبعيدة ، أهم مراحل الانتشار العربي قبل الفتوحات العربية الاسلامية . اما على الصعيد الاقتصادي فهو ظهور **الآراميين** في سورية الى جانب البابليين في الرافدين والفينيقيين على الساحل **كأهم عامل اقتصادي في المنطقة** مدة

سبعة قرون (من القرن العاشر ـ القرن الثالث ق.م) أي الى العصر الهلنستي .

١ ـ انقلاب الوضع الدولي في سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م .

مع تحرك « شعوب البحر » تعرضت سواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط الى سلسلة من الهجمات منذ القرن الثالث عشر كان من نتائجها وقوع انقلاب وتغيرات تاريخية في أوائل القرن الثاني عشر منها(١) : تهديم الحضارة الإيجية في كريت وحوض بحر ايجه ، وانهيار الامبراطورية الحثية في آسية الصغرى ، واختفاء مدينة أوجاريت العظيمة على الساحل الكنعاني الشمالي في سورية ، واستقرار بعض عناصر من « شعوب البحر » الهائجة في الساحل الكنعاني الجنوبي ممن اطلق عليهم اسم **فلسطيين** (فلسط ، بلست) لان بينهم من كان ينتمي الى قبائل آخائية إيجية كانت تحمل هذا الاسم ، وبدأت تدعى تلك المنطقة عند اليونان ، وكذلك في الديوان الملكي الاشوري (منذ القر الثامن ق.م) ، باسم مشتق من هذا الاسم ، والذي غلب على البلاد بعدئذ في العصر الروماني ، بصيغة فلسطين .

ولم تنج مناطق سورية الشمالية من عواقب هذه التغيرات . اذ يرجح وقوع هجمات من الشعوب التي كانت تقطن سواحل خليج مرسين وشمالي خليج الاسكندرونة ، وهي المنطقة التي كانت تعرف في المصادر الحثية باسم كيزوواتنا ، ثم وردت باسم قوّة في المصادر الآرامية وهي كيليكية (٢).. ولكن هذه العناصر من الاقوام الشمالية اصطدمت بالسكان المحليين ، وهم خليط من عناصر حورية وأمورية ذات ثقافة بابلية ابرز ملامحها استخدام الكتابة المسمارية على الواح من الطين . وهذه العناصر هي بقايا مجتمعات امبراطوريتي ميتاني وحاتي وممالك امورو وبخاصة مملكة حلب ـ يمحاض ، التي قامت بأدوار اساسية في الصراع الدولي الذي نشب حول المنطقة واشترك فيه فراعنة مصر اعتبارا من القرن السادس عشر وطوال اربعة القرون . ولقد كان من عواقب نهاية مملكة حلب وتدهور ميتاني المبكر ، وسقوط الامبراطورية الحثية وانحسار نفوذ الفرعون المصري وتقلص مملكة بابل ، ترك الحبل على الغارب امام العوامل الفاعلة التي ظهرت بقوة على المسرح الدولي وهي:

اولا : الشعوب الاخائية وغيرها التي كانت فرت من وجه الغزو الدوري المتحرك من البلقان نحو سواحل هيلاد (اليونان) وجزر بحر ايجة ، لكي تبحث بالقوة عن وطن جديد على شواطىء اسية الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة ، أي على امتداد شواطىء الحوض الشرقي للبحر المتوسط . لكن هذه الاقوام التي لم تخلف وراءها وامامها سوى الدمار لم تجد بدآ من الانضواء تحت نفوذ الفرعون المصري رعمسيس

الثالث الذي عمل على توطينها واستقرارها مع الكنعانيين في منطقة عسقلان واسدود وغزة على الساحل الفلسطيني الجنوبي .

وثانيا: القبائل الآرامية التي استطاعت بانتشارها السريع والكثيف ان تسد الفراغ وان تحل محل الدول الكبرى المنهارة دولا جديدة هي سلسلة من الامارات والممالك العديدة التي تزعمتها بيوت حاكمة اتخذت قواعد راسخة لها في مدن وحصون قديمة على سفوح طوروس وفي شمال سورية . واذا ما القينا نظرة على الخارطة السياسية التي ارتسمت في اعقاب هذا التغيير لوجدنا الوضع الدولي في سورية العليا (سفوح طوروس) وفي شمالي سورية ، فيما بين القرنين العاشر والثامن ق.م(٣) ، على الشكل التالي :

انقسمت المنطقة الى دول عديدة : ففي اقصى الشمال اتحاد ممالك وامارات **طابال** الذي كان يضم العديد من الدويلات الصغيرة على سفوح طوروس العليا ، وترجع اهمية هذه المنطقة الى ثروتها المعدنية واهمها الفضة والحديد مما جعلها هدفا دائما للحملات الاشورية وبخاصة في القرنين الثامن والسابع . ويتصل هذا الاتحاد بشعوب **كيزوواتنا** الحثية ، **خيلاكو** (كيليكية بعدئذ) التي كانت تتحرك باتجاهين من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الغرب اي على امتداد كيليكية التاريخية التي شكلت في ذلك العصر ، اي في مطلع الالف الاول ق.م ، جبهة احتكاك وتفاعل مباشر مع الاقوام العربية القديمة التي كانت تتكلم لغات ولهجات سامية ، وهم القبائل الآرامية التي عرفت اولا باسم أخلامو .. ومن الدويلات التي تشكلت على هذه الجبهة السورية الشمالية : **قوه** في سهول كيليكية وكانت مشهورة بالخيول . **ويؤوديا** وعاصمتها **شمأل** اقصى مدائن بلاد العرب . وقد ذكرت شمأل مهموزة على انها الشمال وهي ريح تهب من قبل الشام نحو بلاد العرب(٤) . **وعنقي** (العمق) ومملكة « حاتي الكبرى » وهي المملكة التي بقيت تحمل اسم الدولة الحثية حول **كركميش** (جرابلس) حتى القرن السابع ق.م. اما اهم هذه الممالك فهي **ياحان** في منطقة لوحوتي (وهي لعش في النصوص الآرامية كما في نصب ملك حماه **زكر** في النقوش الآرامية من القرن التاسع ولعل الاسم محرف من نوحاشة الواردة في النصوص المصرية من اواسط الالف الثاني) ، وهي منطقة حلب التي احتفظت بأهميتها الاقتصادية ومكانتها الدينية وبخاصة بعد ان تزايدت أهمية معبد هدد المعبود الآرامي الرئيسي .. واضحت ياحان التي ورثت يمحاض القديمة جزءا من مملكة آرامية كبيرة بزعامة اسرة ارامية حاكمة هي بيت أجوشي التي جعلت معاقلها في أرفاد (تل رفاد) وأعزاز . وقد قامت هذه المملكة الآرامية في شمال سورية في القرن الثامن بدور يماثل في الاهمية الدور الذي قامت به مملكة آرام دمشق في سورية الوسطى والجنوب سياسيا واقتصاديا .

وقد رافق هذا التغيير العنيف للخارطة السياسية للمنطقة بدء مرحلة انتقالية على الصعيد الثقافي واللغوي بخاصة . فزوال الامبراطورية الحثية من الوجود لم يكن ليعني زوال الحضارة الحثية ، فلقد استمر التأثير الثقافي للغة الحثية وللفن الحثي على طول شريط سفوح طوروس ومناطق سورية الشمالية . ويلاحظ غورني بحذر انه يمكن ان نميز خطا مفترضا مارا بجبال طوروس وجبال أمانوس ، تبرز السمات الحضارية الحثية في شماله بينما تبرز ملامح ثقافية ولغوية عربية سامية في جنوبه . ولكن ينبغي ان نلاحظ انه ليس من الحكمة تبسيط الامور وصبها في قالب شكلي جازم على هذه الصورة ، لان التبادل الثقافي لغويا وفنيا واجتماعيا كان عميقا ومتنوعا تبدو آثاره في الآثار المكتوبة وفي العمارة والطقوس واللباس والحياة المنزلية . ولعل أهم مراكز التلاقي والتفاعل الحضاريين في تلك الفترة مملكة كركميش (جرابلس على الفرات) التي كانت تمثل بقية الامبراطورية الحثية في الوسط الآرامي المتعاظم الى جانب مراكز اخرى اقل أهمية مثل مرعش (شمال أرفاد) وكوموخوعلى الضفة اليمنى للفرات (وهي كوماجين الكلاسيكية) .

وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان التغيير لم يقتصر على سورية الشمالية ، لان مناطق سورية الجنوبية وفلسطين تعرضت بدورهاالى تغيير مماثل نجم عن الضعف الذي أصاب مصر نتيجة للهزات الداخلية التي مرت بها زمن الاسرة العشرين وللغزوات المتلاحقة التي قامت بها « شعرب البحر » لاراضي الامبراطورية الفرعونية على الساحل الكنعاني الجنوبي وبرقة حتى انها اخترقت اراضي مصر نفسها الى دلتا النيل . لكن رعمسيس الثالث (١١٩٧ — ١١٦٥) تمكن من احتواء الخطر واستطاعت مصر ان تنجو ، لكن وضعها الدولي تضعضع ،ونفوذها تراجع عن ارض كنعان المنقسمة ، فسقطت هذه البلاد في خضم صراع بين شعوبها وقبائلها التي تنازعت على السيطرة فيها . وانتهى الامر الى تاسيس مملكة على راسها داود الذي اورث ملكه لابنه سليمان (القرن العاشر ق.م) . الا ان هذه المملكة ، حتى في ذروة قوتها وفي اقصى درجات اتساعها . لم تزد عن كونها قوة اقليمية محلية لم تستطع ابدأ ان توازي في اهميتها القوى الدولية التي سادت المنطقة في المرحلة السابقة(٥) . وهكذا فان الفراغ الذي تشكل فيما بين الفرات والبحر المتوسط جذب القوى المتحركة الحديثة في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وفي طليعتها **الآراميون والآشوريون .**

لقد كان لابد من نشوب صراع مرير وطويل بين العناصر القادمة الجديدة وبين العناصر القديمة ،استغرق قرابة القرنين، وبدات ملامح نهايته في اواخر الالف الثاني ق.م عندما أخذت سورية تسترد شيئا فشيئا اسس الاستقرار السياسي والاقتصادي مع تاسيس الاسرات الحاكمة وتكوين الدول الآرامية في المنطقة على أيدي زعماء

القبائل العربية البدوية الآرامية الذين تحركوا من بادية الشام وانداحوا بعشائرهم نحو مراكز المعمورة والحضارة سواء في وادي الفرات أم في سورية الشمالية والوسطى.

وعلى الرغم من هذا التبدل الكبير في الخارطة السياسية لسورية في تلك الفترة من مطلع الالف الاول ق.م ، فان المصطلحات الجغرافية القديمة(٦) بقيت هي الدارجة في الحوليات الآشورية الرسمية وفي النصوص التاريخية من العهد القديم . فاصطلاح « بلاد حاتي » بقي يتردد في هذه المصادر ليدل على مناطق من سورية العليا على سفوح طوروس وسورية الشمالية وعلى الاخص مملكة كركميش (جرابلس) وحطينا (شمالي حوض العمق) . كما يتردد اصطلاح « بلاد حاتي الكبرى » ليشمل ميليد (ملاطية) ، وطابال وخيلاكو (كيليكية)، وجرجم (مرعشس) التي تلامس حدودها الشمالة حدود مملكة بيت أجوشي الآرامية القوية في ارفاد (تل رفاد).

وينبغي هنا ان نشير بوضوح الى ان وصف هذه المناطق بالحثية ليس لـه اي معنى إثني فهو لا يعني ان السكان كانوا حثيين او ان الحضارة حثية. فليس للاصطلاح سوى قيمة جغرافية اقليمية لان الشعوب كانت مختلطة في هذه المنطقة وهي من اصول حورية وحثية وامورية وآرامية .

وهكذا حل الانقسام والتعدد محل الوحدة السياسية التي تمثلت بالامبراطورية الحثية الى حين سقوطها . ولم تستطع هذه الدول الصغيرة الجديدة سد الفـراغ السياسي والعسكري الناجم عن التغيير في خارطة المنطقة ، وكان لابـد من احـلال توازن دولي جديد محل التوازن المنهار بسقوط القوى القديمة او بتراجعها . وهكـذا اتاح الوضع الجديد الفرصة لظهور القوى الدولية الجديدة على مسرح الاحداث ممثلة بالدولة الآشورية والحلف الآرامي ، يضاف اليها مملكة اورارتو (أرمينية) التي تزايدت أهميتها واقتربت من مسرح الصراع في شمال سورية خلال النصف الاول من القـرن الثامن . وقد كانت أشور من بين هذه القوى الدولية كلها هي الاهم ، على الرغم مـن المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهتها ، واكثر عوامل الاستقرار شانا في المنطقة. وذلك خلال مدة طويلة امتدت من القرن الثاني عشر الى اواخر القرن السابع . ولـم يكن بوسع اورارتو منافستها بالدرجة نفسها من القوة والفعالية ، بسبب من موقعها البعيد جغرافيا من جهة والغريب حضاريا من جهة أخرى . اما الآراميون فقد كانـوا يملكون من عناصر القدرة على الصراع ما مكنهم من الصمود طويلا ، ومن فرض ثقافتهم ولغتهم اخيرا ، رغم سقوط دولهم . اما وراء جبال زاغروس فقد اخذت القبائل التي كانت تظهر في لمحات خاطفة خلال المراحل السابقة ، كالغوتيين والكاشيين، تتحد لتكون دولا قوية في شمال ايران وجنوبها أهمها مملكة الميدين والفرس .

إننا سنتتبع فيما يلي هذا الدور **الآرامي سياسيا واقتصاديا في مناطق سورية الشمالية** نظرا لطبيعة هذا الدور الذي تميز بمواجهة التوسع الآشوري . ولن نتعرض في هذا البحث الى الدور الارامي في الجنوب ، وهو الدور الذي تميز بمواجهة التوسع العبراني وبفرض العامل الآرامي في سورية الوسطى وفلسطين عسكريا واقتصاديا ولغويا لان لهذا الموضوع مجال اخر سنتناوله في فرصة اخرى .

٢ ـ الدول الآرامية عامل سياسي في المشرق القديم وسورية الشمالية :

الى جانب هجمات « شعوب البحر » نحو بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، يشكل تحرك القبائل الآرامية من شمال الجزيرة العربية وبادية الشام نحو حوض الفرات وبلاد الشام العامل الاخر المهم في تاريخ المشرق العربي القديم كله منذ القرن الثالث عشر ق.م .

وترجع بدايات الموجة الآرامية الى اواسط الالف الثاني ق.م عندما اخذت قبائل بدوية آرامية تتحرك وباعداد كبيرة ، نحو حوض الفرات واراضي الجزيرة وسهول سورية الداخلية كما فعلت موجات سابقة كالاموريين قبل ذلك بالف عام تقريبا (٢٣٠٠ ق.م) . لكن الانتشار الآرامي كان اقوى واعم واشد رسوخا ، ومتصلا ، ولذا كانت آثاره الديموغرافية والسياسية والحضارية ، الثقافية والاقتصادية ، كبيرة جدا .

فقد أخذت الدويلات التي كانت منضوية في نطاق الامبراطورية الحثية السابقة تتساقط في ايدي بيوت حاكمة آرامية . فتكونت مملكة بيت عديني حول العاصمة تل برسيب في وادي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . واقام بيت حباري ، مملكة شمأل ، محل يؤوديا . اما حلب التي كانت مركز مملكة ياحان فقد حلت فيها أسرة حاكمة آرامية قوية هي بيت جوشي التي اتخذت من ارفاد قاعدة لها .

اننا لا يمكن ان نعرف كيف وقع هذا التغيير بالتفصيل ، فالمصادر لا تقدم لنا سوى معلومات محدودة ومجزوءة . ولاسبيل الى تفهم الظروف التي أحاطت بالأحداث التي وقعت في مطالع الالف الاول ق.م الا بالعودة الى ما كان يجري في الالف الثاني عندما كانت تتوغل القبائل البدوية العربية القديمة (الامورية والآرامية) في اراضي بلاد الشام والجزيرة وحوض الفرات متتبعة خطى تحركات اسبق بنفس الاتجاه (٧) . ويتقدم ج بوتشلاتي (١٩٦٦) بفرضية تقول ان اصول الاموريين ترجع الى بادية الشام والى منطقة جبل بشري بخاصة . وهو يربط بين حركات هذه القبائل وبين تحركات الاخلامو الآراميين ، ومنهم السوتيون ، في أواخر الالف الثاني ، ويعتبر الاستيطان

الارامي متمما للاستيطان الاموري القديم الذي كشفت حفريات تل مرديخ (إبلا) عن مدى اهميته . أن تتبع مجريات التطورات تجعل نظرية بوتشللاتي مقبولة ولكن ينبغي ان نلاحظ انها لم تكن جديدة تماما ، الا انها تلخص المعطيات السابقة وتربط فيما بينها(٨) . فقد سبق ن. شنايدر (١٩٤٩) الى القول بوجود عناصر آرامية في عصر مبكر يرقى الى الزمن السومري الاخير ، عصر اور الثالثة (٢٠٠٠ ق.م) ودرس **كوبر** في كتابه الهام عن « البدو في ضوء وثائق ماري » (١٩٥٧) تحركات القبائل البدوية ومراحل استيطانها في وادي الفرات منذ مطالع الالف الثاني ق.م . وطرح ليفراني (١٩٦٢) مسألة وجود عناصر آرامية في مملكة أوجاريت . وفي ضوء هذه الدراسات كلها يمكن التأكيد دون تردد مع أ. **دوبون ـ سومر** (١٩٥٣) ان بدايات التاريخ الآرامي ترقى الى زمن أبعد من الزمن التي قامت فيه الدول الارامية المعروفة في مناطق كثيرة من سورية وحوض الرافدين .

وقد توصل الآراميون بالتدريج الى السيطرة على المناطق الواقعة غربي الفرات ومناطق الجزيرة الواقعة بين الخابور والفرات (آرام النهرين) ، ثم نجحوا في شق طريقهم في اتجاهات متعددة نحو بابل ونحو شمال سورية وجنوبها .

وإذا ما أردنا ان نعيد تكوين تطور الاحداث في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا فاننا نجد مثالا على ذلك في تصورنا لتقدم القبائل الآرامية من مناطق سفوح جبل بشري الذي كان يعتبر معقلها الاول باتجاه ضفاف الفرات شمالا نحو ارفاد واعزاز ، وغربا نحو حوض نهر قويق (الجاف حاليا) ، ومنطقة نوحاسه التي يرد ذكرها في المصادر المصرية وهي لعش في المصادر الآرامية(٩) . ومركزها الطبيعي والاقتصادي والحضاري مدينة حلب نفسها عاصمة يمحاض الامورية وياحان الحثية (١٠) . وتتضح من طبيعة هذا التحرك واتجاهه الدوافع الاقتصادية من أجل السيطرة على طرق القوافل والتجارة ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط وما بين الاناضول والجنوب ، أي نحو بلاد جزيرة العرب ومصر ، وهي طرق تمر كلها في منطقة حلب .

ويجد الباحثون اصداء هذه الاحداث وما سببته من اضطراب لحبل الامن في الوثائق الرسمية الحثية والاشورية . فالملك الحثي حاتوشيلي الثالث (١٢٨٣ ـ ١٢٦٠) يعبر عن قلقه من تحركات قبائل الأخلامو التي اضرت بسلامة المواصلات مع بلاد بابل . كما شكل هؤلاء الاخلامو أنفسهم ، وهم الذين يرد ذكرهم الى جانب الآراميين في أقدم الوثائق المعروفة ، خطرا كبيرا اقضّ مضاجع الأشوريين في المرحلة التي نهضوا فيها لاحتلال موقعهم الفذ في تاريخ المنطقة بعد الفراغ الذي خلفه الانهيار الحثي المفاجيء في مطلع القرن الثاني عشر .

وقد ظهرت أقدم اشارة تاريخية الى الغزاة الآراميين في حوليات تكلات فلاصر الاول (أواخر القرن الثاني عشر) ملك أشور بصيغة (آرامايا) ولكن ذكرهم بقي مقرونا باسم (**الاخلامو**) الذين استطاعوا قبل ذلك اختراق حدود بلاد آشور وعملوا على اضطراب حبل الامن فيها زمن الملك اريك ــ دين ــ إيلي (اواخر القرن الرابع عشر) . واهتم عدد من الباحثين في بدايات التاريخ الارامي بمعاني التسميات القديمة التي اطلقت على أجيال الآراميين الاولى من أجل فهم الصلات فيما بينها والروابط القبلية والاجتماعية فيها . ومن بين هؤلاء الباحثين ر.ت. أو كلاّغان الذي وجد في اصطلاح أخلامو معنى (صديق أو رفيق) بالعودة الى جذر (خلم) في معاجم اللغات السامية ومنها العربية . ففي العربية، الخِلم : الصديق الخالص ، والجمع أخلام ، وخلماء ، وهم الاصحاب ، والاخلام ايضامرابض الغنم(١١) . ولكن س.موسكاتي ينتقد هذه النظرية واساسها اللغوي وينتهي الى ان أخلامو علم على قبيلة او مجموعة من القبائل البدوية المتحالفة .

أما اذا اعتبرنا ان لاصطلاح أخلامو صلة بالجذر (حلم) فأصل مدلول الكلمة يمكن ان يشير عندئذ الى معان أخرى نجدها في المعجم الآرامي والعبري ، مثل القوة والبأس(١٢) ، وما يضادها في العربية مثل الاناة والعقل ، فأولو الاحلام والنهى هم ذوو الالباب والعقول ، وعند ابن سيدة ، الاحلام : الاجسام(١٣) . فأحلامو ارمايا يمكن ان تعنى إذن : أحلاف الآراميين ، أو شيوخ الآراميين وحلماؤهم . ومهما يكن ، فقد ورد ذكر تغلغل عناصر من الاخلامو الى بابل في اواسط الالف الثاني حتى وصل بعضهم الى شواطىء شرقي الجزيرة العربية (ديلمون) والى مناطق من الفرات والجزيرة كما يؤكد جاريللي . وقد بقي الاصطلاح المزدوج أحلامو ــ ارمايا واردا في المصادر الاشورية في عصر اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩) . الى ان تغلب الاصطلاح ارمايا الدال على الاراميين على الاصطلاح الاخر اخلامو ، ولكن هذا الاسم لم يزل من الاستخدام حتى عصر سنحريب (القرن السابع ق.م) . فاضحى كلا الاصطلاحين مترادفين ، ولكن لايوجد في المصادر ما يمكن ان يثبت ان الامر كان كذلك في القرنين الثاني عشر والحادي عشر .

وكما اثارت كلمة أخلامو اهتمام الباحثين اللغويين والمؤرخين ، فان اسم الاراميين يرقى الى زمن ابعد بكثير من الزمن الذي شغل فيه الآراميون دورا خطيرا في تاريخ المنطقة (خلال الالف الاول ق.م) . فقد قيل ان اقدم اشارة الى اسم آرام تعود الى القرن الثالث والعشرين ق.م ، في وثيقة يعلن فيها نرام ــ سين الملك الاكادي العظيم انتصاره على هرشمتكي (هرشمه = هرثمة ؟) وهو سيد آرام وعم .ولا ادري لماذا تردد الاستاذ فرانسوا تورو ــ دانجان في قبول الصلة بين اسم آرام في هذا النص

القديم وبين الآراميين(١٤) ، ما دام هذا الاسم يرتبط باسم قبائل عم" . وهي قبائل عربية كثيرا ما أشير اليها في عين المرحلة التاريخية في المصادر الفرعونية المصرية عندما كانت تذكر قبائل عمو" في بلاد الشام وسيناء والصحراء الشرقية(١٥) . وهي قبائل كانت بصورة ما تمت بصلات القربى الى أجيال الاموريين أو العموريين .

وبالاضافة الى ذلك يرد ذكر كلمة آرام (ارام — كي) في وثائق رافدية تعود الى عصر اور الثالثة (اواخر الالف الثالث) ، وفي وثائق تجارية تعود الى حوالي ٢٠٠٠ ق.م كما يرد ارام في اسم علم في نص من نصوص ماري من عصر زمري —ليم ملك ماري(١٦) .

ومهما يكن ، فان هذه المؤشرات جميعا ان لم تؤكد ان الأخلامو هم الاجيال الاقدم من الآراميين ، فان المصادر الاشورية ربطت مابين الاخلامو والآراميين لوجود تشابه اجتماعي وثقافي مابين هؤلاء جميعا ، كما لاحظ لاول مرة برنكمان(١٧) . وإننا نستطيع ان نؤكد بدورنا انه يصعب علينا الفصل فيما بين هذه الشعوب البدوية العربية التي كانت تمت جميعا الى ارومة واحدة وترجع الى اصول واحدة مهما تعددت الاسماء التي اطلقت عليها من قبل الحضر المقيمين ، سواء أكانت من الاموريين (الالف الثالث) ، أم من الأخلامو والآراميين (الالف الثاني ق.م) . وقد تفهم هذه الحقيقة الاستاذ كوبر بوضوح وشرحها فيما يلي : « كانت حركة البدو نحو مناطق العمران والحضر متصلة ومستمرة . وانه لمن الصعب التمييز بين هذه العشائر او تلك لانها تنحدر من اصل واحد وتتكلم لهجات متقاربة .أما القبيلة الاكثر عددا والاشد بأسا فهي التي كانت تفرض اسمها دون غيرها . وربما يكون ذلك لمجرد الصدفة، او لما ينشأ من علاقات وثيقة بين بعض القبائل البدوية وبين سكان المدن والحضر الذين كانوا يتعاملون معها » (١٨) .

وهكذا يمكن ان نقول ان الانتشار الآرامي الواسع تكرر على الارض التي انتشر عليها الاموريون قبل ذلك باكثر من الف عام . ولكن نجاح الانتشار الآرامي كان حاسما، لما تميز به من كثافة وقوة وبراعة في اختيار نقاط الارتكاز والاستقرار ، وبخاصة في المنطقة التي تعتبر الجسر الاستراتيجي الممتاز ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط ، حيث فرض الآراميون اسمهم على طريق آرام او حقل آرام (فد"ان آرام) ، وعلى ارض الجزيرة التي عرفت باسم آرام النهرين (آرام نهرايم) . ولم يقتصر انتشار الآراميين على شمال سورية ووادي الرافدين فقد امتد كما هو معروف الى كل مناطق سورية الداخلية والوسطى وبخاصة مناطق البقاع ودمشق والجولان وشمال وادي الاردن .

كان على حركة الانتشار الآرامي هذه ان تواجه في آن واحد تحديين اثنين. فمن الشمال والشرق كانت مملكة اشور ، التي تكونت نواتها الاولى في منطقة تقع عند التقاء نهر الزاب بنهر دجلة ، هي التي وقفت في وجه التوسع الآرامي وعملت على احتوائه في صراع طويل استمر عدة قرون . اما في الجنوب فقد اصطدم الانتشار الارامي بحركات الشعوب والقبائل المتنازعة على الاستيطان في أرض كنعان ووادي الاردن ، واهم هذه الحركات هي التي ادت الى استيطان قبائل عبرية في بعض مناطق من كنعان وتكوين مملكة على انقاض الممالك الكنعانية المتداعية بعد صراع طويل كان للحلف الارامي بزعامة مملكة آرام دمشق الدور الاكثر أهمية فيه من القرن العاشر الى القرن الثامن ٧٣٢ ق.م .

لم يستطع الآراميون أن يحققوا انتصارا حاسما على آشور وان استطاعوا أن يشكلوا خطرا مهددا لها في بعض المراحل ، كما حدث في القرن الثاني عشر قبل ان ينجح تكلات فلاصر الاول في دحرهم الى ما وراء الفرات . كما استطاعوا ان يمنعوا شلمناصر الثالث في معركة قرقر على العاصي (القرن التاسع) من تحقيق ما كان يرمي اليه من حملته التي قادها بنفسه واضطر الى التوقف عند ميدان المعركة ثم الى الانسحاب . ولكن الدول الآرامية والدول الاخرى في كنعان وفلسطين تداعت كلها امام الجملات العسكرية المتعاقبة للفاتح الاشوري تكلات فلاصر الثالث وخلفائه (القرن الثامن) ، الذي تمكن من القضاء على اكبر دولتين آراميتين : بيت أجوشي في ٧٤٠ ، ودمشق في ٧٣٢ ق.م .

ولئن لم ينجح الآراميون سياسيا في تكوين وحدة سياسية فانهم نجحوا في تكوين دول وممالك قامت بدور هام سياسيا واقتصاديا خلال النصف الاول من الالف الاول ق.م . وتمكنت في بعض الفترات وفي ظروف حرجة مرت بها المنطقة من تكوين أحلاف آرامية قوية بزت في أهميتها العسكرية والسياسية الدولة الآشورية نفسها ، كما فعلت أرفاد (منطقة حلب) ودمشق .

أما الاثر الاكبر للدور الارامي في تاريخ المنطقة فهو دون شك النجاح في **نشر اللغة الآرامية** التي اضحت لغة متداولة ومعروفة في كل وادي الرافدين وبلاد الشام منذ القرن التاسع ، واضحت لغة رسمية ثانية الى جانب الاشورية التي كانت تكتب بالسمارية في الديوان الاشوري نفسه(١٩) ، الى حد ان الدولة الاشورية نفسها اضحت سكانيا وثقافيا بل واداريا بعد تكلات فلاصر الثالث دولة مزدوجة الجنسية ، اشورية ـ آرامية ، كما يؤكد دوران ولومير(٢٠) .

***

لنحاول بعد هذه النظرة المجملة الى الدور التاريخي للآراميين في سورية الشمالية، ان نوضح بشيء من التفصيل **أهمية هذه الدول الآرامية سياسيا في المدة الواقعة مابين** القرنين الحادي عشر والثامن ق.م.

لقد ادى احتلال الآراميين للنقاط الاستراتيجية الهامة على طرق الموصلات في غربي الفرات، أي بلاد أمورو وفي سورية الشمالية، الى تمكينهم من بسط سيادتهم على المنطقة بصفة مطلقة. فقد استقروا بقوة على ضفتي الفرات عند المنعطف الكبير حيث قامت مملكة بيت عديني، وفي وادي الخابور حيث قامت مملكة بيت بخياني على انقاض غوزانا الحثية (تل خلف). ولم يكن نجاح التغلغل الآرامي في الفرات الاوسط أقل أهمية مما حدث في وادي الفرات الاعلى. فقد اضحى الوزن الديموغرافي والسياسي للاراميين حول بابل من القوة لدرجة انه مكن زعيما آراميا من احتلال عرش بابل وهو (أدد ـ ابال ـ ادينا)، (١٠٦٧ ـ ١٠٤٦)(٢١)، بينما كانت قبائل آرامية اخرى تستوطن وتستقر على نطاق واسع في منطقة غوطة دمشق والبقاع ووادي الاردن الاعلى وبخاصة في جبال الجليل وسفوح حرمون وهضبة الجولان وبدأت تتكون حول آرام دمشق قوة آرامية عسكرية وسياسية استطاعت ان توقف التوسع العبراني في بداية القرن التاسع وان تمد نفوذ الدولة الآرامية الى حدود مملكة بيت اجوشي الآرامية الاخرى في الشمال، كمايستدل من نصيب برهدد المكرس لملقرت والذي عثر عليه في موقع البريج(٢٢). واننا يمكن ان نجد من المؤشرات ما يؤكد وجود شعور بالقربى والانتماء القبلي المشترك ما بين هذه الدول الارامية. أو لم يتوجه ملك صوبة (البقاع) الى مناطق الفرات مستنجدا، ساعيا الى طلب العون والايد من أجل التصدي لحملات وهجمات الملك داود. ولكن الم ينشب ايضا وبالمقابل ذلك الصراع المرير ما بين ملك آرام دمشق وحلفائه من آرام والساحل الفينيقي من جهة، وبين زكر ملك حماة ولعش من جهة اخرى، بسبب النزاع على زعامة العالم الآرامي، وهو الصراع الذي خلد ذكره في وثيقة مشهورة من أواخر القرن التاسع (٢٣). كان برجوش ملك أرفاد الحليف الاول لملك دمشق برهدد بن حزئيل في هذا الصراع كما وقف الى جانبه فيه ملك قوة (كيليكية) والعمق وجرجم وشمأل وميليد (ملاطية) وآخرون.. ولم ينته الصراع الداخلي الى نتيجة حاسمة لانه كان على الحلف الارامي ان يواجه خطرا أكبر هو تحرك الملك الاشوري ادد نيراري الثالث نحو سورية عبر الفرات في ٨٠٥ ق.م.

ان موقع الملك برجوش في هذا التحالف الآرامي السوري الكبير يبرز لنا أهمية مكانة مملكة ارفاد في شمال سورية، بمقابل الاهمية التي تميزت بها مملكة آرام دمشق في الوسط والجنوب. ولربما عرفت دمشق بدورها هذا للدور الذي سجل لها في

الاسفار التاريخية من العهد القديم . ولكن الدور الذي قامت به ارفاد وحلب في الشمال لم يكن اقل اهمية ، كما تدل على ذلك الوثائق الآرامية على انصاب سفيرة (القرن الثامن) .. وتدل الوثائق التي تبرز فيها مملكة ارفاد طرفا في حلف سياسي مع برجاية ملك « كتك » ضد طرف ثالث على ان لارفاد تاريخا طويلا يرقى الى ما قبل القرن الثامن . ويمكن ان يعتبر وريثا لدور مملكة حلب الامورية وياحان الحثية(٢٤) .

لقد فرض الآراميون انفسهم ، على الرغم من انقسامهم ، عاملا رئيسيا في الصراع السياسي ـ العسكري الطويل الذي امتد قرونا (القرن الثاني عشر ـ القرن الثامن)، وقامت فيه دمشق بزعامة ملوكها ، وبخاصة برهدد وحزائيل ،وارفاد بزعامة برجوش ومتع إل ، بدور بارز كان من المكن ان يؤدي الى قيام اتحاد آرامي حقيقي يضم آرام العليا وآرام السفلى . اي آرام الشمالية وآرام الجنوبية . ولكن الجهود الآرامية والسياسية آلت اخيرا الى الاخفاق واحبطت كل محاولات الاتحاد امام هجمات الآشوريين المنهكة .

ولكن رغم هذا الاخفاق سياسيا فان الآراميين برهنوا ، مع ذلك ، على قدراتهم المبدعة وعلى فعالية امكاناتهم على الصعيدين الاقتصادي واللغوي .

٣ ـ الآراميون عامل اقتصادي في المنطقة :

كان لظهور الآراميين على مسرح المشرق العربي القديم نتائج هامة على الوضع الاقتصادي للمنطقة التي كانت تمر آنذاك في مرحلة تغيير جذري .. فبعد فترة من الاضطراب والعنف ساد المنطقة جو من الاستقرار ساعد على استرداد الفعاليات الاقتصادية نشاطها السابق ، في وقت تميز بتطور تقني هام في تاريخ الحضارة العام وهو **التوسع في استخدام الحديد** في الصناعة وتقلص صناعة البرونز ، مما كان مؤشرا على دخول الشرق الادنى في **عصر الحديد** (اواخر الالف الثاني ق.م) . ورافق ذلك تطور في المواصلات كانت له انعكاساته على الصعيد العسكري أيضا ، وتميز كذلك باستخدام الخيل على نطاق واسع وما يتصل بذلك من تطور صنع العربات وكل ما يتعلق بها من التقنيات بالاضافة الى ازدياد اهمية حرفة سائس الخيل والفرسان(٢٥).. وفي مثل هذه الظروف التاريخية التي تعتبر من اهم مراحل تطور تاريخ المنطقة كان الآراميون الوافدون من البوادي يجدون الابواب مفتوحة امامهم على مصاريعها للعمل في الحرف والمهن وفي التجارة والجيش .

ومن المعروف ان لسورية تاريخا عريقا في التجارة والاقتصاد يرقى الى ما قبل العصر الارامي بقرون . ولمنطقة حلب مكانة خاصة في هذا المضمار بكونها الجسر الطبيعي

للاتصال ما بين وادي الفرات والحوض الشرقي للمتوسط .. فكل الطرق في سورية الشمالية تؤدي عبر طرق الامانوس الى آسية الصغرى او عبر حوض العمق الى موانيء البحر المتوسط ، الى اوجاريت وارواد وجبيل وغيرها ، ومنها موانيء كانت لها فعالية تجارية مرموقة منذ عصر ابلا في الالف الثالث ومنذ تاسيس اقدم العلاقات التجارية عن طريق البحر ما بين مصر والساحل الكنعاني ـ الفينيقي(٢٦) . وقد تطورت هذه الفعالية واحتفظت بعض الموانيء بأهميتها ، أو ظهرت موانيء اخرى خلال الالف الاول، مثل عرقة وسيميرا والمينا الواقعة مقابل اوجاريت .

وقد استطاع الآراميون الذين أضحوا سادة سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م . ان يفرضوا لانفسهم مركزا متفوقا على الصعيد الاقتصادي والتجاري ، خاصة في منطقة المشرق القديم ، بعد ان وطدوا اقدامهم عند مفارق الطرق وعند المحطات الاساسية لطرق المواصلات التقليدية وبخاصة مابين الاناضول ومناطق آسية الصغرى من جهة وسورية والرافدين من جهة اخرى . وقد وضح اهمية هذا الدور كل من ج ماكوين و ج ملارت في دراساتهما القيمة(٢٧) . وقد ابرزا فيها مقدار ما تحقق في سورية من ثراء وغنى وعمران مما جعلها مطمعا للغزاة والطامعين . وقد كانت مملكة أشور على راس هذه القوى المجاورة الطامعة بثروات سورية ، ولم تكن لترضى ان تفيد منها ببناء علاقات تجارية منظمة ، فقد بنت سياستها الاستراتيجية تجاه سورية المنقسمة والغنية على اساس من التوسع والتفوق بالاستناد الى الاداة العسكرية الساحقة التي كان يتمتع بها الجيش الاشوري . وقد اضحت هذه السياسة التوسعية الآشورية تجاه كل بلاد امورو وآرام الواقعة غربي الفرات وحتى البحر المتوسط سياسة تقليدية ما بين القرنين التاسع والسادس ، أي مذ أشور ناصر پال وحتى سقوط اشور على ايدي التحالف الميدي ـ الكلداني ، وكان هدفها الاساسي فرض السيطرة المباشرة على اقتصاد البلاد واعتباره مصدرا اساسيا لحاجات الحياة اليومية في المدن الاشورية عامة وفي البلاط الملكي وقصور الطبقة الحاكمة خاصة . وقد ورث هذه السياسة فيما بعد ملوك بابل الكلدانيون ، ثم الملوك الفرس الاخمينيون .. ومن الجدير بالذكر ان لاشور تقاليد عريقة في بناء سياستها الاقتصادية على اساس الاستغلال في مناطق خارجية وبعيدة ، كما تشهد بذلك دراسة فعالية المستعمرات الاشورية في كابا دوكية منذ اوائل الالف الثاني ق.م ، وقد كشف عن بنيات هذه السياسة بوضوح الاستاذ ب. جاريللي في دراسته الرائعة عن الاشوريين في كابادوكية(٢٨) .

وبعد ان تحقق لاشور السيطرة على معابر الفرات الرئيسية اثر نزاع طويل منذ عصر تكلات فلاصر الاول (أواخر القرن الثاني عشر) الى عصر اشور ناصر پال الثاني

(اوائل القرن التاسع) ، وبعد ان اضحت الضفة اليمنى للنهر بيد اشور بعـد انهيار مملكة بيت عديني الارامية ، دار الصراع حول مناطق سورية الشمالية والمعابر والطرق المؤدية الى شواطىء المتوسط .. في تلك المرحلة كانت مصر بعيدة تماما عن الساحة لما كان يكتنفها من ضعف وانقسامات داخلية وصراع على السلطة المركزية بـين الاسرات الحاكمة في وادي النيل (الاسرات ٢١ ــ ٢٤) . أما آسية الصغرى فلم تظهر فيها قوة كبرى هامة منذ سقوط الامبراطورية الحثية في القرن الثاني عشر حتى ظهور الفريجيين في غرب آسية الصغرى في القرن الثامن ق.م . ولذلك فقد بقيت الساحة خالية تقريبا امام التحركات العسكرية الاشورية التي اضحت تحركات موسمية للغزو وجمع الغنائم والمحاصيل وفرض الغرامات كلما كان الظرف مناسبا وكلما ازداد الانقسام في العالم الآرامي . ولم تتدخل لمنافسة اشور سوى دولة واحدة هي مملكة اورارتو التي برزت في مرحلة محدودة خلال النصف الاول من القرن الثامن ، عندما توسعت هذه الدولة من مركزها الاساسي حول بحيرة وان (ارمينية)نحو الغرب وسفوح طوروس الجنوبية باتجاه الممالك الآرامية الشمالية وبخاصة مملكة بيت اجوشي في ارفاد . ومن النافل ان نؤكد ان الدافع الاساسي لهذا التدخل هو سعي كل من اورارتو وأشـور ، وهمـا كلتاهما دولتان داخليتان ، الى الوصول الى البحر المتوسط ..

ومن اهم الدراسات الحديثة حول السياسة الاقتصاديةالاشورية دراسة الباحثة السوفياتية **ن.ب. يانكوفسكا**(٢٩) التي وجهت الانتباه بصفة خاصة الى تنوع العلاقات ما بين آشور والاقطار الاخرى ، ومنها بلاد آرام ، بصورة تتناسب مع اختلاف شروط الانتاج في كل منها وحاجة الدولـة الاشوريـة لهذا الانتاج . ويوضـح لنـا اختلاف المصطلحات المستخدمة في اختلاف نوعية هذه العلاقات وقيمها القانونية .. فهنـاك الضريبة التي تكون بالواقع غرامة مفروضة (بالاكادية : **بيلتو**) ، والتقدمات او الهبات التي يتوجب على المغلوبين تقديمها للملك ورجاله من القادة والحكام (وهي بالاكادية **مانداتو** ، من الفعل نادانو : اعطى . وفي العربية الندى الكرم والعطاء) . وهناكالغنائم التي تعقب الحروب مباشرة . تلاحظ يانكوفسكا ان التشابه واضح في المواد التي يرد ذكرها سواء في قوائم الغرامات أم في قوائم الغنائم التي يحرزها الجيش الاشـوري في اعقاب تحركاته . فمهما تعددت الصيغ القانونية او الرسمية فان ما كان يهم الدولـة الاشورية هو الحصول على الانتاج المطلوب من اقتصاد المناطق المفتوحة ، او المغلوبة . ولا تتيح دراسة قوائم الغرامات والغنائم والاسلاب معرفـة مصدر المـواد التي تـم الاستيلاء او الحصول عليها انكانت من صنع محلي في سورية او مستوردة .. اماالمعدن المستخدم للدفع او لتسديد القيمة فهو الفضة على الاغلب والقصدير والنحاس . ولم يستخدم الذهب كمادة نقدية الا في زمن متاخر وعلى الاغلب في القرن السابـع بعـد الاقتراب من مصر وازدياد التعامل معها .

٤ ـ اقتصاد الدول الآرامية ، ((أرفاد)) نموذجا :

بعد هذه النظرة الشاملة على دور الاقتصاد السوري في العصر الارامي القديم وأهميته في اقتصاد الدولة الاشورية وسياستها التوسعية ، يمكن ان نتعرف على نموذج لبنية هذا الاقتصاد الارامي ومقوماته من خلال العلاقة ما بين دولة ارامية هامة هي مملكة ارباد (ارفاد) وبين مملكة اشور . وتستند هذه الدراسة الى ما تقدمه لنا معطيات التنقيبات الاثرية في موقع تل رفاد (تل رفعت) في شمال سورية، بالاضافة الى مايستخلص من الحوليات الملكية الاشورية التي تعود الى الفترة الواقعة في القرنين التاسع والثامن ق.م .

فقد اظهرت نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثة البريطانية بقيادة سيتون وليامس وجود بقايا اثار من أوان نحاسية يرجح ان يكون مصدرها من اورارتو . وقد ربطت سيتون وليامس بين وجود اشياء من هذا النوع في تلك الفترة وبين الظروف الدوليةالتي اتاحت الفرصةفي فترة ما لنموالعلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة اورارتو على عهد ملكها ساردور الثالث وبين مملكةارفاد على عهد ملكها متع إل خلال القرن الثامن(٣٠) . على ان مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين ما هي الا مرحلة في تاريخ العلاقات التي لم تنقطع منذ اقدم العصور بين اقطار الاناضول وما وراءطوروس وبين دول الجزيرة وسورية الشمالية منذ عصر تل حلف في الالف الخامس ق.م .

وقد عثر في هذه السوية من سويات التنقيب (خلال موسم ١٩٦٠) ، على بقايا قطع من مرآة على قاعدة من الجص . واشياء مصنوعة من الحديد وسكين بقرابها. وكسرة من آنية غرانيتية عليها كتابة آرامية ، واشياء اخرى برونزية واسلحة من البرونز والحديد ولكنها بحالة سيئة . ويعتبر وجود هذه الاثار المعدنية دليلا ماديا على المرحلة الانتقالية التي كان يمر بها التطور التقني في المنطقة من العصر البرونزي الاخير الى عصر الحديد .

اما**الفخار** الذي وجد في هذه السوية فلا يزيد على كسرات صغيرة جدا من النوع الذي عثر عليه في موقع المينا (السوية ٨) ومجدو (السوية ٥-٤) وفي حماه . بالاضافة الى ذلك عثر على لقى واشياء وكسرات فخارية قبرصية واغريقية تعود الى القرنين الثامن والسابع ق.م،، وجد اكثرها في غرفة من السوية الثانية (ب)، بالاضافة الى بعض الحلي وادوات الزينة .وتدل هذه المؤشرات جميعاعلى وجودعلاقات تجارية واسعة مع مناطق داخلية من آسية الصغرى ومع مناطق واسعة من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما يؤكد على الاهمية التجارية والاقتصادية لموقع ارفاد في شمال سورية في الفترة التي ندرسها(٣١) .

اما **الوثائق التاريخية الاشورية** فانها تقدم لنا معلومات اغنى واكثر أهمية عن القدرة الاقتصادية لملكة ارفاد الارامية خلال مراحل التوسع الاشوري نحو امورو ، اي غربي الفرات ، وهو الاسم الذي كان يطلق على معظم بلاد الشام . واننا سنحاول ان نقدم صورة عن **القدرة الاقتصادية** ، لهذه الدولة الارامية الهامة ولبعض الدول المجاورة المعاصرة لها ، من خلال الحوليات الاشورية ، ونعتمد الى حد كبير على الدراسة القيمة التي قامت بها الباحثة ن.ب. يانكوفسكا ، والتي سبقت الاشارة اليها ..

تشير حوليات الملك الاشوري **اشور ناصر بال الثاني** (٨٦٣ ـ ٨٥٩) الى الانتصارات التي حققها الملك وما ترتب عليها من نتائج . فقد ارغمت مملكة بيت اجوشي على دفع مبالغ من الذهب والفضة والقصدير والنحاس ، وعلى تقديم اعداد من الماشية وبخاصة من الاغنام والجلود ، ومن الملابس الممتازة المصنوعة من الكتان الملون والمصبوغ والملمع ، ومن الاقمشة (٢٢) . وقد ذكر في وثائق اخرى ان كركميش وبيت عديني قدمت للملك اشياء ثمينة مصنوعة من الذهب والفضة .

اما في زمن **شلمناصر الثالث** (٨٥٨ ـ ٨٢٤) فقد كان على بيت اجوشي بعد هزيمتها مرة اخرى امام اشوران تدفع غرامة مقدارها ١٠٠ مينا من الذهب (= ٥ كغ تقريبا) و ٦ وزنات من الفضة (= ١٨٠ كغ) . وبالاضافة الى ذلك موادا عينية اخرى من الاغنام والجلود والملابس والاقمشة مما اشتهرت به مناطق سورية الشمالية ، بالاضافة الى ذكر كميات من الخمور . ويتباهى العاهل الاشوري بانه تلقى من آرامي ملك بيت اجوشي سريرا نفيسا مرصعا بالذهب والفضة(٢٣) .

ان اية موازنة تجري بين المبالغ التي كان على ارفاد ان تدفعها للفاتح الآشوري وبين ما كان يفرض على جيرانها ، تظهر لنا ان أرفاد لم تكن تعتبر في المرتبة الاولى من حيث الثروة المعدنية . وفي الدراسات المتتابعة التي قام بها ب. مايسنر حول مصادر الفضة عند الاشوريين منذ مطلع هذا القرن (عام ١٩١٢)(٢٤) ، وتابعها بعده آخرون مثل جاريللي (١٩٥٩) ولارجمان (١٩٦٣) وغيرهما(٢٥) ، ما يؤكد على أهمية مناطق الاناضول كمصدر لاهم المعادن التي كانت يحتاج اليها الاقتصاد الاشوري . وكانت حطينا في وادي نهر عفرين اكثر قربا من مناجم التعدين في الاناضول ويبدو انها كانت اكبر ثروة من ارفاد ، كما يستدل من مقادير الغرامات الباهظة التي كانت تفرض عليها حسب الوثائق الاشورية . ولكن ينبغي ان نشير الى ان الفاتحين الاشوريين استطاعوا ان يستولوا على أكبر ما تم تحصيله من مقادير من الذهب من مدينة صور اعظم موانىء المتوسط في عصرها . واضطرت دمشق عاصمة ارام ان تدفع كميات هامة ولكن أقل مما فرض على صور .. اما الدول التي كانت تملك ثروات من الفضة فكانت دمشق

وكركميش تاتي في مقدمتها ، وتليها مصيصير في اورارتو وطابال في بلاد الاناضول نفسها . وهاتان المنطقتان الاخيرتان من أغنى المناطق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة، في ذلك العصر ، وهذا مما جعلهما هدفا دائما للحملات الاشورية وللتدخل الموسمي للجيش الاشوري .

كانت الفضة تاتي في المرتبةالاولى بين المعادن المرغوبة في التبادل التجاري قبل ان تتخلى عن دورها الممتاز للذهب(٣٦) خلال الالف الاول ق.م . وبعد هذين المعدنين الثمينين ياتي القصدير في المرتبة الثالثة من حيث الاهمية ، وكان يطلب الى جانب النحاس لتصنيع البرونز . وقد وجدت سبائك نحاسية وقصدير بكميات هامة في المراكز والمدن والموانىء الرئيسية في كل الشرق الادنى القديم ، وبخاصة في موانىءالبحر المتوسط وفي كركميش وارفاد ، كما يتضح من دراسة الحوليات التاريخية من عصري شلمناصر الثالث (القرن التاسع) وتكلات بلاصر الثالث (القرن الثامن)(٣٧) .

وقد تمكن الاشوريون خلال حملاتهم على سورية من الحصول على النحاس والقصدير من المناطق التالية : دمشق التي دفعت غرامة للملك ادد نيراري الثالث(٣٨) (حوالي ٨٠٥ ق.م) مقدارها (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف وزنة (= ٩٠ طنا) من النحاس . بينما تلقى اسلافه كميات هامة من القصدير والنحاس من الموانىء الساحلية الفينيقية ومن كركميش وبيت عدينى على الفرات ومن حطينا (عنقي) وهي منطقة العمق (٣٩).

وقد اضحى **الحديد** في المرحلة التي ندرسها المعدن الاستراتيجي الاكثر أهمية في ذلك العصر ، ومع ذلك كان ذكره في المصادر الاشورية اقل من ذكر المعادن الاخرى التي اشرنا اليها . وكان يستحصل عليه ويستورد من مناطق مختلفة من اسية الصغرى ويصنع على الاغلب في الموانىء الكنعانية ـ الفينيقية في سورية ، ثم يجري تصديره الى بلاد الرافدين . وتأتي دمشق في المرتبة الاولى من حيث الكميات التي قدمتها لاددنيراري الثالث تليها حطينا وكركميش . وقد ذكران دمشق قدمت (٥٠٠٠)خمسة الاف وزنة (= ١٥٠ طنا) من الحديد ، ولكن مدن الساحل قدمت كميات اكبر لجيش تكلات بلاصر الثالث (٤٠) . فاستنادا الى هذه المعلومات التي حملتها لنا الوثائق الرسمية من الديوان الاشوري يمكن ان نستنتج ان ارام دمشق كانت اكثر الدول الارامية غنى بالنحاس والحديد لان الطريق التجارية الرئيسية من الشمال الى الجنوب كانت تمر بدمشق حامله بضائع وموارد اسية الصغرى عن طريق عملاء تجاريين من حطينا وبيت اجوشي كانوا يتعاملون مع ارام دمشق اكبر دول العالم الارامي واكثرها اهمية سياسيا واقتصاديا .

وكان النسيج الذي تنتجه المدن السورية مرغوبا في اشور وغيرها ، وكانت له شهرة قديمة ومعروفة منذ قرون بعيدة . وقد فرض على ارفاد ان تقدم للجيش الاشوري كميات كبيرة من الملابس (٤١) . وافضل انواع القماش الارجماني (بالاكادية ارجمانو) والقماش المصبوغ بالازرق والبنفسجي المعروف باسم (تاكلتو) وهي من منتجات المدن الساحلية الفينيقية .

ولا ننسى قيمة الاخشاب وتجارتها في اقتصاد سورية القديم لما لها من أهمية في البناء ، بناء المعابد والقصور وعمارة المراكب والسفن والاثاث والادوات . وكانت الاخشاب تستورد من سورية الى أشور وبابل بصورة منظمة واما مصادرها فهي جبال الامانوس ولبنان . وكانت تعد البعثات للحصول على الاخشاب تجاريا او بطريق الحرب كغنائم او غرامات تدفع سنويا .

وماتزال نتائج التنقيبات الاثرية في أرفاد تزونا بمعلومات اضافية عن أهمية الموقع في العصر الارامي القديم وبعده ، كما اكدت ذلك الحفريات التي اجرتها بعثة جامعة لندن عام ١٩٧٧ . وهناك قطعة من رقيم مسماري وجد في حصن شلمناصر في موقع نمرود في شمال العراق يفيدنا عن كمية من الاقواس (٧٨٤ قوسا) كان يتوجب ارسالها من ارفاد الى مخازن الاسلحة الاشورية . ولا نعرف بالضبط تاريخ هذه الوثيقة ، ولكن لابد ان ترجع الى مرحلة أسبق من ضم أرفاد الى المملكة الاشورية في ٧٤٠ ق.م . وقد نالت هذه الوثيقة حظا كبيرا من الاهتمام ودرسها كل من ماللوان، واواتس (٤٢) . وقد بقيت أرفاد تحتفظ بدورها بعد ان اضحت تدار من قبل الادارة الاشورية . ففي حوليات الملك اسر حدون (٦٨٠ ــ ٦٦٩) نجد ما يفيد بأن أشور استجلبت من أرفاد الخيول والبغال .

٥ ــ خاتمة :

قبل نهاية هذا البحث يمكن ان نستنتج أن ارباد (أرفاد) كانت تمثل في سورية الشمالية اهمية استراتيجية فوق أهميتها الاقتصادية . كانت الواجهة التي تلقت الضربات الاشورية بعد انتقال أشور الى ضفة الفرات اليمنى . ألم يؤد سقوط أرفاد الى سقوط الدويلات السورية تباعا امام الزحف الاشوري ؟ ان ملاحظة الشواهد السابقة التي عرضناها في حديثنا عن الاقتصاد الارامي وأهميته بالنسبة لاقتصاد أشور تؤكد لنا مرة أخرى ان السياسية الاستراتيجية التي رسم خطوطها ونفذها الملك تكلات بلاصر الثالث لتحويل الدويلات السورية الارامية والفينيقية الى ولايات أشورية تدار من قبل الحكومة المركزية او باشراف ممثليها المعينين ، لم يكن هدفها حماية أمن

اشور وحسب ، ولكن بالدرجة الاولى وضع اليد مباشرة على طرق المواصلات الدولية التي تعبر اراضي سورية الشمالية ، ووضع المدن الرئيسية وهي مراكز التجارة والاقتصاد في سورية في خدمة الدولة الامبراطورية الاشورية . وهذا مايفسر لنا كيف استخدمت الثروات الضخمة التي رفدت بها التجارة الارامية ، عبر الطرق مابين الاناضول والمتوسط ومصر والجزيرة العربية، خزائن العواصم الاشورية . وانه على الاخص في هذا العصر بالذات ،اي في النصف الثاني من القرن الثامن وفي خلال القرن السابع بلغت أشور اقصى درجات اتساعها واعلى درجات الثراء وشادت ارفع البنيان وعمرت الحصون والقصور في كلح ونينوى وغيرهما .

لقد اتجهت حركة التوسع الاشوري في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ المنطقة باتجاهين : **الاول** نحو الغرب الى بوابات التجارة البحرية على البحر المتوسط اي نحو الموانىء الغنية العامرة : ارواد وعرقة وسيميرا وجبيل وصور ، اما الثاني فكان نحو **الجنوب،** أي الى بابل وبلاد البحر (سومر القديمة)لانتزاع التجارة من ايدي البابليين الكلدانيين والاراميين في تلك المنطقة من اجل الاشراف على التجارة مع مناطق الخليج: ديلمون وماجان (أي بلاد البحرين وعمان) .

وكان هؤلاء الاخلامو والاراميون القدماء ، الذين شكلوا في السابق مصدر ازعاج لاية سلطة مركزية في بلاد الرافدين ،هم العامل الاقتصادي الاهم في المنطقة ، لما كانوا يقومون به من دور الوساطة التجارية بين البلاد الداخلية في حوض الفرات والجزيرة وحتى الى مصر من جهة ، وبين الهند البعيدة كانوا يستوردون الحجارة الكريمة والتبر والذهب والخشب النفيس والعاج المرغوب من اجل الزينة وصنع أثاث القصور . وهكذا اضحت تلك الاقوام ، مصدر الاضطراب في أواخر الالف الثاني ق . م ، هي عامل الازدهار والاستقرار في الالف الاول ، وهي التي ، بعد ان فقدت استقلال دولها، كان عليها ان تستمر في تادية دورها الحضاري قرونا طويلة في ميداني الاقتصاد واللغة حتى جعل الاراميون من اللغة الارامية لغة رسمية الى جانب لغات الفاتحين من الاشوريين والكلدانيين والفرس . وهذا الدور الحضاري يجعل للاراميين في الالف الاول ق . م دورا في الدرجة الاولى من الاهمية ، مهد السبيل بما تركه من أثر ثقافي ارامي ــ سرياني لتجدد الحضارة العربية وانبعاث رسالتها .

(١) من اجل تفصيلات احداث هذه المرحلة :
T. Bossert, Anatolien (1942) P. 67;
Seton - lloyd, Early Anatolia (1956) P. 159;
J. Howinktencate, Kleinasien - Zwischen Hethitern u.Persern,Fiseher Weltgeschichte 4 (1967) , P . 112.

(٢) ورد اسم المكان قو من ديار بكر شرقي جزيرة العرب . وقو جبل عند الهمداني في « صفة جزيرة العرب » ،وذكرعلىانه من منازل اياد . و « ذات القوة » موضع اليمن . فربما حملت الهجرات العربية هذا الاسم الىاقصى الشمال .

(٣) انظر :
A. Goetze, Kizzuwatna and The Problem of Hittite Geography New - Haven, Yale Univ . Press (1919) P. 4-5, R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books) , (1967) , P. 40 .

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة « شمل » .

(٥) **A. Alt, Das** Grossreich Davids, (Kleine Schriften II), (1955) P66-75,
A. Malamat, The Kingdom of David and Solomo in its Contact With Egypt and Aram Nahraim , (Biblical Archeologist B.A , XXI), 4 , (1958) , P.96 .
P.Naster , L' asie Mineure et L Assyrie au VIII et VII , sieèles av .J.C. d' après Les Annales des reis assyriens , Biblioo-theque du Museon 8) , Louvain (1938) P . 2 sq .
L . Delaporte , Les Hittites (Bibliotheque des Syntheses Histori ques ; coll , (L' Evolution de L' Humanité) Paris (1936) carte III.
D. D. Luckenbill, Ancient Records Of Assyria and Babylonia , Chi cago , (1926 - 1927), I = ARAB.

العهد القديم ، ٢ ، ٧ : ٦ سفر العدد ، ٢ ، ١ : ١٧

(٧) انظر :
G. Buccellati, The Amorites of the Ur III Period , (Instuto Orientale di Napoli , 1966) P . 133 , 236 - 237 .

(٨) انظر :
N . Schnelder , Aram und Aramaer in des UrIII Zeit , Biblica , 30 (1949) P . 109 - 111 ; A. Dupont - Sommer , Sur tes débuts de L, Histoire araméenne « dans Supplement à Vetus Testamentum , Vol. I , Leiden , (1953) P . 4 - 9 .
J . P . Kupper , Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari , Paris (1957) , Ch . III .
M . Liverani , Storia di ugarit , Roma (1962) P . 153 .

(٩) انظر نصب زكر ملك حماة ولعش في :
H. Donner W . Rollig , Kanaanäicsche u. Aramaicshe Inschriften , = (K A I) , No 202 , S . 204.

(١٠) حدل اختلاط الاحلامو الارامين بالاموريين في بمحاض / حلب راجع :
G . **Buccellati** , The Amorites , P . 242 - 243 .

(١١) انظر مادة « خلم » في ابن منظور : لسان العرب :

(١٢) انظر حلم – חלם في W . **G esenius** , Handworterbuch

(١٣) انظر مادة حلم في ابن منظور : لسان العرب .

(١٤) انظر بهذا الصدد :
J . R . Kupper ; Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari , Paris (1957) . P . 112 - 113 ; P . Garelli , le Prode -Oriend Asiatique 2 bis , Paris (1974) , P . 217 .

(١٥) انظر مادة كنعان في :
Guy et. M . F . Rachet, Dictionnaire de La civilisation Egyptienne , (Larousse (1968) , (canaan , P . 60) ;

(١٦) انظر : **J . R . Kupper** , op . Cit. P . 108.

(١٧) انظر برنكمان :
J . A . Brinkman , A political History of Post - Kassite Babylonia (1158 - 722) , Rome (1968) n . 1799 .

(١٨) انظر : **J . R . Kupper** , op . cit P, 134 - 135.

(١٩) انظر :
E. Dhorme, les Langues et Les ecritures Sémitiques , Paris (1930) P . 29 ; **A, Dupont** - sommer , L'Ostracon arameen d'Assur , Syria , **XXIV** , 1944 - 45 P . 24 - 61 .

(٢٠) انظر اخيرا :
A. Lemaire , J . M . Durand , les inscription Arameenes de Sefire et L'Assyrie de Shamshi - Ilu , (1984) , P. 111.

(٢١) انظر برنكمان: **Brinkman,** op. cit, P. 335 - 338 :

(٢٢) **Donner , Rollig ,** = KAI, no 201;
H. Farzat, Le royaume araméen d'Arpad, Paris , (1972) P.37.

(٢٣) انظر : **Donner , Rollig,** = KAI no 202;
A. Dupont - Sommer, Les Arameens P, 45 - 48.

(٢٤) انظر : **H. Farzat,** op. cit .p.38.

(٢٥) انظر :
F. M. Heichelheim , An Anecient economic History , vol . I Leiden (1965) , P.203;
J.Deshayes, Les Givilisations de l'Orient - Ancient, (Arthaud -Paris) (1969) P. 111 - 116 .

(٢٦) انظر :
Polanyi et oppenheim, Trade and Market in the Early Empires,(1957), p. 12 - 27 , 38 .

وحول العلاقات التجارية ، انظر :
Schachermeyer , Agais und Orient , Wien (1967) , p . 20 - 26 ;

انظر مقالة جان لوكلان Jean Leclant في :
W. A. WARD, The role of the Phoenicians in the interaction of the Mediterranean civilizations; Beirut , the American Univ. (1968) ;
A. Parrot, M. Chehab et S.Moscati, Les Phéniciens, Gallimard, Paris (1975) P. 34 - 35.

(٢٧) انظر حول الطرق التجارية مع اسية الصغرى خلال الالف الثاني:
J. G. Macquen, Geography and History in Western Asia Minor in the second Millenium B.C.«Anatolian Studies » 18, (1968) P. 169 - 185;
J.Mellart, «Anatolian Trade with Europe and Anatolian Geography and culture Provinces in the Bronze Age» in An.St. 18 (1968) P. 187-200;

(٢٨) راجع : **P. Garelli, les** Assyriens en Cappadoce, Paris (1963) p. 225.

(٢٩) انظر دراسة يانكوفسكا
N. B. Jankowska, some problems of the economy of the Assyrian Empire. p. 253 - 275 .

في كتاب لعدد من المؤلفين باشراف الاستاذ دياكونوف
I. M. Diakonoff (ed) , Ancient Mesopotamia , Socio - Economic History, Moscou , (1969).

انظر ايضا : **H. Farzat,** Le royaume arameenn d'Arpad , p. 40, 134.
Seton - Williams, Iraq XXIII (1961) , planche XL; I no 14,p. 79.

(٣١) انظر مقالة سيتون وليامز في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ، عدد ١٧ (١٩٦٧).
Seton - williams, « tell Rifat » AAsyr XVII , 1967 , p.67 , 72.

(٣٢) انظر :
D.D. Luckenbill, Ancient Recorde of Assyria and Babylonia (1926) = ARAB Vol. 1, N° 477.

(٣٣) راجع المصدر السابق : **Luckenbill** = ARAB , I, n° s 475 - 476 , 600-601.

(٣٤) انظرا : **B. Meissner** , « Woher haben die Assyrer silber bezogen ? » Orientalische Literaturzeitung = Olz , XV , (1912), 145-149.

(٣٥) انظر جاريللي ، التاريخ العام للعمل :
P. Garelli, Histoire generale du travail , I, Paris (1959) p. 49 - 104;
ومادة تعدين Métallurgie ومقاييس Métrologie في : Dictionnaire archéologique des Techniques , 2 vols . Paris 1963 ; Langement, II p. 660. **D.Arnaud**

contribution à l' etude de la metrologie Syrienne au II ème millénaire , in Revue de L'Assyriologie = RAss 61 (1067).

(٣٦) **R. J. Forbes** , Gold in the ausient Near - East, dans Ex. Oriente Lux N° 6, (1936) p. 237 - 250 ; **Forbes** , Metallurgy in Antiquity, Leiden n°6, (1950).

(٣٧) انظر : **Luckenbill**, ARAB ,I, ns . 603, 772, 801,

(٣٨) انظر المصدر السابق : ARAB, I, no 740.

(٣٩) انظر المصدر السابق ، الارقام : nos 454 , 466, 475 , 476, 479; 518; nos 593, 601, 585, 655 , 769.

وهذه الوثائق تعود بالترتيب الى حكم كل من : اشور ناصربال الثاني ،شلمناصر الثالث،وتكلات بلاصر الثالث .

(٤٠) المصدر السابق ، ARAB, I, 740,
ايضا : 585; 476, 477, 772, 801 , 601.

(٤١) المصدر السابق ، الارقام : 476, 479, 601, 655, 740.
انظر ايضا : **Jankowska,** idem , p. 285.

(٤٢) **M. E. L. Mallowan,** Nimrud and its remains I , II , London (1969) , I,p. 386, n° 21 . II, p. 406 ; **D. Oates,** Fortshalmanassar , an Interim Report, Irap, XXI, (1959) P. 98 - 129.

الصلات التجارية بين مصر وسورية
منذ عصور ما قبل الاسرات حتى نهاية الدولة القديمة
(٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ ق.م)

د. محمود عبد الحميد أحمد
جامعة دمشق

عوامل كثيرة ساعدت على قيام صلات تجارية مبكرة بين مصر وسورية(١) ، من اهم تلك العوامل ، الموقع ، الطرق ، اختلاف منتجات البلدين الواحد منهما عن الآخر وضرورات التبادل التجاري .

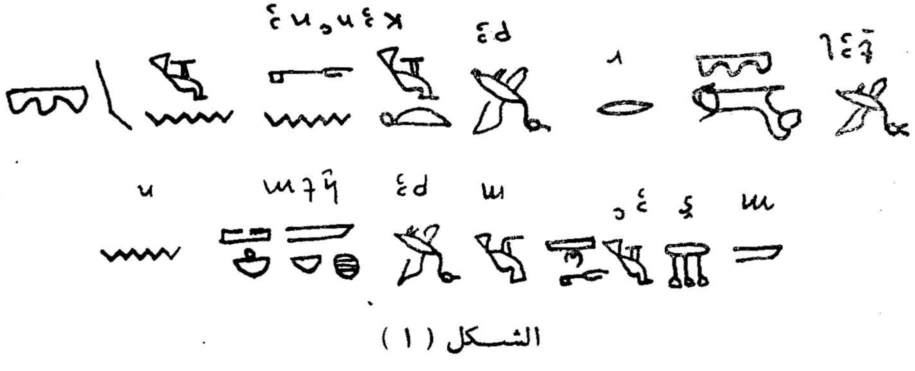
فمن ناحية الموقع ، فان سورية تجاور مصر برا ، ولا يفصلهما فاصل طبيعي لا يمكن التغلب عليه(٢) . كما أن مصر وسورية تقعان على بحر واحد . فسورية تحتل كما هو معروف الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أما مصر فتحتل الطرف الجنوبي الشرقي من هذا الساحل .

أما فيما يتعلق بالطرق ، فقد اتصل البلدان الواحد منهما بالآخر بواسطة طريقين ، الاول بحري والثاني بري اذ كان الطريق الاول (البحري) يبدأ من مصاب نهر النيل على البحر الابيض المتوسط ، متجها نحو الشرق ويستمر بمحاذات الشاطىء الشمالي لشبه جزيرة سيناء ، فسواحل فلسطين ولبنان وسورية . وتدل اسطورة اوزيريس وايزيس ، على ان طريق البحر قد سلك منذ وقت مبكر جدا ، حيث تبدأ الاسطورة بالاعلان عن ولادة (الملك العادل) اوزيريس ، الذي حقق العدل بين الناس ، وعلمهم عبادة الالهة ، لكن اخاه ست ، كان يتقد غيرة منه ، ولذلك دبر له مؤامرة اشترك فيها اثنان وسبعون رجلا . وتتلخص المؤامرة في أن ست صنع صندوقا جميلا بحجم أخية أوزيريس ، وعرض هذا الصندوق خلال مأدبة اقامها ، ووعد أن يهدي

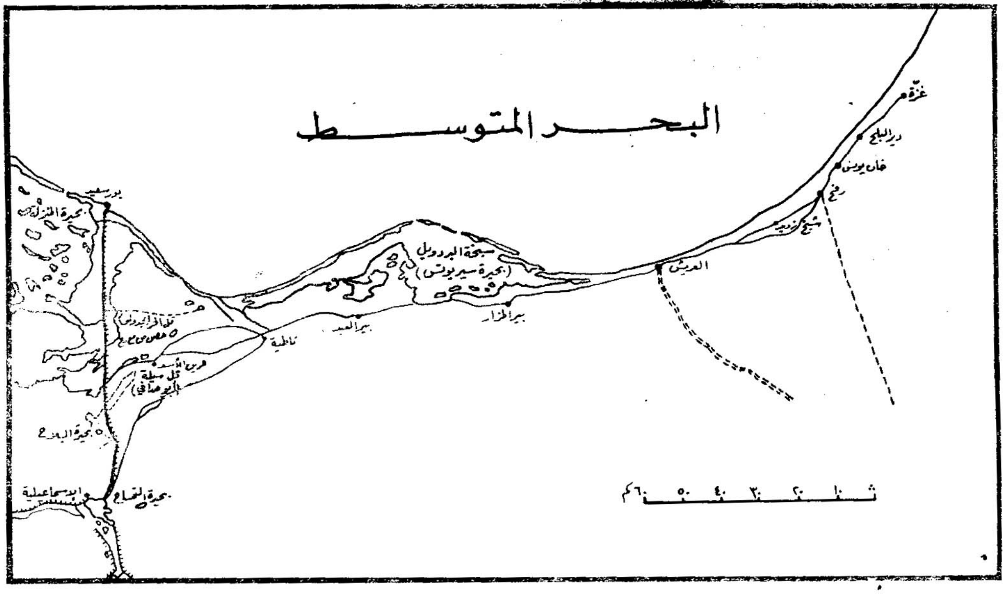
الصندوق لمن يناسب جسمه تماما . وبطبيعة الحال لم يناسب الصندوق جسم أحد، الى ان وصل الدور الى اوزيريس ، الذي تمدد فيه ، وكان مناسبا لجسمه ، وفي هذه اللحظة اسرع المتامرون فأغلقوا الصندوق والقوا به في نهر النيل ، حيث جرفت مياه النهر الصندوق الى البحر الابيض المتوسط ، واخيرا قذفت أمواج البحر الصندوق فاستقر على الشاطىء بالقرب من جبيل عند شجرة صغيرة(٣) . ونمت الشجرة بسرعة واحتوته بداخلها ، غير ان ملك جبيل اعجب بضخامة هذه الشجرة ، فقطعها واستخدمها عمودا في قصره . وتخبر الريح المقدسة الاخت المفجوعة ايزيس بكل ما حدث ، فترحل الى جبيل . وفي جبيل جلست بجوار نبع تبكي بصمت ولا تكلم أحدا عدا وصيفات الملكة ، وكانت تصفف شعورهن وتعطرهن بالطيب الخاص بها . ولاحظت الملكة كل ذلك ، فأمرت باحضار المرأة الاجنبية ، واتخذتها مربية لطفلها . وبعد فترة قصيرة استطاعت ايزيس ان تنزع العمود من سقف القصر ، وتخرج الصندوق (التابوت) حيث حملته على سفينة وعادت بهالى مصر(٤) .

أما فيما يتعلق بالطريق البرى ، فقد كان يبدأ بالقنطرة الحالية على حدود مصر الشرقية ، وينتهي عند رفح أول مدن فلسطين . ويعد سير الن جاردنر من العلماء الكبار الذين استطاعوا أن يحددوا بداية هذا الطريق ، والمواقع المميزة الهامة التي يمر بها عبر شمال سيناء الى أن ينتهي عند رفح . وقد وضع جاردنر مخططا للطريق بالاعتماد على دراسة علماء المصريات للمنطقة الواقعة على حدود مصر الشرقية منذ حملة نابليون بونابرت على مصر . كما اعتمد في وضع مخطط الطريق على دراسة قام بها هو شخصيا ،تناولت سلسلة المناظر المنحوتة على الجدار الخارجي لقاعة العمد الكبرى في معبد الكرنك عند جهتها الشمالية (٥) .

استنتج العالم الكبير ان الطريق يبدأ من حصن تل ، او سيلة(٦) ، وينتهي بمدينة رفح في كنعان (فلسطين) ، حيث جاء في النقش (الشكل ــ ١) : [السنة الاولى للملك



الشكل (١)



من مارع رع ، وقد قامت يده القوية بالسلب بين الهالكين من بلاد الشاسو] « مبتدءا من حصن تل الى كنعان» .

يبلغ طول هذا الطريق نحو مائة واربعين ميلا ، اذ ان المسافة بين القنيطرة والعريش نحو واحد وتسعين ميلا ، وبين العريش ورفح وغزة نحو عشرين . ومن الجدير بالذكر ان الابار محفورة على امتداد الطريق ، لتزويد المرتحلين بالماء(٧) . كما اقيمت القلاع والحصون(٨) في الاماكن ذات المواقع المتحكمة ، لحماية الطريق والقوافل من عبث العابثين(٩) .

وأما فيما يتعلق باختلاف منتجات مصر عن سورية ، فمن الطبيعي ان يؤدي اختلاف موقعيهما على درجات عرض متفاوتة الى اختلاف في مناخيهما ، فانتج كل من البلدين طبقا لهذا المناخ منتجات نباتية وحيوانية خاصة بكل منهما . وكانت حاجة مصر لمنتجات سورية من الاخشاب ومشتقاتها ، بالاضافة الى زيت الزيتون والنبيذ ، وما يتجمع في موانى سورية من المنتجات الاسيوية ، كالفضة من آسيا الصغرى وحجر الاوبسيديان(١٠) واللازورد من منطقة افغانستان وما يجاورها ،والنحاس والقصدير من جزر البحر الابيض المتوسط ، كانت حاجة مصر لهذه المنتجات ماسة وضرورية جدا . وقد اعطت مصر مقابل ذلك ذهبا وعسلا وحبوبا وكتانا وحبالا واواني حجرية . وفيما يلي نعرض لاهم الآثار التي عثر عليها في كل من سورية ومصر ، والتي تعد دليلا

على قيام صلات تجارية مبكرة بين البلدين ، وسوف نقصر بحثنا هذا على صلات البلدين التجارية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة عند الربع الاخير من الالف الثالثة قبل الميلاد ، أي في الفترة الواقعة بين ٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ ق٠م ٠

تركزت الآثار المصرية التي ترجع الى عصور ما قبل الاسرات المصرية ، وتلك التي تؤرخ بعصر الدولة القديمة ، في مدينة جبيل على الساحل السوري . وقد عثر في هذه المدينة على الاثار المصرية التالية التي تؤرخ بعصور ما قبل الأسرات وهي : خرزة من الذهب ، طائر من العاج ؟ ، قطعتان من حجر الكوارتز ربما استخدمتا في لعبة ما ؟، تمثال قرد صغير ، اناء حجري يشبه بعض الاواني المصرية الحجرية التي ترجع الى هذه الفترة (١١) . يضاف الى ما سبق قطعة من اناء حجري(١٢) ، نقش عليها سرخ ملكي مصري ، واسم الملك المصري خع سخموي ، اخر ملوك الاسرة الثانية المصرية(١٣).

قبل عرض الاثار المصرية الدالة على التجارة بين مصر وسورية خلال عصر الدولة القديمة ،لابد ان نقدم للقارىء الفكرةالقائلة ،أنه نظرا لدين المصريين ، وللاهمية التجارية الكبيرة التي تمتع بها ميناء جبيل ، تولد عندهم اعتقاد ، مفاده ، انه لابد لهم ، ليتيسر حصولهم على الخشب ، من ارضاء آلهتها ، أي الهة جبيل ، التي يحصل المصريون من منطقة عبادتها على الخشب الثمين .كما ان نجاحانتفاعهم بالخشب ونجاح رحلاتهم في المستقبل كان يعتمد على ارادة الهة جبيل . ولذلك اسرع ملوك مصر من الدولة القديمة الى تقديم الهدايا الى امراء جبيل والى آلهتها(١٤) . وهكذا اعتبرت هداياهم تلك خير دليل على ازدهار التجارة بين مصر وسورية . وفيما يلي نعرض لاهمها :

ـ اناء من حجر الديوريت على شكل قرد ، ربما كان يرجع الى عهد الملك خوفو من ملوك الاسرة الرابعة المصرية(١٥) .

ـ كسرة اناء من حجر الالباستر عليه سرخ خوفو وبداخله اسم الملك(١٦) .

ـ كسرة من الالباستر منقوش عليها اسم الملك « منكاورع »(١٧) من ملوك الاسرة الرابعة .

ـ كسرة اناء من حجر الالباستر ، بقي عليها اثار علامتين من اسم الملك « نفرايركارع » ثالث ملوك الاسرة الخامسة المصرية(١٨) .

ـ كسرات عدة تحمل اسم الملك « اوناس » اخر ملوك الاسرة الخامسة المصرية(١٩) .

ـ اناء كامل يحمل اسم الملك السابق(٢٠) .

ــ كسرتان عليهما ما يحتمل انه اسم الملك « تيتي » اول ملوك الاسرة السادسة(٢١) .

ــ اناء جميل من الالباستر ، يحمل اسم الملك« بيبي الاول »(٢٢) من ملوك الاسرة السادسة .

ــ عدة كسرات حجرية تحمل اسم الملك السابق(٢٣) .

ــ كسرة حجرية تحمل الاسم الحوري كاملا للملك « مرنرع » من ملوك الاسرة السادسة المصرية(٢٤) .

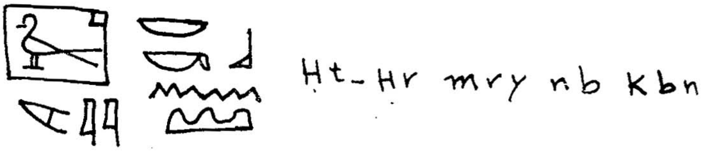
ــ عدة كسر تحمل اسم « بيبي الثاني » اخر ملوك الاسرة السادسة(٢٥) .

ــ سدادة جرة تحمل اسم الملك السابق(٢٦) .

ــ جزء من مائدة قربان حجرية ، تؤرخ بالايام الاولى للاسرة الرابعة ، كتب عليهااسم موظف مصري والقابه ويبدو انه كان واحدا من الكتاب الملكيين المقيمين في جبيل ، ومن المحتمل انه كان مسؤولا عن مجموعة من الكتاب الملكيين المقيمين فيها ، حيث كان وجودهم هنا ضرورة ملحة لتسييراعمال الجالية التجارية المصرية في جبيل ، ولتسهيل وتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر(٢٧) .

واخيرا نعرض لـ « المعبد المصري » الذي عثر عليه في جبيل ، هذا المعبد الذي يعد من الادلة الكبيرة على ازدهار التجارة بين مصر وسورية .

عثر في مدينة جبيل على معبد مصري(٢٨) يؤرخ بعضر الاسرة الرابعة ، من المحتمل انه اقيم هنا لخدمة الجالية التجارية المصرية المقيمة في جبيل ، واهم ما يلفت النظر في اثار هذا المعبد لوحة حفر عليها مشهد يصور ملكا مصريا جاثيا ، وقد حمل آنيتين صغيرتين يقدمهما الى الهة امامه ، خصت ببعض رموز الآلهة المصرية حاتحور . ولكن كتب في اعلى اللوحة « محبوب حاتحور سيدة جبيل »(٢٩) فهل قصد المصريون بذلك الالهة بعلة الهة مدينة جبيل ، بعد ان رسموها برموز آلهتهم ؟ أم هي محاولة للتوفيق بين بعلة وحاتحور ، حيث وجد المصريون صفات مشتركة في رموز الالهتين ..؟ مهما كان الأمر ، فمن المؤكد ان المعبد المصري قد وجد في مدينة جبيل ، ووجوده هذا يدل دلالة قاطعة على مدى اهمية ميناء جبيل التجارية بالنسبة لمصر ، كما يدل على ان كثيرا من المصريين قد أقاموا في جبيل اقامة دائمة بصفة تجار أو كتبة ، ارسلهم ملك مصر لتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر من ميناء جبيل ، ولشراء ما تحتاجه مصر من منتجات اسيا المختلفة الواردة الى جبيل .



الشكل (٦)
« محبوب حاتور سيدة جبيل »

تناولنا في الفقرات السابقة الصلات التجارية بين مصر وسورية خلال عصور ما قبل الاسرات وعصر الدولة القديمة ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الادلة الاثرية التي عثر عليها في مدينة جبيل بخاصة .وفي مقال تال سوف نعرض الادلة التي عثر عليها في مصر ، والتي تتعلق بالتجارةبين مصر وسورية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة .

الحواشـي :

(١) يقصد الباحث سورية الطبيعية .

(٢) يرى بعض الباحثين ان منطقة الشرق العربي امتداد لقارة افريقيا ، اذ ان مظاهر السطح لاتتغير الا عند جبال طوروس وزاغروس .

(٣) تقع جبيل على ساحل البحر الابيض المتوسط شمال مدينة بيروت .

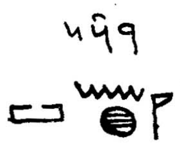
(٤) ارمان ، أ. ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحمد انور شكري، القاهرةص٩٨ـ٩٩.

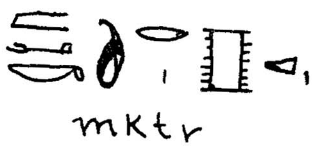
(٥) يعود تاريخ القائمة والنقوش الى عهد الفرعون « ستي الاول » من فراعنة الاسرة التاسعة عشر (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق.م) .
وتصور النقوش والنص الهيروغليفي المرافق لها ، استقبال المصريين للكهم الذي عاد منتصرا من كنعان ، والطريق الذي سلكه في عودته .

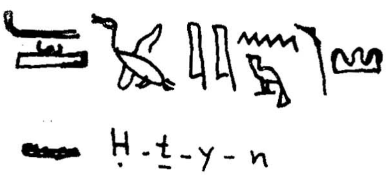
(٦) حصن تل هو تل ابو صافي الحالي على بعد ميلين من القنطرة الحالية . ومن الجدير بالذكر ان الموقع نفسه كان يدعىسيله في كتابات اليونان والرومان . الموسوعة المصريـة ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ٣٣١ .

(٧) تقدر المسافة الواقعة بين بئرين متجاورين بحوالي (٩ـ١٠كم) .

(٨) اطلقعلى هذهالاماكن الهامة فينقوش ستي الاول الاسماء التالية قلعة (شكل ٣) ومجدل (شكل ٤) وحصين (شكل ٥)







الشكل (٣)　　الشكل (٤)　　الشكل (٥)

واللفظان الاخيران عربيان ، وقد بقيا مستخدمين في مصر حتى العصر البطلمي حيثكتبا كما يلي:

MIγTOλ　　　　　　　　MEσTOλ

مجتول (شكل ٧)　　　　　　　　مشتول (شكل ٦)

(٩) Gardiner, A. The Ancient military road bitween Egypt and Palestine, Journal of Egiptian Archaeology, vol. VI, p. 99 FF.

(١٠) حجر سليسي متبلر ، غالبا ما يكود بلون اسود ، يستخدم في صنع ادوات الزينة .

(١١) Montet, P., BYBLOS ET L'EGYPTE , Paris, 1928, No. 170 333 , 334, 176.

(١٢) Dunand, M., FEUILLES DE BYBLOS, 1, Paris, 1939 , No. 1115, P. 26 .

(١٣) السرخ لوحة حجرية مستطيلة الشكل ، كتب بداخلها ضمن اطار اسم الملك ، ورسم تحت هـذا الاسم واجهة بناء ربما تمثل واجهة القصر الملكي .

(١٤) «وفي عهد الملك تحوتمس الثامن ، ذهب رئيس الخزانة الى جبيل لاحضار كتل من خشب الارز . ولكنه قبل ان يصعد الى الغابة المليئة بالاشجار ليختار ما يريده من الخشب ، قدم القرابين لآلهة جبيل المسماة بعلة ، التي تعرف عليهاالمصريون وقالوا بانها الهتهم حاتحور » . ويلســـون ،ج، الحضارة المصرية ، ترجمة احمد فخري ،القاهرة ١٩٥٥ص٣١٤ .

(١٥) Montet, P., op. cit., No. 58.

(١٦) Dunand, M., op . cit., No. 4506.

(١٧) Dunand , M; , FBII, No. 11327.

(١٨) Dunand, FB I , No. 4909 .

(١٩) Dunand, FB I,No. 7867, 3980, 4029 .

(٢٠) Ward, W., Egypt aid the East Mediterranean from Predynastic Times table end of the old kingdom, J.E.S.H.O., vol. VI, P.23

(٢١) Dunand , FB I, No. 3753 .

(٢٢-٢٣) Ward, op. cit.p.23

(٢٤) Dunand, FB I.No. 1940.

(٢٥-٢٦) Dunand, FBI, No. 3800, 1927;2874.

(٢٧) Ward, op. cit ., p.21.

(٢٨) عثر على هذا المعبد بالقرب من نبع مدينة جبيل

Ward , op. cit., p.24.

(٢٩) Montet, op. cit ., No. 11.

تفرد مجلة « دراسات تاريخية » بدءا من هذا العدد بابا خاصا لنشر بحوث الدارسين ، المرشحين لمناقشة الرسائل المعدة لنيل شهادة الماجستير او الدكتوراه في جامعة دمشق .

الموقف الدّولي

من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشّام (١٨٣١ - ١٨٤٠) من خلال الوثائق العثمانيّة

علي يوسف البلخي

جاءت حملة محمد علي على بلاد الشام في اعقاب انتصارات هامة حققها جيشه في الحجاز وفي اليونان وفي السودان . وكانت الظروف الدولية مواتية لهذه الحملة ، فبريطانية كان يشغلها الاصلاح الداخلي لاستبعاد خطر الثورات التي ظهرت في فرنسة، وفرنسة منشغلة بثورات ١٨٣٠ في باريس التي جاءت بالملك لوي فيليب الى الحكم . وكان يشغلها أيضا الوضع المضطرب في الجزائر الذي ادى الى ثورة الامير عبد القادر الجزائري عام ١٨٣٢م . وكانت الامبراطورية النمسوية مهددة بثورة بولونية . أما الدولة العثمانية فكان جيشها الجديد ما زال فتيا بعد قضاء السلطان محمد الثاني على الانكشارية عام ١٨٢٦ ، كما ان الاسطول العثماني كان قد هزم من قبل الاساطيل الاوربية ابان حرب اليونان في معركة نفارينو عام ١٨٢٧(١) .

رأى محمد علي باشا بثاقب نظره ضعف الدولة العثمانية فقرر تأسيس عرش له يتربع فوقه ويورثه لاحفاده ، لذلك احكم قبضته على مصر ثم جهز قوة عسكرية برية وبحرية بقيادة ابنه ابراهيم وأمره باحتلال بلاد الشام ، وانطلقت تلك القوات من مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٨٣١ م .

وبرهن ابراهيم باشا على قدرة قتالية عندما هزم قوات عبد الله الجزار ودخل عكا عام ١٨٣٢ ، وتقدم الى دمشق بعد ان بدد قوات عثمانية قربها ، وتابع سيره الى الزراعة وانتصر على الجيش العثماني فيها وتقدم الى حماة وحلب ومضيق بيلان.

والحق ابراهيم باشا هزيمة ساحقة بالجيش العثماني في معركة قونية في ٢٧رجب ١٢٤٨ هـ/٢١ كانون الاول ١٨٣٢ م ، واسر رشيد باشا قائده .

تركت هزيمة العثمانيين في قونية آثارا سلبية على العثمانيين والمصريين على السواء ، بسبب التدخل الاوربي في شؤون السلطنة العثمانية ، بحجة كبح محمد علي. وحاول السلطان العثماني توقيع الصلح مع محمد علي باشا فارسل وفدا الى مصر برئاسة صارم أفندي ، أحد كبار رجال الديوان السلطاني ، ليقنعه بالصلح ، فباءت محاولته بالفشل ، وعرض السلطان عليه ولاية عكا وطرابلس ، فرفض محمد علي واصر على ضم بلاد الشام الى مصر . وارسل الباب العالي(٢) خليل رفعت باشا، وهو أحد اعيان استانبول ، الى مصر ، حاملا الى محمد علي عفو السلطان عنه . ونظرا لوجود صداقة بين خليل رفعت باشا ومحمد علي فقد قررا ابرام الاتفاق على انهاء الحرب ضد السلطنة العثمانية مقابل اعطاء محمد علي ولاية سورية وأدنة . وثم انهاء النزاع على هذا الوجه(٣) .

وحتى يتضح موقف الدول الاوربية تجاه وجود محمد علي باشا في بلاد الشام ، نرى من الضروري بيان سياسة كل دولة اوربية على حدة . والدول المعنية بهذا المجال هي : انكلترا ، فرنسا ، النمسا ، وثم روسيا وبروسيا .

كانت **سياسة روسيا** منذ عهد بطرس الاول (٤) تهدف الى الوصول الى المياه الدافئة في الدردنيل والبوسفور . لذلك اغتنم قيصر روسية هزيمة العثمانيين في قونية وارسل وفدا عسكريا برئاسة الجنرال مورافيف الى الاستانة ليعرض مساعدته العسكرية ، البرية والبحرية ، للسلطان العثماني . وبعد هزيمة قونية كلف السلطان محمود الثاني ريس افندي ، الذي كان صدرا اعظما ، بمقابلة بوتيف سفير روسية بالاستانة لطلب مساعدة عسكرية روسية قوامها ٢٠ او ٢٥ الف جندي ، فاتصل السفير الروسي بالقيصر وابلغه طلب السلطان فاصدر أوامره الى الاسطول الحربي بالتقدم من سيباستبول الى البوسفورفي ١٤ شباط ١٨٣٣ فوصل الى مياه الاستانة في ١٩ شباط ، وامر القيصر الجزال كيسليف باجتياز الروملي الى استانبول ووضعت قوات اوديسا على اهبة الاستعداد (٥) .

أما مورافيف فكان قد غادر الاستانة الى مصر وقابل محمد علي باشا في ١٣ شباط ١٨٣٣ وعرض عليه رغبة القيصر باتفاقه مع السلطان ، فرد محمد علي عليه بانه عرض الاتفاق على السلطان منذ شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٢ ، وعاد مورافيف من الاسكندرية الى استانبول وأبلغ الباب العالي بان محمد علي قد امر ابنه ابراهيم

هذه الوثيقة موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوظة بدوسية رقم ٧٨.

وتتضمن موقف كل من فرنسة وانكلترة وروسية تجاه احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ، وقد دونها محمد نامق بك الذي كان سكرتيرا خاصا للسلطان محمود الثاني ، وقد جمع معلوماتها من رسائل ملوك الدول المذكورة والموجهة الى السلطان العثماني .

معروضه قوللريدر

[illegible]

بالتوقف في كوتاهية ، لكنه نصح رجال الباب العالي باخذ الحيطة والحذر من محمد علي . وعندما عسكر ابراهيم باشا في كوتاهية وصل اليه ثلاثة رسل :

الاول من قبل الباب العالي ليبلغه أنه أرسل خليل رفعت باشا الى مصر من اجل الاتفاق مع والده (٦) .

والثاني من قبل مورافيف الذي ارسل أحد معاونيه (دوهامل) لينصح ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

وأما الرسول الثالث فهو : بودوليا رسول سفير فرنسة ، وكانت مهمته اقناع ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

وكان جواب ابراهيم الى الرسل الثلاثة بانه قائد لقوات محمد علي باشا ، وانه خاضع لتعليماته ومنفذ لاوامره .

وخافت كل من فرنسا وانكلترا من تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية فتدخلتا لتسوية الامور بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا ، واسفر تدخلهما عن ابرام معاهدة كوتاهية في ٥ أيار ١٨٣٣ والتي جاء فيها :

١ ـ انسحاب ابراهيم باشا من الاناضول الى ما وراء جبال طوروس .

٢ ـ اعطاء ولاية مصر لمحمد علي مدى حياته ، ومنحه حق تعيين الولاة على ولايات بلاد الشام الاربع (عكا ، طرابلس ، حلب ، ودمشق) واعطائه جزيرة كريت .

٣ ـ تعيين ابراهيم باشا واليا على أضنة .

اعتبر السلطان العثماني معاهدة كوتاهية هدنة ليعيد تنظيم قواته من أجل طرد ابراهيم باشا من بلاد الشام .

وردت روسيا على التدخل الانكليزي الفرنسي بأن وقعت مع السلطان محمود الثاني في ١٨ محرم ١٢٤٩ هـ / ٨ حزيران ١٨٣٣م معاهدة هجومية عرفت بمعاهدة أونكيار اسكلة سي، تعهدت بموجبها بالدفاع عن الدولة العثمانية اذا هاجمها المصريون او غيرهم ، وحازت بذلك على حق التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية .

واعتبرت معاهدة اونكيار اسكلة سي نصرا كبيرا لروسيا لانها حققت حلمها بالوصول الى المياه الدافئة .

معروض بنده لريدر

اگرچه وكلادن كيفيتى نصب اولنمه اوزره مصالح داخليه ايله مشغول اولمقلرندن هنوز باشليجه برايشه يد
اولنمامش ايسه ده اموراجنبيه ناظرى لورد پالمرستون نزدنده مقدم اموراجنبيه ناظرى بولنمش اولان لورد ابردين
جنابلرى اليوم قولونيا ناظرى نصب اولنمش [illegible] وارديغمده مصر احوالنه وجزاير دائر مصاحبه اولنمقده
مشروحى موصى اليه كندوسى ودخيلى يعنى وكلادن سائره دخى مصرعليه هيچ وجهله معاونت ايلميوب محمد على يه
بر عجله يوقدر [illegible] مصرعليه طرفندن اولجه بالذات مبادرت اولنميوب محمد على پاشا ادبنى طاقنديغى
تقديرجه دخى مصرعليه جنداسنه عقلى انه برقاعده عقلى بولنوب جميع دول اوروپا محمد على يه معارض اوله جقلرندن
استنباه اولنمديغنده بحث ايدرك جزاير مصلحتنه دائر لقردى اچلدقده غلطه شتلو رشيد بك افندى بنده لرى
فرانسه وكلاسيله ماهيتنه مبادرت ايلمك اوزره اولديغى بيانيله ايديكم مشروحى موصى اليه بوندن دوررسنه
مقدم نره وكلادن دخى بولنديغى اثناده فرانسه دولتى جزايرى مصرعليه يه دايما چكلمك بزه وعد ايتمش ايدى
اگر اول اراده عود اولنيوب [illegible] قاعده اولديغى شمديه قدر جزايرى فرانسه دخى مصرعليه يه بيانه حاجت
دخى ايتمش اولوراندى شمدى اشته دوررسنه دنبرو حالى اوزره قالدى باقيلم نصل اولور ديمش ايسه ده
استحصالنه اميدوار ايلديكى ومصر ماده سى خصوصنى شعل ٢٨ تاريخيله غلطه شتلو صارم افندى بنده لرى
امر دولتعليه تحرير ايلديكى مشعو طرف دولتعليه برادرنامه والعدل ورود ايتمش [illegible] اشتوار والارع
اوزره تحرير وارسال بيورلمش اولديغى افاداته بناء ابدرك واربابى [illegible] جنابه دولتعليه اقدمجه عرض واشعار
بنده كان اولديه مقاصد برمقدمه اولمش زمينده وكلادن موجوددر لسانا سرد افاده اولنمش هنوز مشغول
داخليه ايله مشغول اولوب طول ودراز استماعه وقتى اولمديغنده ناشى فرانسه الچيسى بر مذاكره قلمه
اولنوب امور اجنبيه ناظرى [illegible] جنابلرينه اعطا اولنمش اولان منظورعاليلرى بيوريله ضمننده عيني بر صورتى
خاكپاى دولتعليه ملفوفا گوندريلدى بو طرفده بحث قوبريك عاقبت الامر صورتى مذكوره بحث مقيم
صورتيله قولديه گوندريلوب اولطرفه كاشف بيرج مترتبك جنابلرى خيرخواه دولتعليه اولديغى وجوهله نمايان
اولمه اولديغنده امر دولتعليه اوزره موصى اليه برقاعده طوبه بحيه دوغيسى استحصال ضمننده
صورتنه مذكوره [illegible] بيرج موصى اليه قرانسه ايدوب بعض دولتعليه بغداد واليسى طرفنه گوندروب اندرك
خاكپاى دولتعليه ارسال اولنمش ماده رويانى قولرينه تحرير واشعار عاجزانم اولنديغنده بسته محمد على پاشا

هذه الوثيقة موجودة في ارشيف رئاسة الوزراء التركي باستانبول ومحفوظة بدوسية رقم ٧٨ . وقد دونها محمد نامق بك بناء على رغبة السلطان محمود الثاني موضحا رغبة محمد علي باشا بالاستقلال عن السلطنة العثمانية واعتبر احتلاله لبلاد الشام تمردا لذلك نعته بالعاصي.

استقلال داعیه‌سنی شمال دولت ثلثه‌یه اقدمجه تقدیم ایتمش اولدیغی تقاریر معهوده‌سنده از جمله نجد دولتنه تقدیم
ایلدیکی تقریره اولوقت برنج موسی الیه جانبلرندن طرفنه وبر بلاد جوانبی انکلتره وکلاسنه کوسترلمک ایجون
لوندره‌ده مقیم نجد مصلحتکذارینه کوندرلمش محمد علینک حال وکیفیتنی بیان ایدرک دولت علیه‌یه اطاعت وانقیاد
اونک مستدعاسنه بر کفیل اولمق ضمننده قوه بحریه‌سی اخذ ایله دولت علیه‌یه وبرلسنی موسی الیه نامزکان اتمام وتعجیل
ایتمش اولدیغی اولوقت بالذات منظور عاجزانم اولمش ایدی وکلای سابقه طرفندن اصغا اولنمش اولدیغنده
مقام والانه دخی بو قضیه‌یی تحریر ایله اشعار واخبار کمترانم اولمامش ایدی لکن شمدیلک مقتضای وقت
وحال دوره برنج مترینک جانبلرینک صحبو رأی واراء سابقه خبرلرینی بولنقی حالیه نظراً الحالة هذه کارک
اولمسی ملاحظه‌سی ذکر اولنقده معاهدت برله بالا قوه بحریه‌سی دولت علیه‌یه تسلیم اولنورسه بر دخی عصیانه
ابتماسنه بر کفیل وبرلمش اولاجغی کیفیتنی حاوی وبایخ قوللرم برنج موسی الیه جانبلرینه بیان ایتدیکمده اشبو رأی سابقی
حالا موجود بولنان انکلتره منستروارینه تکرار تحریر ایلمسی ضمننده ترغیب ومطالبه ایله موسی الیهک اشبو
الام خبرلرینی استحصالنه اولوقت انکلتره وفرانچه وروسیه دولتلری طرفلرنده دخی بو خصوصه مماشاته
کوستریله‌جکی ملحوظ اولمقده ایدی بو ماده‌یه دائر خاکپای دولتلرینه تحریراً استیذان اولنمش جواب ورودینه قدر
زمان فرصت فوت اولمسه اولاجغی معلوم دولتلری بیورلمش وصبو عریضه چاکرلری تاریخی تونس عطوفتلو
رشید بک افندی بنده‌لری طرفنه خاکپای عالیلرینه اشعار ایتمش اولاجغی وجهله جواب مصلحته مباشرت ایدرک
بو طرفده دخی معاونت لازم کلمش اولدیغی بیان ایلدیکمده قوللری دخی بو نقطه صحبو اختام امورجیه
ناظری وتبقتور جانبلرینه طعامه مدعو اولدیغمده خصوص مذکوره دائر لازم کلان معاونت والتزام
موادنی استحصال ضمننده مدمومی الیهک فرانچه منستروسیله وقوع اولان مکالمه‌سنی تلز موسی الیه
بسط ایدرک بو بابده غیرت وهمتی تحریک ایتمه سارعت بندکانم اولاجغی معلوم دولتلری بیورلدقده
هر حالده امر وفرمان دولتلو عنایتلو افندم حضرتلرینکدر

اما **السياسة الانكليزية** فكانت تهدف الى بقاء الدولة العثمانية ضعيفة وابعاد النفوذ الروسي عنها ، وان لا تقوم دولة قوية على طريقها الى الهند ، وان لا يملك محمد علي العراق والخليج العربي وسواحل بلاد الشام . وكان الباب العالي راغبا بالاستناد الى دولة قوية لرد خطر محمد علي ، وكان في الوقت نفسه يخشى مطامع روسيا وانكلترا في المضائق ، الدردنيل والبوسفور ، لذلك كلف الباب العالي ريس افندي بمقابلة سترافورد كاننج ، سفير انكلترا بالاستانة ، فقابله في ١١ آب ١٨٣٢ وابلغه رغبة الباب العالي بالمساعدة الادبية والمادية ضد محمد علي باشا .

وارسل الباب العالي امرا الى ماورو باني سفير تركيا في فيينا بأن يتجه الى لندن فوصلها في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٢ م حاملا اقتراحات الباب العالي الى الحكومة الانكليزية بخصوص طلب المساعدة ، وان تركيا تتحمل كافة نفقات تلك المساعدة ، وتمنح انكلترا جميع الامتيازات التجارية التي تريدها مقابل وقوفها ضد محمد علي. فاجابت انكلترا بانها لا تستطيع الرد العاجل على مقترحات الباب العالي(٧) . وكرر الباب العالي محاولة طلب المساعدة من انكلترا فوصل نامق بك السكرتير الخاص للسلطان محمود الثاني الى لندن في ١٣ كانون الاول ١٨٣٢ حاملا مقترحات السلطان والباب العالي بطلب المساعدة ، فردت انكلترا انها لا تستطيع الاندفاع في عمل عسكري وانها تفضل الانتظار . ورات انكلترا ان ترسل اسطولا حربيا الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال ماندفيل بعد معركة قونية المارة الذكر .

اما **فرنسا** ، فقد كانت السبب الذي جاء بمحمد علي الى مصر . ذلك انه دخل الى مصر مع الفرقة الالبانية التي جهزها السلطان العثماني لطرد الفرنسيين من مصر . وهذا يستوجب وجود عداء بين محمد علي وفرنسا . ولكن الاحداث كشفت عن نوايا نابليون بونابرت وطموحه الى كرسي العرش الفرنسي ، وأن بريطانيا لن تترك فرنسة على هواها فتصدت لها ، وحتى تقيم فرنسة العراقيل امام انكلترا فقد رغّبت محمد علي باحتلال الجزائر ، ولكنه لم يستجب لطلبها لانه صمم على احتلال بلاد الشام ، التي رأى فيها اقتصادا مزدهرا يتيح له انجاز مشاريعه ، ويوفر شبابا يجنده لخوض ساحات القتال ، وحدا عازلا عن السلطة العثمانية (٨) . وأفاد محمد علي من التنافس الاستعماري الانكليزي ــ الفرنسي بأن نال دعم فرنسة له في بداية تنفيذ مشروعه باحتلال بلاد الشام .

لكن السياسة الروسية السابقة الذكر لم ترق لفرنسا في عام ١٨٣٢ ــ ١٨٣٣ . لذلك جهزت أسطولا حربيا وأرسلته الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال روسين ، الذي وصل الى المضيق المذكور في ٢٠ كانون الثاني ١٨٣٣ م ، وأبلغ الباب العالي عندما وصل

الى المياه التركية انه سيدافع عن مصالح الدولة العثمانية ضد ابراهيم باشا ، اذا سحبت الدولة طلب المساعدة من روسيا . ولم تتحقق أماني روسين بسبب وصول الاسطول الروسي الى مياه البوسفور ، فابلغ الباب العالي بان مجيء القوات الروسية يذهب عنه كل استقلال ، ولذلك فقد بات وجود السفير الفرنسي باستانبول عبثًا . وعلم ريس أفندي بمقترحات روسين فكلفه بالوساطة بين محمد علي والباب العالي لوقف القتال على أن يعطى محمد علي ولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس ، فوافق روسين على الوساطة شريطة أن يغادر الاسطول الروسي المياه العثمانية . ووقع ريس أفندي مع روسين اتفاقا بهذا الخصوص في ٢١ شباط ١٨٣٣ (٩) .

وارسل روسين رسولا الى كوتاهية ليبلغ ابراهيم باشا الاتفاق الذي وقعه مع ريس افندي ، والذي ينسحب ابراهيم با شا بموجبه الى ما وراء جبال طوروس ، لكن ابراهيم باشا رد عليه ، بأنه مقيم في كوتاهية بأمر من والده ، وانه لن يعمل الا بالاوامر الصادرة عن محمد علي باشا .

وكان روسين قد أعاد الحكم العثماني الى أزمير في ٢٤ شباط ١٨٣٣ ، بعد أن احتلها ابراهيم باشا على اثر تقدمه الى كوتاهية . ووقف قناصل كل من انكلترا والنمسا وبروسيا الى جانب روسين في امره باعادة حكم السلطان العثماني الى أزمير (١٠) .

ولم يتأثر الموقف الروسي باتفاق ٢١ شباط بل ازداد قوة عندما عين رؤوف باشا صدرا اعظما في عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م .

وفي ١٥ آذار أبلغ الاميرال روسين الباب العالي بأن على الاسطول الروسي مغادرة مياه البوسفور خلال ٢٥ ساعة ، واذا لم يغادر خلال هذه المدة فانه ناقض لاتفاق ٢١ شباط لذلك استدعى السلطان العثماني ديوانه الى الاجتماع وكلف ريس أفندي بابلاغ الجنرال مورافيف (١١) أن الاتفاق قد أبرم مع محمد علي باشا ، فهو يأمل اعادة الاسطول الروسي الى المياه الروسية . وكانت انكلترة قد نظرت الى اتفاق ٢١ شباط نظرة ارتياح فكتب بالمرستون وزير خارجيتها رسالة الى وليام كامبل سفيرها في الهند قائلا ما معناه : ان تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند فهي أفضل من اي ملك عربي ، والواجب على الانكليز مساعدة السلطان العثماني (١٢) .

أما النمسا فقد تلقت خبر اتفاق ٢١ شباط بارتياح ، غير أن مترنيخ(١٣) وجه اللوم للجنرال روسين لانه جرح الشعور الروسي عندماطلب انسحاب الاسطول الروسي

من مياه البوسفور . ويرى مترنيخ انه لولا طلب هذا الانسحاب في الاتفاق لانسحب الاسطول الروسي .

وأحكمت روسيا قبضتها على البوسفور بأسطول حربي وجيش بري نكاية بالموقف الفرنسي . وارسل روسين رسالة مع رسول الى محمد علي ليبلغه اتفاق ٢١ شباط للعمل بموجبه ، فرفضه محمد علي ووجه انذارا الى الباب العالي بأن ابراهيم باشا مخول بالسلطة المطلقة للحصول على ولاية سورية وأدنة . فغضب روسين وكتب الى وزير خارجية فرنسة رسالة جاء فيها انه اذا ارادت فرنسا واوربا انقاذ السلطنة العثمانية وجب عليها ايقاف محمد علي ولو ادى هذا الى اعلان الحرب عليه ، واشار في رسالته الى احتمال(١٤) وصول ابراهيم باشا الى الاستانة بعد مرور ثمانية ايام وسيضطر السلطان الى اعطائه ولاية سورية . وتملك الباب العالي جزع شديد ، لذلك طلب رجاله النجدة من سفير روسيا ، وقرر روسين احباط خطة الباب العالي فتقرب من رجاله واتفق معهم في ٢٩ آذار ١٨٣٣ على ارسال فارين وكيل سفير فرنسا باستانبول مع مندوب عن الباب العالي (رشيد بك) الى كوتاهية للاتفاق مع ابراهيم باشا على منحه ولا ية سورية كلها ، وعلى تخفيض الشروط الخاصة بادنة . وحمل الرسولان كتابي روسين ومانديفل الى ابراهيم باشا بهذا الخصوص (١٥) . وأرسلت فرنسا بوالكنت وهو من كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية الى محمد علي ليقنعه بالجلاء عن الاناضول ، في الوقت الذي اصدر فيه بالمرستون الانكليزي اوامره بتعزيز البحرية الانكليزية بالبحر المتوسط . واشتد الاضطراب في لندن بسبب مجيء نجدة روسية الى استانبول في ٥ نيسان ١٨٣٣م ، فاقترح تاليران وزير خارجية فرنسا ان تتفق انكلترة والنمسا وفرنسا وروسيا على مساعدة السلطان العثماني دون ان تطمع اي منهن بامتلاك ارض تركية ، فوافقت انكلترا على: (١٦)

١ ــ عدم تجزئة تركيا .

٢ ــ يجب ان يتضمن كل اتفاق بين الباب العالي ومصر سيادة تركيا .

٣ ــ استخدام الوسائل اللازمة لارغام محمد علي على قبول هذا الاتفاق .

ولم ينل الاتفاق موافقة النمسا وروسيا ، لان السياسة الروسية تهدف الى السيطرة على المضائق ، وكانت النمسا متعاطفة مع روسيا .

اما فرنسا وانكلترا فقد صممتا على ابعاد النفوذ الروسي عن الدولة العثمانية والحيلولة دون ان يؤسس محمد علي دولة قوية .

لم تكن معاهدة كوتاهية الا تسوية مؤقتة لان محمد علي باشا لم يقبل بها الاخوفا من اجبار الدول له على ترك فتوحاته ، اما السلطان العثاني محمود الثاني فانه قبل بها لتفرق جيوشه وعدم امكانه صد هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة روسيا واعتبرها بمثابة هدنة ليعيد بناء قواته ، ومن ثم شن الحرب على ابراهيم باشا واعادة بلاد الشام ومصر ولاية عثمانية دون أي امتياز .

* * *

وبعد توقيع معاهدة كوتاهية في ٥ ايار ١٨٣٣ اخذ ابراهيم باشا ينظم ادارة بلاد الشام ، فعمل على ضرب نظام الاقطاع العثماني واعلن المساواة الدينية بين فئات السكان وشجع الزراعة واحياء الارض الموات واعادة الحياة الى القرى الخربة ، ومنع البدو من اخذ (الخوة) او الاعتداء على المزروعات . وبدا ابراهيم باشا للاهالي في بداية حكمه كمصلح(١٧) لكنه خضع لاوامر والده فاضطر الى فرض الضرائب الكثيرة ، وكان جنوده يصادرون المواشي وحيوانات الزراعة ، فنشبت الثورات الاولى ضده في نابلس والقدس ، ثم أمره والده بنزع سلاح السكان(١٨) وفرض التجنيد الالزامي عليهم ، فتصاعدت الثورات ضده في صافيتا وعكار وجبال العلويين . وكانت ثورات حوران ١٨٣٧ ــ ١٨٤٠ اعنف ثورات بلاد الشام واشرسها ضد الحكم المصري(١٩) .

استغل السلطان العثماني والانكليز اندلاع الثورات في بلاد الشام فدسوا الدسائس ضد ابراهيم باشا . والامر الجدير بالملاحظة هو : ان ابراهيم باشا قد طور اقتصاد بلاد الشام ولكن لخدمة سياسة محمد علي ، وان الدسائس العثمانية لم تكن لصالح الثوار بل لاعادة الحكم العثماني الى البلاد . اما الدسائس الانكليزية فقد كان هدفها التغلغل الاقتصادي في البلاد ، فقد دخل اول قنصل انكليزي الى دمشق في ٢١ رمضان ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م(٢٠) . وأرسل سفير انكلترا في الاستانة في عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤م ريتشارد وود ترجمان السفارة الانكليزية الى لبنان بحجة حبه لتعلم اللغة العربية ، فاتخذ كسروان مقرا له واخذ يدس الدسائس ضد ابراهيم باشا(٢١) . وكانت انكلترة الذراع القوي الذي استند اليه الباب العالي في حربه ضد ابراهيم منذ عام ١٨٣٤ ، فاخذ يحشد الجيوش في سيواس ، وأسند مهمة تدريبها الى ضباط بروسيين (ملباخ وفيشر وفون مولتكه ...) وكانت القيادة العليا في سيواس لرشيد باشا الذي اسره ابراهيم باشا في موقعة قونية كما مر .

وكان ابراهيم باشا ، على الرغم من تصاعد ثورات بلاد الشام ضده ، لا يغفل الحدود العثمانية . فقد كان يتوقع شن هجوم عثماني مفاجىء لان السلطان محمود

الثاني لم يغفر لمحمد علي فعلته تجاه بلاد الشام . وتروي المصادر العثمانية ان رشيد باشا توفي اثر اصابته بحمى ادت الى التهاب النخاع الشوكي ، فخلفه في قيادة الجيش العثماني حافظ باشا (٢٢) .

وكان الجنود العثمانيون يناوشون جنود ابراهيم باشا ، حتى انهم اجتازوا نهر الساجور ـ أحد روافد الفرات ـ وهاجموا فرقة فرسان مصرية ففرقوها وقتلوا منها وأسروا ٧٠أسيرا. وكان الانكليز والنمساويون يدفعون بالاتراك الى قتال الجيش المصري، فأصدر السلطان العثماني أمرا الى حافظ باشا بالهجوم على قوات ابراهيم باشا ، فعبر هذا نهر الفرات عند بلدة (بلاجيق) في شهر نيسان ١٨٣٩ وعسكر في سهول مدينة نصيبين (نزب) في ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ٢٤ حزيران ١٨٢٩ حيث التقى بالجيش المصري ، ودارت معركة شديدة اسفرت عن فوز المصريين وتقهقر الجيش العثماني ، وغنم الجيش المصري ١٦٦ مدفعا وعشرين الف بندقية وكثيرا من الذخائر والمؤن . ومن قبيل المصادفات ان المنية وافت السلطان محمود الثاني دون ان يعلم بنتيجة معركة نزب ، وصعد الى عرش السلطنة ابنه عبد المجيد البالغ من العمر يومذاك سبع عشرة سنة (٢٣) .وأسند الخليفة منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا غير عالم بالعلاقة السلبية بين أحمد باشا ، قائد الاسطول العثماني ، وبين خسرو باشا الذي كان على علاقة سيئة مع محمد علي باشا ، لانه اخرج من مصر بناء على رغبة أهليها عندما طالبوا بتعيين محمد علي واليا عليها ، فقاد احمد باشا الاسطول العثماني واتجه الى الاسكندرية ، وهناك سلمه الى محمد علي باشا في ٢ جمادى الاولى ١٢٥٥/ ١٤ تموز ١٨٣٩ ، وطلب اللجوء السياسي من محمد علي(٢٤) .

وعندما علم قناصل الدول الاوربية بالاستانة بتسليم الاسطول العثماني الى محمد علي باشا خشوا ان يزحف ابراهيم باشا على الاستانة فترسل روسيا جيوشها لمحاربته استنادا الى معاهدة اونكيار اسكلة سي ، لذلك اجتمع سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا ووجهوا مذكرة موقعة منهم الى السلطان العثماني في ١٦ جمادى الاولى ٢٨/١٢٥٥ تموز ١٨٣٩ ، طلبوا منه بموجبها ان لايقر شيئا في أمر المسألة المصرية الا باطلاعهم ، وابدوا استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه المشكلة . وقبل السلطان والباب العالي مذكرة قناصل الدول الاوربية ، واجتمع أولئك السفراء مع الصدر الاعظم وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد علي . وابدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع بلاد الشام للدولة العثمانية ،وعارضهم في هذا الراي سفيرا فرنسا وروسيا وطلبا ان يمنح محمد علي مصر وولايات الشام الاربع . لكن سفير بروسيا انحاز الى الراي الاول ، واقترح مترنيخ مستشار النمسا ان يعقد مؤتمر دولي في مدينة فيينا او لندن لاتمام المحادثات حول المسألة المصرية(٢٥) .

وقد عارضه كل من سفيري فرنسا وانكلترا لعدم ثقتهم به ، واعلن سفير روسيا حق بلاده في التمسك بمعاهدة اونكيار اسكلة سي . لذلك طلب سفير فرنسا وسفير انكلترا من الباب العالي تصريحا لمراكب دولتيهما بالمرور من مضيق الدردنيل لحماية الدولة العثمانية ، عند الضرورة ، من روسيا ومن العساكر المصرية ، وجاء الاميرال ستوفورد الى الاستانة للحصول على هذا التصريح . ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول انشقاق بين الدول المتوسطة . واعلن سفير روسيا بانه سيقطع علاقته مع الباب العالي ويغادر الى موسكو اذا دخل الاسطول الانكليزي او الفرنسي مضيق الدردنيل او البوسفور . وكانت حكومته قد ارسلت له مركبا حربيا ليسافر عليه اذا اقتضى الحال (٢٦) . وكتبت النمسا رسالة الى لندن واخرى الى باريس معلنة ان طلبهما مخل بسلم اوربا ، وان النمسا ستخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل ، اذا اصرت الدولتان على هذا الطلب . وعندما علم الباب العالي بموقف النمسا خاف من تفاقم الخطب ، فرفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا ، وطلب منهما ابعاد اسطوليهما عن مضيق الدردنيل(٢٧) . وتقدم بوسونبي سفير انكلترا بالاستانة بعرض الى الباب العالي جاء فيه ان دولته قادرة على ارغام محمد علي باشا على رد الاسطول العثماني شريطة حصوله على موافقة الدولة العثمانية على السماح للاسطول الانكليزي بدخول خليج استانبول لصد الاسطول الروسي عند الضرورة . وعندما علمت فرنسا بالعرض الانكلزي ارسلت الى الاميرال لالاند قائد الاسطول الفرنسي بالمياه العثمانية في ١٨ كانون الاول ١٨٣٩ أمرا بان لا يشترك مع الاسطول الانكليزي في اية حركة عدوانية ضد محمد علي باشا . واصبح الخلاف بين انكلترة وفرنسا حول المسالة المصرية امرا محتما ، اذ رات انكلترا ارجاع محمد علي باشا من بلاد الشام الى مصر ، في حين كانت فرنسا ترغب ببقائه فيها(٢٨) . أما النمسا ، فقد قررت عدم التدخل لان الدول لم توافق على طلبها بعقد اجتماع في فيينا او برلين ، واعلمت كل من روسيا وبروسيا بانهما تقبلان كل ما تقرره الدول بشأن المسالة المصرية شريطة ان يكون الحل موافقا لرغبة الباب العالي .

ودار النقاش بين انكلترا وفرنسا ، فقد رات الاولى تجريد محمد علي من بلاد الشام في الوقت الذي رات فيه فرنسة عدم حرمانه من بلاد الشام وخاصة بعد ان قهر الجيش العثماني في معركة نزب ، واعلنت انكلترا موافقتها على اعطاء محمد علي نصف بلاد الشام الجنوبي مدى حياته بشرط ان لا تدخل مدينة عكا من هذا النصف ، فرفضت فرنسا اقتراح انكلترا بحجة انه يفتح باب الحرب امام محمد علي ، ويتيح الفرصة لتدخل روسيا ، وتكون الحرب العامة نتيجة لذلك(٢٩) . اما روسيا فقد رات ان تغتنم فرصة الاختلاف بين انكلترا وفرنسا لتعزيز نفوذها في الشرق وحق حمايتها

للدولة العثمانية ، لذلك ارسلت البارون دي‌برونو الى لندن بصفة سفير فوق‌العادة، فوصلها في ٢٨ ايلول ١٨٣٩ ، واعلن للحكومة الانكليزية نيابة عن قيصر روسيا بان حكومته تترك لانكلترا حرية العمل بمصر وتساعد في اذلال محمد علي باشا بشرط ان توافق على انزال جيش روسي قرب استانبول في مدينة سينوب على شاطىء البحر الاسود . لكن بالمرستون لم يقبل الحل الروسي بحجة استقباح الرأي العام له ، بل طلب من روسية ان تتنازل عن كل ما خولتها اياه معاهدة اونكيار اسكلة سي من حق في حماية الدولة العثمانية ، فرفضت روسيا ذلك . وارسلت روسيا للمرة الثانية برونو الى لندن في تموز ١٨٤٠ ، حاملا اقتراحات جديدة : ان ترسل كل من انكلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية الى بحر مرمرة للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية الاستانة لو هاجمها ابراهيم باشا ،ولم تفز روسية بمرامها في هذه المرة أيضا (٣٠) .

وعلم محمد علي باشا بالمحادثات الدائرة ضده على‌ساحة أوربا ،وتاكد من تصميم انكلترا على ارجاع جيشه من بلاد الشام الى مصر ، ومن ان فرنسا لا تتمكن من مساعدته ، بالاضافة الى تعصب معظم دول اوربا ضده . لذلك قرر رد القوة بالقوة بحيث لا يسلم شبرا من الارض التي احتلها الا مضطرا . ، واخذ يستعد لخوض معركة قريبة الحدوث مع الدول الاوربية . وعادت النمسا في اوائل عام ١٨٤٠ م الى طلب عقد اجتماع الدول في مؤتمر في فيينا لتسوية المسألة المصرية ، واستجابت انكلترا لطلبها وتقرر عقد المؤتمر في لندن ، وان يكون للباب العالي مندوب فيه مراعاة له لما يتمتع به من سيادة على البلاد المتنازع عليها (٣١) . وجاء تولي تيير رئاسة الوزارة الفرنسية في اول اذار عام ١٨٤٠ ليضع خطة جديدة في حل المسألة المصرية ، اذ قرران يحلها باتفاقه مباشرة مع الباب العالي ومحمد علي باشا ، وذلك بان يلزم الباب‌العالي بان يترك لمحمد علي ولايات مصر والشام ، وهدد بالوقوف الى جانب محمد علي باشا. وارسل تيير الى والي مصر بان لا يقبل مطالب انكلترا . ولما علم بالمرستون بنوايا تيير حقد عليه وبذل جهودا كثيرة في الاتفاق مع النمسا وروسيا وبروسيا لارجاع محمد علي الى مصر . ونجح بالمرستون في‌مسعاه ووقع في ١٥ تموز ١٨٤٠ مع الدول الثلاث ومندوب الباب العالي معاهدة لندن . وجاء فيها (٣٢) :

١ ـ يلزم محمد علي باشا بارجاع ما احتله للدولة العثمانية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من بلاد الشام ماعدا مدينة عكا .

٢ ـ ان يكون لانكلترا حق الاتفاق مع النمسا في محاصرة موانىء بلاد الشام ومساعدة كل من اراد من الاهالي خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العثمانية ،

واشعال نار الثورة ضد الجيوش المصرية كي لا تقوى على مقاومة المراكب الانكليزية والنمساوية .

٣ ــ يحق لاساطيل انكلترا والنمسا وروسيا الدخول معا الى مياه البوسفور لحماية الاستانة في حال تعرضها لهجوم الاسطول المصري .

٤ ــ لا يحق لاي اسطول حربي دخول مياه البوسفور مادامت الاستانة غيرمهددة.

٥ ــ يجب على الدول الموقعة على معاهدة لندن ان تصدقها خلال مدة لاتزيد على شهرين وان يكون التصديق في مدينة لندن .

ابرمت معاهدة لندن بين دول اوربية بحضور مندوب عن الباب العالي . وقد قررت الدول الموقعة على تلك المعاهدة معرفة موقف السلطان ، تجاه المعاهدة من جهة ، وتجاه محمد علي باشا من جهة ثانية ، لذلك ابرمت مع السلطان عبد المجيد اتفاقية عرفت بملحق معاهدة لندن ، ضم الملحق البنود الاتية :(٣٣)

١ ــ يمنح السلطان العثماني محمد علي باشا وسلالته من بعده ولاية مصر ، ويمنحه ولاية عكا والجزء الجنوبي من بلاد الشام مدى حياته ، بشرط قبوله هذه المنح خلال مدة عشرة ايام من تبليغها اليه في الاسكندرية على يد رسول من قبل السلطان ، ويسلم محمد علي الى رسول السلطان الاوامر اللازمة لقواد قواته برا وبحرا لينسحبوا في الحال من الاناضول وبلاد الشام ، ماعدا الجزء الذي منحه له السلطان .

٢ ــ اذا لم يقبل محمد علي هذه التسوية خلال عشرة ايام يفقد ولاية عكا وتبقى ولاية مصر له ولسلالته بالوراثة ، شرط ان يعلن قبوله هذه المنحة في مدى عشرة أيام تالية للعشرة الاولى ، ويسلم محمد علي التعليمات اللازمة لانسحاب قواته برا وبحرا الى حدود ولاية مصر .

٣ ــ ان يعيد محمد علي الاسطول التركي الى السلطنة العثمانية في مدى عشرين يوما تبتدىء من اليوم الاول الذي يتلقى فيه البلاغ (الملحق) ويشهد روبرت ستوفورد قائد اساطيل الحلفاء تسليم الاسطول المصري .

٤ ــ تعتبر المعاهدات والقوانين النافذة في السلطنة العثمانية نافذة في مصروولاية عكا . ويمنح محمد علي حق تحصيل الضرائب والرسوم مقابل دفعه اتاوة للسلطان العثماني .

٥ـ تعد القوات البرية والبحرية التي ينظمها محمد علي باشا في مصر قسما من قوات السلطنة وتعتبر دائما معدة لخدمة الدولة العثمانية .

٦ ـ اذا لم يقبل محمد علي في مدى عشرين يوما بنود الملحق ، يكون السلطان حرا باتباع الخطة التي يراها مناسبة ، طبقا للنصائح التي يسديها اليه حلفاؤه .

وبعد اقرار بنود الملحق وقع الحلفاء اتفاقا بينهم بتنزههم جميعا عن كل ربح او مغنم . وارسل السلطان العثماني ، في ١٤ اب ١٨٤٠ ، رفعت بك الى الاسكندرية ليبلغ محمدا عليا قرار السلطان والدول الاوربية . وعندماعلم محمدعلي ببنود الملحق اجاب: ان ما اخذته بالسيف لا اسلمه الا بالسيف . وجاء قناصل الدول الاربع انكلترا ، النمسا ، روسيا وبروسيا ، في ١٥ جمادى الثانية ١٢٥٦هـ/١٥ اب ١٨٤٠ ، الى مقر محمدعلي باشا وابلغوه قرار الدول (معاهدة لندن ١٨٤٠) واستمهلوه عشرة ايام ، وبلغوه ان فرنسا لا تستطيع مساعدته وان الدول مصممة على تنفيذ قرارها وان ادى ذلك الى اعلان الحرب ضده ، فاصر محمد علي على ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة(٣٤) . وفي ٢٤ آب عاد قناصل الدول ومندوب السلطان وابلغوا محمد علي انه لم يبق له حق في ولاية عكا لانه لم يعلن قبوله في الايام العشرة الاولى ، وان الدول لن تسمح له الا بولاية مصر كما جاء في قرارها . فاحتد محمد علي غضبا وطرد القناصل من حضرته ، لكنهم اعطوه مهلة عشرة ايام اخرى لاعطاء جوابه ، فان لم يفعل تكون الدول المتحالفة غير مسؤولة عن النتائج ، اما فرنسة فلم تقدم المساعدة التي وعدت بها الى محمد علي ، وحمل الشعب الفرنسي تيير المسؤولية وطالب باعفائه من منصبه ، فتخلى عنه في ٢٩ تشرين الاول عام ١٨٤٠م . وشكلت الدول الموقعة على معاهدة لندن قوة مشتركة لالزام محمد علي باشا بتنفيذ بنود المعاهدة اذا رفض قبولها . وكانت القوة من قسمين : برية بقيادة الجنرال الانكليزي سميث ، وبحرية مؤلفة من عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر ، المعروف عند الاتراك باسم ياور باشا(٣٥) . وفي ٩ ايلول ١٨٤٠ وصل الاميرال الانكليزي ستويفورد القائد العام لقوات الحلفاء الى مدينة بيروت ، وانضم الى قوات نابير الانكليزي الذي كان قد اعلن عن مجيء القوات الحليفة وتوزيعها السلاح على الاهالي والثائرين ضد ابراهيم باشا . ونزلت القوات الحليفة مقابل بيروت وهاجمت ميناءها الذي كان قاعدة للجيش المصري ، وانزل الاسطول الجيوش على شواطىء جونية ، وقد اعلنت الدول الاوربية التي اشتركت في الحرب ضد ابراهيم باشا الغاية من تدخلها كما جاء في اعلان وزارة الخارجية البريطانية وهي : الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية ، وللدول الموقعة على معاهدة لندن ١٨٤٠ الحق في الحفاظ على سلامتها لان سلامة

السلطنة العثمانية من مقتضيات توازن القوى في اوربة وهي ضرورية لحفظ السلام في العالم .

وعندما كان الاسطول الانكليزي راسيا امام بيروت وصلت سفينة من مصر فأمر الاميرال نابير بتفتيشها فوجدوا فيها رسالة من بوغوص بك وزير خارجية محمد علي باشا الى سليمان باشا الفرنساوي معاون ابراهيم باشا يؤكد فيها ان فرنسا ستستدعي قنصلها مورا من بيروت لانه كان يساعد الثوار ضد المصريين(٣٦) . اما امير جبل لبنان بشير الشهابي الثاني الذي اضطر الى الوقوف الى جانب ابراهيم باشا فقد حرم على اهالي لبنان التعاون مع القوات المشتركة وهدد بانزال اقصى العقوبات بالمتعاونين معها . واستمرت قوات الحلفاء في شن الهجوم على جيش ابراهيم باشا ، خلال الفترة من ٩ ايلول حتى ١١ تشرين اول ١٨٤٠ ، وكانت معركة قرية (بحر صاف) معركة شديدة اسر الحلفاء فيها من جيش ابراهيم باشا ٧٠٠ اسير . وارتد ابراهيم باشا الى البقاع في ١١ تشرين الاول وسلمت الحامية المصرية المرابطة في بيروت (٣٧) . وكان الحلفاء قد خلعوا الامير بشير الشهابي الثاني وعينوا بدلا منه ابن عمه الامير بشير قاسم ، وعلم الامير بهزيمة ابراهيم باشا وتسليم حامية بيروت لذلك غادر مقره في بيت الدين في ١١ تشرين الاول ١٨٤٠ واتجه الى صيدا واعلن الى خالد باشا متسلم صيدا انه جاء مستسلما . فقابله بالاجلال والاحترام ، واتجه من صيدا الى بيروت في سفينة خاصة مع ابنه الامير امين وحفيده الامير محمود ولما وصل بيروت ابلغه عزت باشا الذي عين واليا على سورية ان يختار لنفسه مكان الاقامة ما عدا فرنسا ومصر وسورية ، فاختار جزيرة مالطة ، واتجه اليها على ظهر باخرة انكليزية في ١٦ تشرين الاول ١٨٤٠م ، ومعه زوجه واولاده واحفاده وثلة من اعوانه وخدمه . وهكذا طويت صفحة امارته بعد حكم طويل(٣٨) . وبعد تسليم الامير بشير ، انسحبت الحاميات المصرية من طرابلس واللاذقية وادنة بدون قتال ، ولم يبق من مدن الساحل في ايدي المصريين سوى عكا . واصدرت انكلترا أوامرها الى الاميرال روبيرت ستويفورد في أواخر تشرين الاول بمهاجمة عكا ، فجمع قوات برية وبحرية وحاصرها في ٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ ، وامطرها وابلا من القذائف دمرت حصونها وكبد المصريين خسارة فادحة في الارواح قدرت بالفي قتيل وجريح وثلاثة الاف اسير ، وبعد الاستيلاء على عكا اتجه اسطول الحلفاء الى يافا واحتلها بلا قتال . وبعد السيطرة على عكا ويافا وحيفا ارسل الحلفاء الاميرال الانكليزي نابيير الى الاسكندرية ليضغط على محمد علي فوصل اليها في ٢١ تشرين الثاني وفي يوم ٢٢ منه وجه رسالة الى محمد علي عن طريق بوغوص بك ، ووقع نابيير اتفاقا في ٢٧ تشرين الثاني ، مع محمد علي باشا ، نص على جعل حكم مصر والسودان وراثيا في اسرته (٣٩) .

وبقي الموقف الفرنسي الى جانب محمد علي باشا . فقدوجهت الحكومة الفرنسية مذكرة الى الحلفاء في ٨ تشرين الاول حملت الحلفاء فيها اسباب وقوع الحرب لانهم حرموا محمد علي ثمرة انتصاراته واقدموا على تنفيذ قرار السلطان العثمايي بعزله .

وكانت فرنسا قد وجهت رسالة الى محمد علي باشا حضته على ترك بلاد الشام والاكتفاء بمصر ، فوجدت رسالتها قبولا عندما علم محمد علي باشا بتعيين الامير بشير قاسم بدلا من الامير بشير عمر الشهابي الثاني ، وبسبب سيطرة الحلفاء على ساحل بلاد الشام ، بالاضافة الى نقص الاموال في مصر ، وكان جيشه في بلاد الشام تعبا بسبب الحروب التي ما زال يخوضها منذ ثماني سنوات . وكان السلطان العثماني قد حصل على فتوى في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٠ بخلع محمد علي من الحكم واعلن تعيين عزت محمد باشا خلفا له في حكم مصر وسورية(٤٠) .

وكان اتفاق نابيير مع محمد علي المار الذكر ، والموقع في ٢٧ تشرين الثاني ، قد اكده قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر المتوسط (نابير) الذي ذهب الى ميناء الاسكندرية وعرض على محمد علي ان يعرض الاتفاق بينهما على دول اوربية لتثبيت حكم محمد علي الوراثي في مصر ، لذلك اصدر محمد علي امرا الى ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من بلاد الشام والعودة الى مصر والتزم محمد علي باتفاق ٢٧ تشرين الثاني والذي تضمن اعادة الاسطول التركي والانسحاب من بلاد الشام والاكتفاء بحكم مصر على ان يورث هذا الحكم لاولاده الذكور .

وتلقى ابراهيم باشا امر والده في ٩ كانون اول ١٨٤١ بالانسحاب فاخذ يستعد لمغادرة بلاد الشام ، وكان الحلفاء قد اعدوا خطة للايقاع بابراهيم باشا خلال انسحابه لكن ابراهيم باشا ، بعد ان اعلن طريق انسحابه ، تحول عنه فجأةالى طريق اخر فجنب نفسه خطورة مؤكدة ، وعاد الى مصر .

المصادر

(١) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

(٢) الباب‌العالي : بني في استانبول ، وكان مقرا للصدر الاعظم ، واعتقد الناس انه مركز السلطة العليا بالسلطنة العثمانية منذ ان وصل مصطفى باشا من اسرة كوبرولي الى منصب الصدارة العظمى (١٦٩١) . وتعرض الباب العالي الى الهدم مرات عديدة وأعيد ترميمه . ويقع الان خلف مديرية الامن باستانبول وقرب ارشيف باش باكانليك (رئاسة الوزراء) فيها .

(٣) وكان عدو محمد علي باشا في استانبول الصدر الاعظم خسرو باشا الذي بدأ خدمته في قصر السلطان العثماني وترقى الى المناصب الرفيعة ، ناصب محمدا عليا والي مصر العداء ولعب دورا خطيرا في المشاكل التي نشبت بين تركية ومصر ، أباد الانكشارية . امضى اخريات ايامه في عمل الخير وتوفي في عام ١٨٥٥م .

(٤) بطرس الاكبر او بطرس الاول (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥م) ، امبراطور روسية (١٧٢١ ـ ١٧٢٥م) وقيصرها. وهو مؤسس الدولة الروسية الحديثة . كان أصغر أولاد القيصر الكسيس من زوجته الثانية . قضى بطرس صباه شبه منفي باحدى ضواحي موسكو ، يحيط به رفاق من أشد الصبية خشونة ، وظهرت عليه موهبة القيادة في حالة مبكرة . وجعل هدفه بعد أن وصل الى الحكم السيطرة على البحر البلطي والبحر الاسود لكي تصبح روسية دولة بحرية وتجارية .

(٥) ارشيف استانبول (رئاسة الوزراء) ، دوسية ٧٨ .

(٦) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم (١) .

(٧) المصدر نفسه

Dosya Usulu - Iradaler Jurba - 78

الوثيقة المرفقة رقم (٢) .

(٨) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم ٣ . ثم انظر محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٩) عبد الرحمن الرافعي بك ، عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٩١ . ثم انظر الوثائق العثمانية المرفقة ، ثم انظر كادلفين وبارو ، حرب مصر ضد الباب العالي والاناضول سنة ١٨٣١ ـ ١٨٣٣، ص ٤١٢ .

(١٠) ارشيف استانبول ، خارجية ، دفتر رقم ١ تاريخ ١٢٤٩ ، الوثيقة رقم ٣٤ .

(١١) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ، وثيقة رقم ٣٥٨٢٢ .

(١٢) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٩ ، الوثيقة رقم ٣٦٨١٢ .

(١٣) مترنيخ : سياسي نمسوي ، كان سفيرا للنمسة في باريس عام ١٨٠٦ وترأس مؤتمر فيينا ويانة في عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ ، كان زعيما للرجعية واعتزل السياسة عام ١٨٤٨ وتوفي عام ١٨٥٩ .

(١٤) ارشيف استانبول ، ارادة ، الدفتر رقم ١٢٤٩ داخلية ،الوثائق ٣٣،٢٩ ١٢٣، ١٥٠ .

(١٥) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتري ، من اوائل ربيع الاخر عام ١٢٤١ الى اخر جمادى الاخرة ١٢٨٠ هـ رقم الدفتر ١٣ ، الصفحة ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ – ١٣٥ .
(١٧) H. Dodhel , The Founder of Modern Egypt, Cambridge, 1931 , p.253.
وانظر ، أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، ج٢ ، بيروت ١٩٤١ ، ص ١٢٤ .
(١٨) اسد رستم ، المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ . ثم انظر سميليا نسكايا ، الحركات الفلاحية في لبنان ، ص ٧٥ .
(١٩) أسد رستم ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٤٣ ص ٢٤٠ – ٢٤١ – ٢٤٣ – ٣٤٤ ، الجزء الثالث ، بيروت ١٩٤٢ ، ص ٣٣٠ – ٣٣٣ .
(٢٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ج٣ ص ٦٣ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وانظر بيركربتيس ، ابراهيم باشا في سورية ، تعريب بدران ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢١٣ ، ٢٥٨ .
(٢١) ريتشارد وود : قنصل انكلترة في الاستانة ، ارسل الى لبنان لزرع بذور الثورة ضد ابراهيم باشا، ووقف ضد الامير بشير الشهابي الثاني ودعم الامير بشير قاسم الذي عين بمساعيه حاكما على جبل لبنان بعد رحيل الامير بشير الثاني .
(٢٢) ارشيف استانبول ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارادة داخلية ، الوثائق رقم ١٢٣ ، ١٥٠ ، ٢٣٧ ، ٢٧٠ وانظر الارقام : ١٩٠٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٤٧ ، ١٠٣ في الدفتر نفسه .
(٢٣) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارقام ٣٣ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ٨٧ .
(٢٤) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ،١٩٧٧، ص ٢٤٢.
(٢٥) ارشيف استانبول ، Gefdet Lktisat مؤرخة في عام ١٢٥٥هـ ص ١٢٢ .
(٢٦) ارشيف استانبول ، جودت ، مالية ، دفتر رقم ١ ، الوثائق ذات الارقام : ٩١٠٧ ، ٩٣٠٦ ، ٩٣٥٧ ، ٩٦٧٥ .
(٢٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨، الوثائق : ٣٥٧٩١ ٣٥٨٢٢ ،٣٣٨٥٦ .
(٢٨) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ،الوثيقة رقم ٣٦٢٠٦ .
(٢٩) ارشيف استانبول، المصدر نفسه، الوثائق : A ٣٦٢٠٠ - B ٣٦٢٠٠ - C ٣٦٢٠٠ - D ٣٦٢٠٠.
(٣٠) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ص ٢٣٩ .
(٣١) ارشيف استنبول Meclis , Hariciys، دفتر ٢٦٠ ، ١١ الوثائق ذات الارقام ١٣٢، ١٧٣، ١٨٣.
(٣٢) المصدر نفسه ، الوثائق ١٨٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ .
(٣٣) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ص ٤١٠ ، ثم انظر محمد فريد بك المحامي – المصدر السابق ص ٢٤٣ .
(٣٤) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٣٥–٣٦–٣٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ٩ ، الوثائق : ١٧٢١٢ ، A ١٧٢٨٥ ، B ١٧٢٩٧ .
(٣٨) فيليب حتى ، تاريخ لبنان ، تعريف د.انيس فريحة ، بيروت ، ط٣ ١٩٧٨ ، ص ٥١٦ .
(٣٩) محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق ص ٢٤٠ .
(٤٠) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، دفتر عام ١٢٥٦، الوثائق ١٠٥٦، ١٠٩٦ :٢، ١٠٩٧: ٢، ١١٩٠، ١٤٤٦ .